خبز تحت الحصار
مجموعة قصصية

خبز تحت الحصار

مجموعة قصصية

تدقيق لغوي: تامر عبد الحميد

تصميم الغلاف: رشا أحمد

الترقيم الدولي: 978/977 – 835 – 117 – 0

رقم الإيداع: 2019/10899

زحمة كتاب / اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : Scribe20199@gmail.com

الهاتف: 01099727510

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

مما لا شــك فيه أنَّ العصرــ الذي نعيش فيه يموج بالكثير مِن الأحداث ، والكاتب يتأثرُ بما يدور حوله؛ وقد تختلط معه الحقيقة بالخيال؛ مِمَّا ينتج أدبًا ثريًا بالأفكار والرؤى.

وهذه المجموعة القصــصــية : "خبز تحت الحصــار" هي أول مجموعة قصصية تضمُّ مجموعة مِنْ كُتَّابِ القصة القصيرة مِنْ مصر والجزائر.

وأنا ســعيد جدًا بهذه التجربة الثرية؛ وأعدكم بتقديم إصــدارات تحمل الكثير مِن الأفكار والقيم التي تسمو بمجتمعنا العربي.

أ / يوسف حسين

مدير دار "اسكرايب"

التَّعْوِيذَةُ

سامي علوان

بِيْدَ أنَّنِي لَمْ أوافقْها على تصرفها هذه المَرَّة ،وعلى ما بَدَرَ مِنِّي في حقها .

في طفولتنا ... صِـــبَانَا .... مُرَاهَقِتِنا ...كانت الخطوات الأولى للمضيـ قُدْمًا كالأعمى كُلَّمَا أبصرتُ عينيها، وهى تتنفسُ فوق سـطح مياه الترعة الصغيرة، تقفزُ ،وتَحُطُّ، وتخترقُ سطحَ الماءِ .

كانتِ البداياتُ الأُولَى وَسْطَ مَشَاتِل الأرزِ؛ حينما كنتُ أستذكرُ دروسِي حاملًا الكِتَابَ، أسيرُ الهُوَيْنَى وناظري ما بين السُّطُورِ .

عدتُ على صـوتِ ارتطامِها بمياهِ المَشْـتَلِ، وهى تقفزُ وتَحُطُّ ، ساعتُها أبصرتُها ،عيناي السمراوتان تعكسُ شعاعَ الشمسِ الساقطِ على جَسَدِها السمينِ بين عِيْدَانِ الأرزِ هُنَا وهُنَاكَ .

لَمْ أتمالكْ نَفْسِيـ، وكأنَّ عينيها الحمراوان سَـحَرَتْني، وسـاقتْنِي على غيرِ إرادتِي حَيْثُ هِيَ؛ لأَجِدَ نَفْسِى عالقًا وَسْطَ الطينِ أطاردُها بكلتا يَدَاي، ولَمْ أَدْرِ سَـــاعَتَها أكانتْ هِوَايَةً ؟، أَمْ غِوَايَةً ؟، أَمْ تعويذة أسرتْنِي؟، أم أنَّها حِكَايَاتُ أَبِي عَنْ فترةِ صِـــبَاه، كأنَّ مطاردتِي لها مَرَضٌ انتقل بالعَدْوى؟!!

وكأنَّ مخيلتي مستقبلات تُوَجِّهُنِي، وتَسُوقُنِي إليها عَبْرَ الجرفِ إلى تلك الترعةِ الصغيرةِ ،ألاحقُها؛ لأتخطَّفَها مِنْ موطنِها عَبْرَ الشُّقُوقِ الصَّخْرِيَّةِ المنتشرةِ على حافتيهَا، وكأنَّ يَدَاي تجذبُها إليها؛ حتَّى أصبحتْ سعادتِي نشوتي أَنْ أمسكَها .

في لحظةِ صمودٍ حاولتُ، وحاولتُ أنْ أكونَ مِثْلَهم، وأجلسَ على الشاطئ، وأرمِي خيطَ الصِّنَارَةِ في مياه الترعةِ الصغيرةِ .

انهار صَبْرِي سريعًا؛ فوجدتُ نَفْسِي ما أعجلها لا تطيقُ الانتظارَ؟!

أقفُ بجانبِ الساقيةِ على مقربةٍ مِن الترعةِ؛ أرقبُ حركاتِها، وأُذُنِي تترصَّدُ همساتِها، وهى تقفزُ وتَحُطُّ كشعاعٍ سَاقِطٍ في قوسِ قَزَحٍ، تخرجُ رأسَها، تتنفسُ ثُمَّ تعودُ إلى الأعماقِ والجُحُورِ؛ فحرارةُ الصيفِ تلفحُ الوجوهَ .

أهمسُ في صَمْتٍ لمَنْ حَوْلِي أنْ يهدأوا قليلًا لمباغتتِها، وهى تسبحُ هائمةً في الترعةِ .

وجدتُ نَفْسِي أقفزُ داخلَ الترعةِ، أحتضنُ المُويجَاتِ؛ وأموجُ معها سابحًا إليها، يملأني الشغفُ والحنينُ إلى ملامستِها والإمساكِ بها .

بدأنا بكُلِّ حيويةٍ ونشـــاطٍ نَصْـــنَعُ سَـــدًّا مِنْ عِيْدَان الأرز، والحشـــائش الجافة، والطين، بعَرْض الترعةِ ما بين الســـاقيةِ وبَوَّابَةِ التغذيةِ .

صـــعدتُ ناحيةَ السَّـــاقِيةِ؛ وأخذتُ أعملُ على دورانِها رويدًا رويدًا؛ حتَّى صعدتِ المياهُ بداخلِها؛ وأخذتْ تتساقطُ مِنْ فوهاتِها في مَجْرَاها الجَديدِ .

أخذتِ المياهُ في الانحســـارِ؛ وبدأتِ الأســـماكُ تتراقصُ وتقفزُ؛ وتخرجُ رؤوسَـــها، تتنفسُ وتعودُ؛ لتغوصَ داخل الشُّـــقُوقِ، والطَّيْنِ، والجُحُورِ التي هِيَ أشبهُ بالمخابئ وسط الصخور .

لم تكنْ تلك اللحظات لتَضِـــيعَ هَبَاءً بعد كُلِّ هذا المجهودِ المبذولِ، وأنا أبصرُـــ كَيْفَ أنَّ تلك التياراتِ المُتَدَفِّقَةَ مِن الأمواجِ البسيطةِ؛ تسحبُ الأسماكَ في طريقِها داخلَ مَجْرَى الساقيةِ ثُمَّ تعودُ سريعًا تقاومُ بكُلِّ قوتِها، تضربُها؛ وتَشُـقُّها لتسبحَ عكس التيارِ؛ لتعودَ داخلَ الترعةِ الصغيرةِ .

-"أضـعُ يَدَاي في الشَّـقِّ أطاردُها؛ أتَحَسَّـسُ المكانَ، وكأنَّ يَدَاي تُبْصِرَانِ ما بداخلِهِ، وهِيَ تتقهقرُ للوراءِ مذعورةً؛ لإحسـاسِـها بالخطرِ الجسيمِ كُلَّمَا اقتربتْ يَدَاي؛ ولامستْها" .

-"كان أَبِي مِنْ أطيبِ النَّاسِ وأحرصِهم علينا، وكانتْ أُمِّي تُحَذِّرُنِي مِنْ بَطْشِـه سـاعة الغضـب، وكانتْ تَنْصَـحُنِي ألا أغضـبه ،أو أسْـتَفِزَّهُ بمراهقتي وأفعالي الطائشة ،وكَمْ أَنْبَأتْنِي أنَّهُ قَاسٍ عند الغضب "

عَنَّفَنِي والدي أكثرُ مِنْ مَرَّةٍ؛ خوفًا عَلِيَّ مِن الإصـابةِ بالبلهارسـيا المنتشرةِ في تلك الترعةِ .

كنـتُ قـد حـاولـتُ جـاهـدًا أكثر مِنْ مَرَّةٍ؛ أنْ أتوقَّفَ عَنْ تلـك العَادَةِ؛ ولَكِنَّ يبدُو أنَّنِي قد أصـــابتْنِي تعويذةُ سِـــحْرٍ؛ بمُجَرَّدِ أنْ أَرَى عَيْنَيها، وهِيَ تتنفسُ فوقَ سطحِ الماءِ .

لحظتُها لحظتُها فقط، سريعًا ما كنتُ أفقدُ ذاكرتِي؛ وأتناسى الآلامَ التي أصابتْنِي؛ مُنْذُ أنْ ضربَنِي والدي بالعَصَا الخيزران .

مَرَّتِ الأيَّـامُ سريعًـا، وإذا بِي أعودُ مِنْ جـديـدٍ؛ حَيْـثُ بـدايـاتِ عاصـــفةٍ قويةٍ ؛انهارتْ مِنْ قبلها كُلُّ محاولات والدي؛ وعدتُ معهم أُحَرِّكُ الســـاقيةَ؛ وأقفزُ معهم داخل الترعةِ الصـــغيرةِ؛ أطاردُهم بكلتا يَدَاي، وكأنَّها تبصرُـهم، وأخذتُ أمســـكُ وَاحِدَةً تلو الأخرى ؛وأقذفُها على الشـــاطئ، تقفزُ وتَحِطُّ مَرَّة مَرَّتان ثلاث؛ قَبْلَ أنْ يُمْسِـــكَها أخِي الصَّغِيرُ؛ ويَضَعَها في الدَّلْو ....واحدة ..... اثنتان ..... ثلاث .

لحظاتٌ قليلةٌ مَرَّتْ علينا، ونَحْنُ نقذفُ بالأسماكِ على الشاطئ وَاحِدَةً تلو الأخرى.

فجأةً تَسَمَرَّتْ أقدامُ كُلِّ مَنْ حَوْلِي؛ وسكتتِ الأصواتُ؛ وسَيْطَرَ الهدوءُ على المكانِ على غيرِ العَادَةِ ،هدوءُ ما قَبْلَ العاصـــفةِ؛ حتَّى أنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُسْمَع سِوَى صَدَى صَوْتِي أُنَادِي عليهم" .

ألتفتُ إلى الخلفِ؛ حَيْثُ سكنتْ أبصارُهم .

أشار إِلَيَّ :

-"اصْعَدِ الجَرْف!!"

-"تملكتْنِي رَعْشَةٌ خفيفةٌ؛ وأحسستُ ببرودةٍ تسري في جَسَدِي؛ وقشعريرةٍ بَدتَ على جَسَدِي".

لحظاتٌ قليلةٌ، وحاولتُ الصــعودَ مِن الناحيةِ الأخرى بعيدًا عنه .

أشار إِلَيَّ :

-"اصْعَد مِنْ هُنَا".

-"بدأتُ أصـعدُ الجَرْفَ، وجَسَـدِي ينتفضُ مِن الخوف، وما إنْ اقتربتُ منه؛ حتَّى باد؛ وأخرج عَصَاهُ الخيزرانِي مِنْ بين طَيَّاتِ ملابسه؛ وانهال على جَسَدِي المُلَطَّخِ بالطينِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وهِيَ تُحْدِثُ صَفِيرًا في الهواء، تحتضِنِي بكُلِّ قسوتِها؛ تلسعُ جَسَدِي المكشوف، وكأَنَّنَا لَمْ نلتقِ يومًا ما، أو أَنَّنَا لن نلتقي بعد ذلك أبدًا .

انتفضَ جَسَـدِي؛ وأنا أتأوهُ مِنْ شِـدَّةِ الأَلَمِ؛ ودَمِعَتْ عيني؛ وفَارَ الدَّمُّ في عُرُوقِي؛ وأخذتُ أركضُ إلى البيت كما الحِمَارِ الجَانِحِ!!

أوثقِنِي بـالحبـالِ؛ وأخـذ يَكِيـلُ عَلِيَّ ضربًـا بهـا مِنْ جَـدِيـدٍ، وهِيَ تحتضـنِي دونَ مَلَلٍ؛ وأنا أصرخُ، أرغبُ عنها؛ أسـتغيثُ؛ أسـتعطفُ كُلَّ مَنْ في الدَّار، وهُمْ لا يَتَحَرَّكُون بِبِنْت سِنَة!!

أســـتحلفُهُ أنْ يتركنِي؛ ويَكُفَّ عَنْ ضربِي؛ وأعاهدُهُ كما عاهدتْهُ مِنْ قَبْلِ بأنَّهَا المَرَّةُ الأخيرةُ .

وَضَعَ أَمَامِي الوِعَاءَ الفُخَّارِيّ المَمْلُوءَ باللَّبَنِ؛ وقال لِي :

-"هذا عشاءُكما مَعًا؛ وتَرَكَنِي؛ وانصرف" !!

-"اقترب مِنِّي شريكِي فِي وليمةِ العَشَـــاءِ رويدًا رويدًا؛ بخطواتٍ يشـــوبُهـا القلقُ والحيرةُ؛ وأخـذ يَلْهَـثُ؛ ويـدورُ ويَلِفُّ مِنْ حَوْلِي؛ يتحســـسـنِي بجَسَـدِهِ ،وكأنَّهُ يزيلُ عَنِّي بقايا الطين العالق، يواسـيني؛ يُطَبِّبُ جراحِي بملمسِ شَـــعْرِهِ الأســـودِ الكثيفِ؛ وأخـذ يَلْعَقُ اللَّبَنَ بلِسَـــانِهِ العريضِ تارةً؛ وينظرُ إِلَيَّ بعينيهِ الغارقتينِ فِي بَحْرٍ مِن الدُّمُوعِ تارةً أخرى، كمَنْ يدعُونِي للعَشَاءِ ،وكأنَّهُ يدركُ كَمْ أنا جَوْعَان!!"

-"عدتُ أَتَشَـمَّمُ رائحةَ السَّـمَكِ، وهُوَ يُشْـوَى داخل الفُرْنِ على مقربةٍ مِنِّي، بينما ما زِلْتُ مُوْثَقًا بالحبالِ؛ أحتضنُ الأرضَ، وشريكِي ينبحُ بجوارِي؛ بعد ما امتلأتْ مَعِدَتُهُ مِن اللَّبَنِ!!".

الطَّرِيقُ

شريف البحيري

لَمْ تعتدْ تَحَمُّل نظرات الزملاء ولا هَمَسَـــات الزميلات ؛ لقد تَقَدَّمَتْ باســـتقالتها اليوم؛ فقدتْ قدرتَها على المواجهة؛ انطفأتْ نَضَـارَتُها؛ وخسرتْ حيويتَها ومكانتَها بين زملائِها ؛ بعد أَنْ كَانَتْ زوجةً تفتخرُ بزوجِها وبابنِها المتفوقِ؛ أصبحتْ ضَعِيفَةَ الشَّخْصِيةِ؛ ووقعتْ فَرِيسَـــةً في حُبِّ زميلِها في العملِ الذي أقنعَها بهدمِ منزلِها، وهَجْرِ حياتِها؛ ووعدها بالزواجِ، ولَكِنَّ زَوْجَها عَرِفَ بعلاقتها؛ فحاول أَنْ يحافظَ على بيتِهِ، ولَكِنْ أَنْ تأتِي متأخرًا خَيْرٌ مِنْ ألا تأتِي؛ لَمْ تنفعِ الآنَ؛ لقد جاء متأخرًا جِدًّا؛ وخسرــ كُلَّ شَيءٍ؛ وتَهَدَّمَتِ الأُسْرَةُ؛ أمَّا هِيَ بعد افتضـاحِ أَمْرِها؛ عَاشَـتْ سَـنَوَاتٍ تجري وراء زميلها؛ لَعَلَّهُ يَتَزَوَّجُها ولو عُرْفِيًا؛ ولَكِنَّهُ لَمْ يُقْدِمْ على هذه الخطوة؛ فهُوَ يُريدُ أنْ يحافظَ على بيتِهِ وعلى أولادِهِ مُتَعَلِّلًا لها؛ بأنَّهُ لن يَهْدِمَ بيته مِنْ أَجْلِ امْرَأةٍ ضَـحَّتْ بزَوْجِها وحَيَاتِها؛ فكَيْفَ يَبْنِي معها مُسْتَقْبَلًا لأجلِها ؟!

نزلتْ مِن السـيارة الأجرة؛ بَعْدَ أَنْ دفعتِ الأموالَ إلى السـائقِ؛ تدخلُ مِن البَوَابَة الرئيســيَّةِ للنَّادِي؛ وألقتْ بالتَّحِيَةِ على حارسِ بابِ الـدخولِ، وعلامـاتُ التَّجَهُّمِ على وجهِهـا، ولا يبـدُو عليـه تعبيراتُ العَيْنِينِ؛ لوجودِ النَّظَارَةِ السـوداءِ الفاخرةِ؛ واتَّجَهَتْ إلى طاولةٍ على

البُحِيرةِ توسـطُها نَافُورَةٌ فِي مَدْخَل النَّادِي؛ وجلسـتْ وَاضِـعَةً حقيبتها بالكرسي المجاور؛ ونظرتْ لمنظرِ الماءِ؛ وشَرَدَتْ بخيالِها؛ وتَذَكَّرَتْهُ:

تَكَلَّمَ بخَجَلٍ مُصْطَنَعٍ :

-"هَلْ يمكنُ أَنْ تقرئِي هذه القصيدةَ ؟"

مَـدَّتْ يَـدُهـا؛ وأخـذتِ الوَرَقَـةَ؛ وألقـتْ عليهـا نظرةً سريعـةُ ثُمَّ أعادتْها إليه :

- "إنَّهَا جَيدةٌ!!"

وبخُبْثٍ :

-"هَلْ تقصدُ أَحَدًا بهَذَا الكَلَامِ الجَمِيل؟!"

تَرَدَّدَ ثُمَّ تَشَجَّعَ :

-"إنَّهَا لَكِ .... أنا .. أنا .. أُحِبُّكِ!!"

ابتسـمتِ ابتسـامةً عَرِيضَـةً تُظْهِرُ لَوْنَ أسـنانِها المُصْـفَّرِ؛ و بكُلِّ سَعَادَةٍ :

-"فِعْلًا تُحِبُّنِي"

بكُلِّ ثِقَةٍ:

-"نَعَمْ ،أُحِبُّكِ .. أُحِبُّكِ أَنْتِ رَغْم الخِلافِ الظَّاهِرِ لزُمَلاءِ العَمَلِ بيننا!!"

نظرتْ له بدَلَالٍ:

-"هل أقولُ لَكَ سِرًّا ؟؛ أنا كنتُ أُحِبُّكَ مُنْذُ عَامٍ في صَـــمْتٍ؛ ولَكِنَّي كنـتُ أخـافُ أنْ أَبُوحَ بمـا في قلبِي ؛ ولـذَلِـكَ كنـتُ أصـــطنعُ الخِلافَاتِ مَعَكَ؛ عَلَّكَ تفهمُ ما أقصدُ!!"

و بكُلِّ فَرَحٍ وسَعَادَةٍ :

-"إذًا بَعْدَ انتهاءِ العملِ؛ نذهبُ؛ لنجلسَ على أحدِ المطاعمِ في وسطِ البلدِ :وردة البستان" .

حضر النَّادِلُ الخَاصُ بالنَّادِي، وانقطع حِوَارُ الذكرياتِ؛ وتَكَلَّمَتْ بشُرُودٍ:

-"مِنْ فَضْلِكَ قهوة "مانو"، وزجاجة ماء مُثَلَّج"

واســتعادتْ ذِكْرَياتِها، وحِوَارًا كان بينها وبين عشــيقِها، رســالةٌ على برنامج "الواتس آب":

- "ما هذا "البوست" على "الفيس بوك" ؟

-"لقد كتبتُ :أنا أُحِبُّكِ فَتَاتِي ... وأنا أَعْشَقُك حَبِيبِي" .

- "إنَّهُ "بوست" عام؛ لن يفهمَهُ غيرُنا"

- "ولَكِنَّ هـذا حِوَارٌ دار بينَنـا؛ ويمكنُ لأحـدِ الزملاءِ أنْ يَعْرِفَ بقِصَّةِ حُبِّنا"

- "إذًا سوفَ أمسحُ ما كتبتُ"

وبضِحْكَةٍ عَالِيَةٍ (مكتوبة) :

-"لا يَهُمُّ إنْ كُنْتَ تُرِيدُ أنْ تَقُولَ للعَالَمِ :إنِّي أُحِبُّكِ .. قُول"

- "عندما تتخلَّصِينِ مِنْ ابن ال..... الذى يشغلُ حياتَكِ"

- لقد كتب لَكِ قصيدةً على أحدِ مواقعِ الإنترنتِ؛ سَوْفَ أرسلُها إليكِ عَبْرَ الهَاتِف:

"ك

كأنَّكِ أنا

كأنِّي أَنْتِ

كأنَّنَا

لقد تجاوزنا كَأنَّ

لذا لا بُدَّ أنْ نقولَ : إنَّنَا

ي

يصعبُ

أنْ أعيشَ دونَ عينيكِ

دونَ شَفَتِيكِ

دونَ ....

هـذا جزءٌ مِنْ قصـــيدتِي لَـكِ؛ أقرئيها كُلَّها على موقع :"إيلاف القلوب" .

- .....

- "هَلْ قرأتيها ؟"

- "نَعَمْ ، أنا في قِمَّةِ سَعَادَتِي .. أَنْتَ لِي أَسِيرٌ .. وأنا نَعِيمُ دُنْيَاكَ"

- "هَلْ فهمتِ القصيدةَ ؟"

- "وهل تَشُكُّ فِي ذكائِي: .. أ. ح . ب . ك . ي . ا . م . ن . ى "

وبكُلِّ ثِقَةٍ:

-"وهـل "عـاطف عبـد المجيـد" يُحِـبُّ أيَّ امرأةٍ ؛ كَيْفَ لقلبِي الصغيرِ أنْ يحتمَّلَ كُلَّ هذا الحُبِّ ؟!" .

أحضر النَّادِلُ القَهْوَةَ وزجاجةَ المياهِ:

- "هل مِنْ خِدْمَةٍ أخرى سَيِّدَتِي؟"

- "لا، أشْكُرُكَ".

ورفعتْ فنجانَ القهوةِ؛ فهِيَ تُحِبُّ أنْ تشـــعرَ بحرارتِها تُلَامِسُ شَفَتيِها .

إنَّ ما حدث مُنْذُ عشرِ سَنَوَاتٍ؛ ما زَالَ فِي مُخَيلتِها، وكأنَّهُ حدث مُنْذُ عشرِ دَقَائِقٍ؛ لقد كانتْ تعتقدُ أنَّهَا قد تنسى؛ ولَكِنَّها كانتْ مِثْلَ أبناء"يعقوب" ؛عندما تركوا "يوسف" في البئرِ؛ أنساهم اللهُ الاستغفارَ؛ ولَمْ ينسُوا فِعْلَتَهم!!

عادتْ لذِكْرَيَاتِها؛ وقفزتِ الكلماتُ إلى رأسِها :

- "ما بِكِ؛ أَنْتِ متوترةٌ اليومَ؟!"

- "الحقيقةُ لا أَعْرِفُ مَاذَا أقولُ لَكَ؟!"

- "تَكَلَّمِي حَبِيبتِي؛ فأنا البُسْتَانِيّ الذي يرعى أزْهَارَهُ، لا تُزِيدِي قَلَقِي؛ أَنْتِ تَعْرِفِينِي حينما أغضبُ؛ لن تَتَحَمَّلِي كلماتِي!!"

- "حَبِيبِي لا أَعْرِفُ؛ لَكِنَّهُ حدث؛ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ يعرف؛ لقد كنتُ مخطئةً مُنْذُ أربع سَنَوَاتٍ،وأنا بلا وَسِيلَة مَنْعٍ؛ وتبدأُ في البكاءِ؛ لقد حدث هذه المَرَّةُ ؟!"

وبغَضَبٍ وانفعالٍ:

"تَكَلَّمِي أيَّتُها السَّيِدَة؛ ماذا تُرِيدِينَ أنْ تَقُولِي؟!"

- "أَرْجُوكَ لا تغضبْ؛ ولا تنفعلْ .. أنا .. أنا .. أنا .."

- "هَيَّا تَكَلَّمِي ..وإلا سوف يكونُ هذا اليومِ هو نهايةُ حُبِّي لَكِ؛ ولتَنْسِ المشروعَ الذى بينَنا"

- "أنا حَامِل"

وبغَضَبٍ:

"أيَّتُها الخَائِنَةُ، أَنْتِ تَلْعَبِينِ بِي؛ تتدَّعِينَ عِشْـــقِي؛ وتَنَامِينَ بينَ أَحْضَانِهِ"

تستمرُّ بالبكاءِ :

-"أَنْتَ لن تصـــدقنِي؛ إنَّها المَرَّةُ الوحيدةُ التي كانتْ بيننا مُنْذُ عَرَفْتَكَ؛ إنَّهُ كَرِيهٌ سـيئٌ ،لا يكفِي مَشَـاعِرِي، ولا يهتمُّ بها؛ لقد هجرتْهُ؛ أنا أنامُ في غرفةٍ أخرى!!"

وقف منفعلًا:

-"عَلِيكِ التَّخَلُّصُ مِنْ هذا الجَنِينِ؛ إنْ كُنْتِ تُحِبينِي حَقًّا!!"

- "الطبيبُ قال :إنَّ هذا فيه خَطَرٌ على حَيَاتِي؛ وأيضًـــا لأنَّ الحَمْلَ تَعَدَّى مُدَّةَ الشهرِ ونصفِ ؛ فتصبحُ جريمةَ قتل!!"

بكُلِّ انفعالٍ:

- "أَنْتِ تَعْلَمِينَ تاريخَ عيدِ مِيْلَادِي"

رَدَّتْ بَاكِيَةً:

-"طَبْعًا حَبِيبِي؛ إنَّهُ بَعْدَ شَهْر"

- إذًا أمَامَكِ فرصةٌ للاختيارِ؛ أمَّا أنْ تتركِي منزلَكِ قَبْلَ هذا الموعدِ ،أو تســـتمري مع خريج "الشـــانزلزليه" كما أَطْلَقْتِ عليه "؛ ويطلقُ ضحكاتِهِ الهيستيريَّةِ .

ما زالتْ في ذكرياتِها؛ كيف هَدَمَتْ حَيَاتَها؛ وضَـــحَّتْ بزَوْجِها المُحِبِّ لها ؛وألقتْ بنَفْسِها في حُبِّ زميلِها في العملِ!!

دخل شَـابٌّ وسـيم الوجه رشـيق القوام؛ يبدُو على خطواتِهِ أنَّهُ يهتمُّ بمظهرِهِ الرِّيَاضِي؛ دخل ينظرُ بنظراتٍ متفحصـةٍ إلى الجالسـينَ؛ حتَّى وجدَ والدتَهَ ،واتَّجَهَ إلى الطاولةِ التي تجلسُ عليها:

- "صَبَاح الخَيْر يا أُمِّي"

بغَضَبٍ :

- "صَبَاح النُّور؛ لقد نَفَّذْتَ تَهْدِيدَكِ لِي؛ وذَهَبْتَ إليه!!"

- "أُمِّي؛ مَاذَا تَقُولِينَ أنَّهُ أَبِي!!"

وبنَبْرَةِ حُزْنٍ:

-"والذي حرمتِني منه عشر سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ؟!"

- "أبوك هـذا هُوَ مَنْ دَمَّرَ البيتَ ؛ وتَرَكَكَ دُونَ أنْ يـدفعَ مليمًا وَاحِدًا؟!"

نظر الابنُ في خَجَلٍ؛ وأغمضَ عينيهِ :

- "أُمِّي كُفِّي ضــحكًا على نَفْسِــكِ؛ افتحِي عينيكِ؛ أَنْتِ تَعْلَمِينَ الحقيقةَ؛ أَنْتِ تَعْلَمِي مَنْ هَدَمَ المنزلَ؛ ومَنْ تَرَكَ البَيْتَ؟!"

- أبوك الذي لَمْ يسألْ على أُخْتِكَ التي أنجبتُها، وأنا وحيدة، وفي أَشَدِّ الاحتياجِ إليه؟!"

أشار بيديه مترجيًا:

-"للمَرَّة الثَّانِيَة تَخْدَعِينَ نَفْسَكِ ....أَنْتِ كُنْتِ"

و بتَرَدُّدٍ :

-"أَنْتِ تَعْلَمِيْنَ؟"

و بتَرَدُّدٍ وحَذَرٍ:

-" أَنْتِ أُمِّي؛ تعلمينَ أَيْنَ كان قَلْبُكِ؟!؛ إنَّهُ كان مع "عاطف"، وليس مع أَبِي؟!"

أشاحتْ بوجهها؛ وتقلَّبَتْ عضلاتُهُ:

-هذا كَذَبٌ ...افْتِرَاء .. أبوك يكذبُ عَلِيكَ"

- "انظرِي؛ اقرئِي هذه القصــيدةَ؛ لقد كتبها قَبْلَ ميعادِ دخولِكِ المَشْفى مُنْذُ عشر سَنَوَاتٍ".

إنَّهَا رسـالةٌ إلى ابنتِهِ التي لَمْ يَرَاها ... ابنتِهِ التي حرمتِيه مِنْ متعةِ الفرحةِ بوجودِها في الحياةِ .. بسـعادتِهِ في مشـاركتِهِ مَعَكِ في لحظاتِ الحَمْلِ والولادةِ ؛ لقد كُنْتِ في عَالَمٍ آخر!!"

-"هَيَّا؛ اقرأْ"

-"ابنِي العزيز، هذه رسالةٌ لَكَ :عَلِيكَ أنْ تُوَصِّلَها إلى أُخْتِكَ؛ وأنا لا أعلمُ متى تقرأُ هذه الرسالةَ ؟!؛ ولا متى تعلمُ أُخْتُكَ بالحقيقةِ ؟!"

-"ابنتي العزيزة، لا أعلمُ متى تقرئينَ هـذه الكلماتِ؛ لَكِنْ عَلِيكِ أنْ تَعْلَمِي أنَّهَا بكَامِلِ وجدانِي.. أَنْتِ لَيْسَ لَكِ ذَنْبٌ أنْ تَحْضُرِي إلى هذا العَالَم البَغِيض، وهذه الدنيا الظَّالَمُ أهلُها، وتعيشِي، وكأنَّكِ يتيمةٌ؛ لقد كتبتُ هذه الكلماتِ؛ وأنا أعتصرُ ـأَلِمًا؛ وقد ذَبَحَتْنِي أُمُّكِ بسِـكِّينٍ يلمعُ ولا يقطعُ ؛ يَجِزُّ في الجَسَـدِ ولا يذبحُ ؛ يُؤلِمُ ولا يُنْهِي قَتْلَهُ؛ طَعَنَتْنِي في ظهرِي بكُلِّ دَمٍ بَارِدٍ؛ ودُونَ أنْ يهتزَّ لها جِفْنٌ!"

-"ابنتي العزيزة .. لا أعرفُ اسْـمَكِ .. ولا أعرفُ ماذا سـيَكُونُ اسْـمَكِ؟! ؛ لقد علمتُ أنَّكِ فتاةٌ بالصـدفةِ ؛ فأُمُّكِ قد تركتِ البيتَ؛ مُنْذُ علمتْ أنَّهَا تَحْمِلُكِ بين أحشـائِها، وهذه رسـالةٌ إلى أخِيكِ؛ اقرئِيها لَعَلَّ شُـعُورِي في هذه اللحظاتِ يَصِـلُ إِلَيْكِ؛ ويمكنُ أنْ تُسَـامِحِي أنَّنِي لَمْ أستطعْ أنْ أَمُدَّ يَدِي إلَيكِ؟!"

-"ابني العزيز مَنْ سوف يحضرُ إلى الدنيا هِيَ أُخْتُكَ؛ لَكِنْ لَيْسَتْ ابنتِي؟!"

وَالِـدَتُـكَ حِيْنَ علمـتْ بحَمْلِهـا؛ ذهبـتِ للطَّبِيـبِ مع جَـارَتِهـا وزَوْجِها؛ ولَمْ تُخْبِرَنِي؟!"

-"وَالِـدَتُـكَ حِيْنَ علمـتْ بحَمْلِهـا؛ تركـتِ المنزلَ؛ وهجرتِ العَشِيرَ؟!"

-"لستُ أنا مَنْ لاحظ علاماتِ الحَمْل على وَالِدَتِكَ ...بتكبر يوم بعد يوم ، بَلْ "عاطف".

-"لســتُ أنا مَنْ سَــمِعَ صــوتَ الجَنِين في الشــهرِ الرابعِ ، بَلْ "عاطف"

-"لســتُ أنا مَنْ رأى صــورةَ الجَنِين على جهازِ الأشِّــعَةِ، بَلْ "عاطف"

-"لستُ أنا مَنْ عَرِفَ نوعَ الجَنِين، بَلْ "عاطف"

-"لستُ أنا مَنْ كُنْتُ أتابعُ الحَمْلَ ومتعتَهُ، بَلْ "عاطف"

-"لستُ أنا مَنْ حَلِمَ باسمِ الطفلةِ القادمةِ، بَلْ"عاطف"

-"لستُ أنا مَنْ كَانَتْ وَالِدَتُكَ تَتَمَنَّى يبقى اسمها على اسمه؛ بل تَمَّنَتْ : "منى عاطف"

-"لســتُ أنا مَنْ كان يأتي ذِكْرُهُ في أحاديثِها مع "أســماء" بنت خالتِها، بل "عاطف"

-"لســـتُ أنا مَنْ كَانَتْ وَالِدَتُكِ تدعُو لَهُ في كُلِّ صَـــلَاةٍ، بل "عاطف"

-"لســـتُ أنا مَنْ كان يقولُ لها ألفاظًا خَارِجَةً أثناءَ مداعبتِها، بَلْ "عاطف".

-"لســـتُ أنا مَنْ تَفَاخَرَ بأنَّهُ يُقِيمُ عَلَاقَاتٍ مع زميلاتِهِ، بَلْ "عاطف".

-"لســتُ أنا مَنْ كان يضـحكُ على زميلتِهِ المُطَلَّقَة "داليا" لمُدَّةِ ثلاثِ سَنَوَاتٍ ، بل "عاطف"

-"لســتُ أنا مَنْ قَبَّلَ أَنْفَها؛ وضَــحِكَتْ؛ وقالت له :إن نفســك جميلة، بَلْ "عاطف".

-"لستُ أنا مَنْ دَمَّرَ المنزلَ، بل "مُنْى عاطف".

-"وحَسْبِي الله ونِعْم الوكيل!!"

-"أمَّا وَالِدَتُكَ الخَائِنَةُ لحُبِّي، لعِشْرَـتِي، لكَرَامَتِي؛ فهِيَ طَالِقٌ قَبْلَ أنْ تحصلَ على الخُلْع".

ألقتِ الوَرَقَةَ على الأرضِ؛ وتَحَدَّثَتْ منفعلةً :

-"ما هذا الكلامُ الفارغُ ؛ إنَّ أباك يَهْذِي؛ لَمْ يَحْدُثْ شَيءٌ مِنْ كُلِّ هـذا؟!"؛ أبوك يُخَرِّف؛ لَمْ يَتَحَمَّـلْ صـــدمـةَ بُعْـدِي عنـه؛ وطلبِي الطلاق!!"

رَدَّ الابنُ بكُلِّ هُدُوءٍ:

-"ولِمَ تطلبِينَ الطَّلاقَ؛ ألَمْ يَكُنْ أَبِي هُوَ حُبُّكِ الأَوَّلُ؟"

- "كان .. أَتَعْلَمُ كَانَ .. إنَّكَ لن تستطيع أنْ تعرفَ ما بدَاخِلِي؛ إنَّ أبَاكَ يَهْذِي بهذه الكلماتِ مُنْذُ عَشَرَاتِ السِّنِينِ؛ لم يُرَاعِ أبناءَهُ، ولا سُمْعَتَهم؟!"

و بضِحْكَةٍ سَاخِرَةً:

-"لَمْ يُرَاعِ مَنْ !؛ وأَنْتِ حِيْنَ ارتبطتِ بـــ "عاطف"؛ كُنْتِ تُرَاعِي أبناءَكِ !!"

و بكُلِّ عَصَبيةٍ :

- "اصـــمتْ ؛لا تُرَدِّدْ مِثْلَ هذا الكلام ؛ أنا أُمُّكَ، ولتَعْلَمْ أنَّنِي لَمْ أَخُنْ أَبَاك؛ لَمْ أرتكبْ فَاحِشَةً!!"

- "ولَكِنَّكِ أحببتِ غيرَهُ؛ وكُنْتِ ما زِلْتِ زَوْجَتَهُ؟!"

- "إنَّهُ السَّبَبُ فِي أنْ أُحِبَّ غَيْرَهُ!!"

- "ولَكِنَّكِ كُنْتِ زَوْجَتَهُ!!"

- "أَعْلَمُ؛ لقد كُنْتُ أكرهُهُ فِي هذه اللحظةِ!!"

- "ولَكِنَّهُ لَمْ يعرفْ أنَّكِ تكرهِيه!!"

- "لقد ألمحتُ له مِرَارًا أنَّنِي أكرهُهُ؛ وهُوَ لَمْ يَفْهَمْ!!"

- "كان يُحِبُّكِ؛ ويعتقدُ أنَّكِ يمكنُ أنْ تَعُودِي لســـابقِ عَهْدِكِ مَعَهُ!!"

- "كان وَاهِمًا؛ لقد ذكرتُ لَهُ أنَّ مُحَاوَلاتِهِ لإعادةِ حُبِّي لَهُ دُخَانٌ يَطِيرُ في الهواء!!"

يشيحُ بوجهِهِ بَعِيدًا:

-"كَفَى يا أُمِّي؛ لن أقبلَ مِنْكِ مُبَرِرًا؛ ظَلَلْتِ عشر سَنَوَاتٍ؛ تَسْقِينِي كُرْهَ أَبِي؛ وتُحَمِّلِيه مسـؤوليةَ الخَرَابِ والفُرَاق ونهايةِ أحلامِنا؛ أَنَسِـيتِ كيف لَمْ أكملْ تدريبَ كرةِ القدمِ؛ كان يمكنُ أنْ أصـبحَ لاعِبًا مَشْـهُورًا؛ لَكِنَّ بَعْدَ خَرَابِ البيتِ؛ تَوَقَّفْتُ عَن التمارينِ؛ وانتهى حُلْمِي؛ وأَنْتِ أَقْنَعْتِنِي أنَّ أَبِي هو السَّبَبُ؛ ولَكِنَّ الحقيقةَ كَانَتْ غَيْرَ ذَلِكَ؟!"

- "لهذا حاول أنْ يَسْجَنَنِي!!"

- "إنَّهُ كان يُرِيدُ الدِّفَاعَ عَنْ بقايا كرامتِهِ كرَجُلٍ!!"

- "يدافعُ عَنْ كَرَامَتِهِ بأنْ يُدْخِلنِي السِّجْنَ!!"

- "لا، كان يُرِيدُ أنْ يُعَلِّمَكِ دَرْسًـــا؛ يُرِيدُ أنْ يَسْـــجُنَ "عاطف"؛ ولَكِنَّ القَانُونَ يُحَتِمُّ عليه اتهامكما مَعًا!!"

بكُلِّ انفعالٍ:

-"أنا لا أحتاجُ أنْ يُعَلِّمَنِي أحدٌ دُرُوسًا!!"

لَمْ يَهْتَمَّ بكلامِها؛ وأكْمَلَ:

-"ولا تَنْسِ في النهاية أنَّهُ آثَرَ التَّنَازُلَ؛ حتَّى لا أتَّهِمَهُ بأنَّهُ سَـــجَنَ أُمِّي، ويمكنُ ألا تَغْفِرَ لـه ابْنَتُـهُ التي وُلِـدَتْ يتيمـةٌ، وأبوهـا على قَيْـدِ الحياةِ..... إنَّهُ سَجَنَ أُمَّهَا؛ لقد ضَحَّى مِنْ أَجْلِنا!!"

وبكُلِّ تَهَكُّمٍ:

- "يتيمةٌ؛ أنا قد أرســلتُ له قَبْلَ ولادتِها أنْ يأتِي؛ ليحضرَــ يومَ مَوْلِدِها؛ وهُوَ مَنْ رَفَضَ؟!"

وبتَعَجُّبٍ:

- "كيف يأتِي؟!؛ وأَنْتِ تَعْلَمِيْنَ أنَّهُ يَعْلَمُ بحُبِّكِ لغيره؟!"

وبثِقَةٍ غير معهودةٍ:

-"إنَّهَا ابْنَتُهُ، وهُوَ افْتَرَى عَلِيَّ"

- "لن يُجْدِي الحِوَارَ مَعَكِ يا أُمِّي!!"

- "كيف تُكَلِّمَنِي بهذه الطريقة؟!؛ هَلْ نَسِــيتَ أنَّنِي أُمُّكَ؛ وأنَّنِي تَحَمَّلْتُ تربيتَكَ أَنْتَ وأُخْتُكَ؛ وقد كُنْتُ وَحِيدَةً أواجهُ هذا العَالَم؟!"

- "أَنْتِ مَنْ أخترتِ طَرِيقَكِ .. كان مَعَكِ شَرِيكُ حَيَاةٍ لا يرفضُ لَكِ طَلَبًا .. يسعدُ بسَعَادَتِكِ .. يحزنُ لحُزْنِكِ .. يَتَمَنَّى رِضَاكِ!!"

- "أَنْتَ هكذا دَائِمًا ، لَمْ تَتَغَيَّرْ؟!؛ يا لا صَدْمَتِي .. لَمْ تُفْلِحْ تَرْبِيَتِي لَكَ؟!"

- "لا يا أُمِّي؛ ولَكِنِّي عرفتُ الحقيقةَ؛ وتَأَكَّدْتُ منها؛ لقد خَدَعْتِ أَبِي؛ وخَدَعْتِنِي أنا سَنَوَات!!"

- "أنا لا أُصَدِّقُ ما تَقُولُ؟!"

- "أُمِّي لقد قَرَّرْتُ العَيْشَ مَعَ أَبِي؛ وسَوْفَ تَكُونُ أُخْتِي مَعَنَا"

- "لا أُخْتُكَ فِي سِنِّ الحضانةِ و ....."

مُقَاطِعًا:

- "أُمِّي كَفَى تَكَبُّرًا وعِنَادًا؛ لقد انكشفتِ الحقيقةُ؛ ابحثِي لَكِ عَنْ وَسِيلَةٍ؛ لتَسْتَغْفِرِي رَبَّكِ".

وضعتْ رَأْسَها بين راحتيها؛ لقد خَسِرَتْ آخرَ مَنْ كان تدافعُ عنه؛ آخر مَلاذٍ لها في هذه الدنيا ؛ خَسِرَتْ أبناءَها بعد أنْ عرفوا الحقيقةَ؛ عاشتْ سَنَوَات في وَهْمٍ أنْ تبنِي صَرْحًا جَدِيدًا؛ بعد أنْ هَدِمَتْ حَيَاتَها؛ لَمْ تعرفْ أنَّهَا كانتْ تلهثُ خَلْفَ سَرَابٍ إلا اليوم؟!

خَسِرَتْ زَوْجًا مُحِبًّا؛ وجَرَتْ وراءَ شَخْصٍ وَضِيعٍ يجري وراء السَّيِّدَات، وخَاصَّةً أنَّهُ اختار سَيِّدَةً متزوجةً، وساعد على هَدْمِ حياتها مُتَلذِّذًا بنَشْوَةِ انتصارٍ وَهْمِيَّةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَنُمُّ عَنْ مَرَضٍ نَفْسِيّ بدَاخِلِهِ: أنَّهُ يستطيعُ أنْ يجذبَ النِّسَاءَ إليه!!

خَسِرَتْ عَمَلًا كَانَتْ فيه ذَاتَ مَكَانَةٍ واحترامٍ، ولَكِنْ يوم بعد يوم أصبح الجَمِيعُ ينظرون إليها، على أنَّهَا سَيِّدةٌ خَرَّابَةٌ للبيوتِ، تجري وراءِ رَجُلٍ مُتَزَوِّجٍ .

و هَا هِيَ الآنَ خَسِرَتْ أبناءَها؛ فماذا تَبَقَّى لها ؟!

إنَّهَا إنســانة يآســة مِنْ حَيَاتِها؛ مُحَطَّمَةً لَمْ يَعُدْ لحَيَاتِها معنى؛ بَعْدَ أنْ أصبحتْ وَحِيدَةً فِي دُنْيَا لا يَرْحِمُ سُكَّانُها!!

إنَّهَا شَــارِدَةُ الذِّهْنِ؛ فِي حِيْرَةٍ مِنْ أفْكَارِها ؛ ليس أمَامَها اختيارٌ سِوَى طَلَبِ الغُفْرَانِ؛ ولَكِنَّ مَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَ سِوَى مُقَلِّبِ القُلُوب؟!

شَيءٌ مِن الشُّرُودِ

سامي علوان

أخـذتْنِي قَـدَمَـاي حَيْـثُ حجرة مكتبِي؛ يـدفعُنِي الحَنِينُ إليهـا والجلوسُ فيها .

أخذتُ أزيلُ الأَتْرِبَةَ والغُبَارَ مِن على الأوراقِ المُلْقَاةِ على المكتبِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ؛وجلســـتُ أَحْتَسِيـــ فِنْجَانَ القهوةِ السَّـــادَة على غيرِ عَادَتِي؛ وأتذوقُ مَرَارَتَهُ !!

وعلى مقربةٍ مِنِّي بعضُ الأوراقِ المُتَرَاصـــةِ على الرَّفِ الزُّجَاجِي؛ والتي كنتُ قد عِشْتُ في حضنِها.

إنَّهَا هِيَ نَفْسُـها التي تراقصتْ حُرُوفِي وكَلِمَاتِي بين سُـطُورِها مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيد .

ظننتُ لوهلةٍ قَصِـــيرةٍ مِن الوقتِ أَنَّنِي قادرٌ على أَنْ أعودَ ثَانِيةً؛ وأعزفَ الألحانَ؛ وأبدعَ؛ لتتراقصَ الحُرُوفُ والكَلِمَاتِ ما بين أســـطرِ الأوراقِ مِنْ جَدِيد!!

بيدٍ تَمَلْكَتْها رَعْشَـــةٌ خَفِيفةٌ؛ أمســـكتُ بقَلَمِي ما بَيْنَ أَنَامِلِي؛ وهَمَمْتُ أَنْ أكتبَ.

لحظاتٌ قليلةٌ بعدها توقَّفَتْ أنَامِلِي عَن الحركةِ، بينما ما زالتْ تمتلكُها تلك الرعشةُ الخفيفةُ؛ وهمستْ إِلَيَّ :

-"لقد جَفَّ المَعِينُ؛ وتَاهَتْ مَلَكَاتُكَ؛ وتَبَلَّدَتْ مَشَـــاعِرُكَ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيل ."

أحســـســـتُ حِيْنَها، وكأَنَّنِي أمســـكُ بالقَلَمِ لأوَّلِ مَرَّةٍ؛ ورمقتُها بنَاظري تَارةً؛ وهمستُ فِي قَلَمِي تَارةً أخرى : اكتبْ" .

فيردُّ عَلِيَّ هَامِسًا إيَّاي :

-"ما أنا بكَاتِب!!"

"- لماذا تَعْصَانِي ؟!"

أناجيه :

-"حَرِّكْ سِنَّكَ . . . أَخْرِجْ حِبْرَكَ"

فيقولُ هامسًا :

- "راودنِي . . حَرِّكنِي . . راقصـــنِي . . أبهرنِي بأفكارِكَ . . أمتعنِي بأشْـــعَارِكَ . . ودَاعبنِي، وأقفزْ بِي ما بين السُّـــطُورِ؛ وارســـمْ ما تومئ به أنـاملُكَ؛ أَمْ تـاهـتْ منـك الأَفْكَارُ ؟؛ ودارتْ بِكَ الأشـــجـانُ وَسَـــطَ الأحداثِ؟!"

-"لحظتُها لحظتُها فقط، أخذتُ أموجُ بنَفْسِي. في نَفْسِي.؛ وأهيمُ داخلَها؛ لعَلِي أَصِـلُ إليها، أو أتعرَّفُ عليها؛ وأعرفُ معالمَها التي غابتْ عَنِّي؛ فخذلتْنِي نَفْسِي أنْ أَصِلَ إليها!!"

-"عدتُ على همســـاتِ قَلَمِي، وهو يناديني، يناجيني، أنظرُ إلى تلك الأشـــجارِ وتلك الأنهارِ؛ فتداعبْ خَيالاتِكَ، وتَهزُّ مَلَكَاتِكَ؛ حتَّى تتولدَ أشـعارٌ قَبْلَ أنْ يُصْـبِحَ نَقِيقُ الضُّـفْدَع أَلْحَانَ "جيتار"، ونَعِيق البُوم والغُرْبَان صَـــدَى بُوق، ومِزْمَار، وهَدِيل الحَمَام، وتغريد الطيور نَشَازًا بلا عنوان!!"

-"دمعتْ عَيْنِي؛ فرفعتُ حَاجِبِي؛ وخلعتُ النَّظَّارةَ؛ وســـقط القَلَمُ مِنْ بين أنَامِلِي على سِنِّهِ وسطَ الأوراقِ"

-"كانتْ نقطةُ غيرَ واضـــحةِ المَعَالِمِ؛ أخذتُ أمســـحُ دُمُوعِي؛ وأتَحَسَّسُ وَجْهِي؛ وأدركتُ سَاعَتَها أنَّهَا خَذَلتْنِي؛ وهربتْ مِنِّي؛ وبَاعَتْنِي إلى شُرُودِي؛ ليُبَاغَتْنِي بسؤالٍ:

- "عَنْ مَاذَا أكتبُ؟!".

-"عدتُ أتَحَسَّـسُ قَلَمِي أواسـيه؛ وأحتضـنه ما بين أنَامِلِي؛ وهو يَتَلَوَّى مِن الألم؛ وهَمَمْتُ أنْ أُحَرِّكَه؛ عجزتْ أنَامِلِي عَن الحركة!!"

همس إِلَيَّ بصوتِهِ الضعيفِ :

-" ابحثْ عَنْ بَطَلٍ للقِصَّـــةِ وســـطَ الناسِ ...وســـطَ الزِّحَامِ ....فَوْقَ الأشجارِ.... فَوْقَ الأنهارِ..... تَحْتَ الأمطارِ"

-"أخذتُ أَعْصِرُ حَبْلَ أفكارِي مُحَاولًا أنْ أستدعِي مَلَكَاتِي الهاربةَ؛ ولَكِنَّنِي عجزتُ حتَّى أنْ أَصِلَ إليها "

عاد قَلَمِي يهمسُ :

-"اكتبْ عَنْ طِفْلٍ يَحْبُو ....صَـــدْرٌ يَحْنُو.... ظُلْمٌ يَخْبُو..... حُبٌّ يَنْمُو..... قَمَرٌ يَزْهُو ....عَلَمٌ يَعْلُو .....صَبْحٌ يَبْدُو "

وقفتُ صامتًا لا أجيدُ سِوَى الصمتِ.

لحظاتٌ قليلةٌ؛ ودمعتْ عَيْنَاي؛ وسـبحتُ في ذكرياتِ المَاضِي الحزينِ؛ حتَّى عدتُ على صوتِهِ، وهُوَ يناجيني :

- "اكتبْ عَنْ زَمَنٍ ضاع فيه الإحساسُ ما بين الناسِ، اكتبْ عَنْ حَرْبٍ تدورُ رَحَاهَا؛ لا تعرفُ معنى إنسـانٍ، اكتبْ عَنْ عُشٍّ يسـقطُ مِنْ بين الأغصـانِ، اكتبْ عَنْ عُرْسٍ يُدْفَنُ تَحْتَ الأطلالِ، اكتبْ عَنْ أَرْضٍ تُرْوَى بدَمْعِ عَذَارَى بَاتَتْ سَبَايَا، اكتبْ عَنْ جَسَدٍ بِلَا روحٍ!! ".

أمسكتُ بقَلَمِي!!!

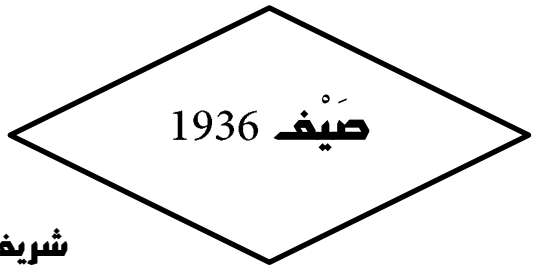

شريف البحيري

الزَّمَانُ غَيْر الزَّمَانِ ، الأرضُ هِيَ نَفْس الأرضِ ، يَمُرُّ عليها رِجَالٌ ونِسَاءُ تَتَغَيَّرُ عاداتهم ،وأسلوب حياتهم ، طريقة معيشتهم ، نظرتهم للحياة ، مشـــاكلهم مُتَغَيِّرَة ، طريقة التفكير تَتَطَوَّرُ، تقييم المواقف، خبرات شخصية تتغير بتغير الزَّمَنِ .

الحِكْمَةُ وَاحِدَةٌ، المبادئ واحدة ، ونفوس بشرية عديدة : نَفْس هادئة ، ونَفْس مطمئنة، ونَفْس حائرة، ونَفْس خادعة، نَفْس مُحِبَّة للخير، ونَفْس مُدَبِّرَة للشر، نَفْس تُحِبُّ ولا تكرهُ، ونَفْس تبحثُ عَن الحُبِّ، ونَفْس لا تعرفُ الحُبَّ .

فالحُبُّ اليوم هو حُبُّ المَاضِي بنفس المشـاعرِ والأحاسـيسِ ، باختلاف طريقة التعبيرِ ولغة الكلامِ .

يَتَّجِهُ العَالَمُ نَحْوَ حربٍ عَالَمِيَّةٍ ثَانِيَةٍ؛ هكذا تُوحِي إلينا الأخبارُ فِي النَّشَرَاتِ المُذَاعَة على المِذْيَاع، وعلى صَفَحَاتِ الجَرَائِدِ الصَّبَاحِيَّةِ؛ ولا ننسى تأثيرَ شبحِ الرُّكُودِ الاقتصادِيّ على العَالَمِ .

الإنجليزُ يحـاولُون أنْ يحـافظُوا على مملكتِهم وعلى الأراضي المُحْتَلَّةِ؛ يُقِيمُون المُعَاهَدَاتِ والمَوَاثِيقَ؛ فهُمْ يعلمون جَيِدًّا أنَّ طُبُولَ الحربِ تَدُقَّ؛ وأنَّ المُوَاجَهَةَ قَادِمَةٌ لا مَحَالَة .

في أحدِ الشـــوارعِ في مدينةِ القاهرةِ ، ومع بدايةِ يومٍ جديدٍ، وصـــباح يوم يحملُ الأمانِي للناسِ بتَغَيُّرِ حياتِهم، كُلٌّا تبعًا لأحلامِهِ و آمالِهِ ؛ مَلِيء بالدَّعَوَات أنْ يرزقَهم اللهُ الرِّزْقَ الحَلَالَ .

جلس "مُحْسِـن" في كاملِ أناقتِهِ، كنجومِ "هوليود" في السـينما الأمريكية ؛ ولِمَ لا ؟!؛ وهو سَـلِيلُ عائلةٍ ميســورةُ الحالِ؛ فوَالِدُهُ كان ذُو سِــعَةٍ مِن المالِ ؛ وتَرَكَ له ميراثًا كَبِيرًا له ولإخوته؛ أَسْــتَغِلَّهُ؛ وأقام مَدْرَسَـةً خَاصَّـةً له ؛ وأصـبح هُوَ مُدِيرُها وصَـاحِبُها، يتميَّزُ "مُحْسِـن" بالوَسَامَةِ، وطول القَامَةِ، ونبرةُ صوتٍ جميلةٌ هادئةٌ .

جلس على المَقْهَى؛ يطلبُ مِن النَّادِل إحضـار كُوبٍ مِن الشَّـاي بالحليب، كما هو مُعْتَادٌ عليه كُلَّ صَـــبَاحٍ ، في هذه اللحظاتِ مَرَّ رَجُلٌ يحملُ مجموعةً مِن الصُّـــحَفِ؛ وينادِي عليها بأســـمائها :"أهرام "، "مُصَـــوَّر" ، "روز اليوســـف"؛ اقرأْ آخرَ الأخبارِ؛ قاطعه مُنَادِيًا عليه؛ يطلبُ جريدةَ "الأهرام" مع مِجَلَّةِ "روز اليوســـف"؛ أخرج مِنْ جيبِهِ مليماتٍ معدوداتٍ قيمة الصُّـــحَف؛ وطالع فيها أخبارَ توقيعِ معاهدةِ 1936 بين حكومةِ الوفدِ المصرـيَّةِ بقيادة "النحاس باشـــا" رئيس الوزراء المصريّ، مع وزير الخارجية البريطانية "أنتونى إيدن" .

دخل صـديقه مبتسـمًا في خُطُواتٍ وَاثِقَةٍ يحملُ طربوشَـهُ فوقَ رأسِـهِ في خُيَلاء، ويرتدِي حُلَّةً رُمَادِيَّةً ذات سـترةٍ ضـيقةٍ على جَسَـدَهِ ،مفكوك أزرارُها، وبنطال رمادي، وحذاء أسود .

- "مُحْسِن صَبَاح الخَيْر"

- "أهْلًا وسَهْلًا صَدِيقِي العزيز "كَمَال"؛ كيف حَالُكَ اليَوْمَ ؟"

- "بخَيْر، الحَمْدُ للهِ تطالعُ الجَرَائِدَ كعَادَتِكَ!!"

- "نَعْم صَـدِيقي؛ هل طالعتَ الصُّـحَفَ اليَوْمَ؟! ... الحالُ يتغيَّرُ ... المَلِكُ "فُؤَاد" تُوفي؛ وتَوَلَّى العَرْشَ ابنُهُ المَلِكُ "فَارُوق "؛ وهناك مجلسُ وصايةٍ على العَرْشِ، واليَوْمَ مُعَاهَدَة مَعَ الاحتلالِ"

- "دَعْ هذه الأمور لرِجَالِها ؛ لَكَ عِنْدِي مفاجأة ؛ وسَـوْفَ تُسَرُّ حِيْنَ تسـمعُها ؛ فأنا أعْرِفُكَ مِنْ زَمَان؛ رَجُلٌ مِنْ عائلةٍ ميسـورةٍ ؛ وأبُوكَ صَالِح، وهو فِعْلًا صَالِح!!"

- "يا كَمَال ، أَنْتَ صَـدِيقُ الطفولةِ ؛ هل تَذْكُرُ كَمْ مَرَّةٍ لعبنا مَعًا في حديقةِ منزلِ وَالِدِي!!؛ وكيف كُنَّا نقضي اليَوْمَ مَعَا؟!"

- "نَعَمْ ، يا صـديقي.... إنَّهَا أَيَامٌ لا تُنْسَى؛ ونَحْنُ الآنَ في سِـنِّ الشـبابِ ؛ وأنهينا دِرَاسَـتَنا، وأَنْتَ أكملتَ تعليمَكَ الأَزْهَرِي؛ وأصبحتَ صَـاحِبَ مَدْرَسَـةٍ كَبِيرةٍ ومُدِيرَها، و كُلُّ فتياتِ حَيِّ "عابدين" تَتَمَنَّى نظرةً مِنْكَ ؛ وكثيرٌ مِن الأُمَّهَاتِ تَتَمَّنَاك لبناتِهُنَّ ؛ فأَنْتَ مع مكانةِ

أبيكَ وعِزِّهِ؛ فهُوَ صَـــاحِبُ جَاهٍ ومَالٍ ؛ هَذَا غَيْرُ أَعْمَامِكِ وبَاقِي أفرادِ عائلتِكَ ، يا سَلِيلَ الأُصُول!!"

- "كفى مَدْحًا صَدِيقِي، وأَنْتَ أيضًا أصبحتَ مُدَرِّسًا ؛ أخبرِنِي بما عِنْدَكَ مِنْ مُفَاجَأَةٍ ؟!"

(يخلعُ طربوشَهُ) وبابتسامةٍ عريضةٍ :

- "عِنْدِي لَكَ عَرُوسَة!!"

وبنَظْرَةٍ يملأُها التَّعَجُّبُ :

-"عَرُوسَـة !! ؛ أنا ما زِلْتُ في بداية حياتي : أربع وعشرون سـنة ... الحمدُ للهِ أُدِيرُ مَدْرَسَـةً كَامِلَةً بمدرسـينَ ومُوَظَّفِينَ ؛ وأقابلُ كُلَّ يَوْمٍ أولياءَ أُمُورِ الطلبةِ ؛ ولَكِنْ (يُفَكِّرُ قليلًا)؛ يتحدَّثُ هَامِسًا :

-" لَمْ تَخْطُرْ على بَالِي فِكْرَةُ الزَّوَاجِ!!"

بصَوْتٍ مُتَحَمِّسٍ:

-"إذًا فلتَكُنْ هذه فرصتُكَ للزَّوَاجِ ؛ فلا يُوجَدُ عِنْدَكَ ما يمنعُ!!"

بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ؛ يشردُ ببَصَرِهِ بَعِيدًا:

- "مَنْ هَذِهِ العَرُوسَة ؟!"

يَرُدُّ فَرِحًا:

- "إنَّهَا ابنة "علي أفندي حسين"؛ وتسكنُ في نهاية الشارع جِهَة اليمينِ"

بنَظْرَةِ تَعَجُّبٍ لَمْ أَرَاها مِنْ قَبْلُ:

- "هَلْ تعرفُها؛ وتعرفُ أباها جيدًا؟!"

بهُدُوءٍ وبنَظْرَةٍ لَمْ يَفْهَمْ "مُحْسِن" معناها:

-"أَنْتَ صَدِيقِي؛ لن أستطيعَ أنْ أَخْدَعَكَ"

النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ وَاحِدَةٌ؛ نَفْس بَشَرِيَّة أَمَارَّة بالسوء في القُرُونِ السَّابِقَةِ؛ هِيَ نَفْسٌ بَشَرِيَّةٌ أَمَارَّةٌ بالسُّوءِ في حياتِنا الآنَ؛ فخَلَقَها اللهُ نَفْسًا وَاحِدَةً ؛ ألهمها فُجُورَها وتَقْوَاها في كُلِّ عَصْرٍ، متى وُجِدْتَ فيه؛ فهِيَ تُحَاكَمُ بقوانينِ العَصْرِ.

دخل عليها غُرْفَةَ النوم مبتسمًا :

-"لقد أصبحتِ الآنَ زَوْجَتِي"

هَزَّتْ رَأْسَها بدُونِ أيِّ كَلِمَةٍ ؛ وهِيَ تُعْطِي ظَهْرَها إليه:

- "أُرِيدُ أنْ أَرَاكِ ... أَرَى زَوْجَتِي و شَرِيكَةَ عُمْرِي"

التفتتْ إليه ؛وتنظرُ في استحياء!!

وبكُلِّ دَهْشَةٍ يَعْلُو صَوْتُهُ :

- "ما هذا؟!"

- "....."

و بكُلِّ عَصَبِيةٍ وارتباكٍ :

-"مَنْ أَنْتِ؟!"

بتَرَدُّدٍ:

- "أنا ...أنا زو... زوجتكَ"

وبنَفْسٍ مَخْدُوعَةٍ :

-"ولَكِنَّكِ ....."

مُقَاطِعَةً:

-"نَعَمْ ،أنا ....."

بكُلِّ حَزْمٍ:

-"لقد خدعتْنِي؛ وخدعنِي صَدِيقِي؛ مَنْ أَنْتِ ؟؛ لَسْتِ أَنْتِ مَنْ رَأَيْتُها قَبْلَ زَوَاجِي؛ كيف فعلتُمَا ذلك؟؛ أخبريني الحقيقةَ وإلا ...."

بدأتْ في البكاءِ بصَوْتٍ عَالٍ؛ تَحَدَّثَ مُنْفَعِلًا:

- "لا تَبْكِ ؛ احْكِ لِي ؛ ما هذا الخِدَاعُ ؟!؛ فَسَّرِي لِي هذه المصيبةَ التي أنا فيها الآنَ؟!"

تحاولُ الكلماتُ أنْ تخرجَ مِنْ وسطِ البكاءِ:

-" صـــديقُكَ "كَمَال" هو ابنُ عَمَّتِي؛ فوَالِدِي خالُ والدتِهِ، ومَنْ رَأَيْتُها هِي أُخْتِي الصُّـــغْرَى، أنا سَـــيِّدَةٌ لا أملكُ مِن الدُّنْيَا شـــيئًا؛ ولَكِنَّ عِنْدِي بِنْت هِيَ كُلُّ حَيَاتِي؛ إنَّهَا في سِنِّ الخامسة عشر؛ وأتَمَنَّى أنْ أكملَ تربيتَها بدُونِ أنْ أحتاجَ إلى أَحَدٍ؛ ففَكَّرْتُ بالزَّوَاجِ؛ وســـاعدنِي "كَمَال" مقابلَ أنْ أمنحَهُ بَعْضَ المَالِ كُلَّ شَهْرٍ؛ لأنَّكَ ميسورُ الحالِ؛ وتستطيعُ تَحَمُّلَ مصروفاتِنا".

تصـمتُ قَلِيلًا؛ وتحاولُ أنْ تمسـحَ دُمُوعَها، والماءُ ينسـابُ مِنْ أَنْفِها.

بكُلِّ حُزْنٍ:

- "أنا لا أُرِيدُ شَـــيئًا لِي؛ أنا أُرِيدُ أنْ تَصِـــلَ ابْنَتِي إلى بيتِ زَوْجِها بحَيَاةٍ كَرِيمَةٍ" .

لحظةُ صَمْتٍ مِن الطَّرَفِينِ ... تَمُرُّ الدَّقَائِقُ طَوِيلَةً:

- "أَنْتِ تُريدينَ أنْ تَرْعِي ابنتَكِ بالخِدَاعِ !!"

يبعدُ نظرَهُ بَعِيدًا عنها، وبصَوْتٍ هادِئٍ:

-"ولَكِنِّي لا أستطيعُ أَنْ أكملَ زَوَاجِي بِكِ؛ أنا ما زِلْتُ شَابًّا"

وبتَرَدُّدٍ:

-"وأَنْتِ ..." لَمْ يُكْمِلْ جملتَهُ.

نظرتْ إليه بنَظْرَةِ انكسارٍ؛ تهربُ الكلماتُ مِنْ شفتِيها.

هَمَّ وَاقِفًا، وبدُونِ أَنْ ينظرَ إليها؛ قال :

-"سوف أنامُ بالخَارجِ؛ وفي الصَّبَاحِ لنا كلام آخر".

اتَّجَهَ إلى بَابِ الغُرْفَةِ في خُطُواتٍ ثَابِتَةٍ، وهُوَ شَارِدُ الذِّهْنِ؛ يفتحُ البَابَ؛ يسمعُها.

بصَوْتٍ فيه الكَثِيرُ مِن الخُضُوعِ:

- "أَرْجُوكَ سَاعدَنِي!!"

خرج مِن الغُرْفَةِ في صَمْتٍ غير ملتفتٍ لها؛ ويُغْلِقُ البَابَ خَلْفَهُ .

-"كيف الخِـدَاعُ لهـذه الـدرجـةِ ؟!؛ ولمـاذا صَـــدِيقِي مَنْ يَخْدَعُنِي؟!؛ لن يستفيدَ شيئًا؟!"

-"كان يمكنُ أَنْ أساعدَها بدونِ ذلك؟!؛ إنَّها معرفةُ أيَّام، ولَيَالِي طِوَال، حَيَاة مَرَّتْ بكُلِّ ما فيها مِنْ تغيُّراتِ طفولةٍ، ومراهقةٍ، وشبابٍ؛ هل يَحْقِدُ عَلِيَّ؛ وأنا لَمْ أَشْعُرْ بذلك ؟!؛ لَمْ أَكُنْ أعاملُهُ بطَرِيقَةٍ تشعرُهُ أنَّهُ أَقَلُّ مِنِّي اجتماعيًا؛ فأنا رَاعَيْتُهُ؛ ورَاعِيْتُ نَفْسِـــيَّتَهُ؛ ولَكِنَّ أسرارَ النَّفْسِ، ومتقلباتِها، وتغيراتِها؛ ظَلَّ يتســـاءلُ؛ ويضـــعُ أســـئلةً بدُونِ إجَابَةٍ؟!"

استيقظتْ مِنْ نَوْمِها، رأسُها تُؤلِمُها؛ ما زَالَتْ تَرْتَدِي زِيَّ عُرْسِها؛ فلَمْ تُغَيِّرْ مَلَابِسَها؟!

تُفَكِّرُ قَلِيلًا، تنهضُ مِنْ فَوْقِ الفِرَاشِ، وفي خُطُوَاتٍ متثاقلةٍ تَتَّجِهُ نَحْوَ بَابِ الغُرْفَةِ؛ وتَفْتَحُ البَابَ، وتنظرُ بدَهْشَةٍ؛ وتَتَحَدَّثُ بحَنَانٍ وعَطْفٍ:

- "أَمَا زِلْتَ تجلسُ على الكُرْسِي؛ إنَّكَ لَمْ تَنْمْ طُوَال اللَّيْلِ؛ لقد أرهقتَ نَفْسَكَ كَثِيرًا؛ أَلَمْ يَكْفِ أنَّكَ تَرَكْتَ غُرْفَةَ النَّوْمِ؛ وفَضَّلْتَ غُرْفَةَ الجُلُوسِ!!"

بدُونِ أَنْ ينظرَ إليها، ونَظَرُهُ مُثَبَّتٌ إلى الأرضِ، ويَدَاهُ مُمَدَدَتانِ على جانبِي الكُرْسِي، وعلاماتُ الإرهاقِ تبدُو عليه:

-"سَوْفَ تَعُودِينَ إلى مَنْزِلِكِ!!"

نظرتْ إليه مندهشةً؛ وتَتَحَوَّلُ إلى نظرةِ انكسارٍ؛ لا تستطيعُ الرَّدَّ .

أكملَ قَائِلًا :

-"أنا لا أستطيعُ العَيْشَ مَعَكِ؛ بَعْدَ كُلِّ هذا الخِدَاعِ!!"

مَدَّتْ إليه يَدَها، وبصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ :

-"ولَكِنَّنِي أحتاجُ إلَيْكَ، أحتاجُ إلى ..."

مُقَاطِعًا:

-"أَنْتِ لا تَحْتَاجِينَ للحُبِّ بل للمَالِ ؛ أَنَّكِ تبحثينَ على مَنْ يحفظُ حَيَاتَكِ!!"

بتَرَدُّدٍ:

-"أنا!!"

مُقَاطِعُها بإشارةٍ مِنْ يَدِهِ:

-"لا تَتَكَلَّمِي"

وبكُلِّ حَزْمٍ:

-"اسْتَعِدِّي للعودةِ لمَنْزِلِكِ بَعْدَ الظُّهْرِ!!"

ضَـمَّتْ يَدَاهَا إلى صَـدْرِها؛ وتُشَـبِّكُ أَصَـابِعَها؛ وبكُلِّ تَوَسُّـلٍ واستعطافٍ:

- "لا تُطَلِّقُنِي!!"

نظر بشُرُودٍ في كُلِّ اتِّجَاهٍ بالغُرْفَةِ:

-"لن أُطَلِّقَكِ؛ ولَكِنْ لَنْ أستطيعَ إكمالَ زَوَاجِنَا!!"

في الطريق إلى منزِلِها ؛ يصـحبُها إلى صَـاحِب دُكَّان البقالةِ ، وصَـاحِب دُكَّان الجِزَارةِ ؛ ويخبرُهم أنَّ هذه السـيدةَ زَوْجَتَهُ؛ وإنِ احتاجتْ أيَّ شِيءٍ عليهم تجهيزه فَوْرًا؛ وعَلِيكُم إحضارُ فَوَاتِير، وكشفَ الحسابِ لِي في المَدْرَسَةِ أَوَّل كُلِّ شَهْرٍ" .

ونَفْسٍ وما سَــوَّاهَا ؛ كَمْ عَدَد الأنْفُسِ التي نقابلُها !!؛ هَلْ تتغيَّرُ مِنْ حَـالٍ إلى حَـالٍ؟!؛ هَـلْ تتبـدَّلُ طبيعتُهـا مَعَ تَغَيُّرِ الظُّرُوفِ والأحوالِ؟!؛ أَمْ تَظَـلُّ النَّفْسُ هَـائِمَةً حَـالِمَةً، أَمْ يمكنُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إلى نَفْسٍ جَارِحَةٍ منتقمةٍ؟! ؛ تتغيَّرُ النُّفُوسُ مِنْ حَوْلِنَا ؛ ولَكِنَّ هَلْ تتغيَّرُ نَفْسُـنا ؟!؛ هَلْ تتغيَّرُ للأفضـلِ أم للأسـوأ؟!؛ أيمكنُ أَنْ تصـبحَ نَفْسُـنَا أَمَارَّةً بالسُّوءِ؛ بعد أَنْ كَانَتْ نَفْسًا مطمئنةً؟!، أَمْ تحافظُ على طبيعتِها؛ بَعْـدَ أَنْ تتعـذَّبَ مِنْ ضرياتِ النُّفُوسِ المُحِيطَـةِ بها ؟!؛ إنَّها ضَرَبَاتٌ تُقَوِّي ولا تُغَيِّرُ؛ إنَّهَا تُصْبِحُ أَكْثَرَ وَعْيًا لمحاولاتِ النَّفْسِ الخَادِعَةِ .

تَوَلَّى المَلِكُ "فاروق" الحُكْمَ رَسْـمِيًا في يوليو 1937 ؛ تتصـاعدُ حِـدَّةُ الصِّرَ ـاعَاتِ الـدَّوْلِيَّةِ ، وفي ســبتمبر 1939 تجتاحُ "ألمانيا" "بولندا"؛ ومِنْ هُنَا أعلن الإنجليزُ الحربَ ضِدَّ "ألمانيا" .

الحربُ بدأتْ، لَمْ يَكُنْ يُطْلَقُ عليها بَعْدُ الحرب العَالَمِيَّة الثَّانِيَة؛ ظهرتْ في الأفقِ بوادرُ الخِـدَاعِ في معـاهـدة 1936؛ لقـد اســتغلتْهـا "إنجلترا" جَيِدًّا رَغْمَ الاستقلالِ الذي حصلتْ عليه مِصْرُ؛ لَكِنَّ وجودَ الثَّكَنَاتِ العســكريَّةِ في مُدَنِ القناة، والإســكندرية، وأطراف القاهرةِ؛ جعلها مســيطرةً تَمَامًا على الكثيرِ مِن الأُمُورِ الدَّاخِلِيَّةِ؛ وأصــبح لازمًا على مِصْرَ مساعدة المُحْتَلِّ الإنجليزِيّ في حَرْبِهِ!!

يتفقَّدُ "مُحْسِــن" أعمالَهُ ؛ لَمْ يســتطعْ أَنْ يغفرَ لصَـدِيقِهِ هذه الخُدْعَة؛ رَغْمَ محاولات "كمال" العديدة لمحاولات الصُّـلْح؛ ولَكِنَّ لا يُؤتَمَنُ الشَّخْصُ المَاكِرُ .

جلس يطالعُ الصُّـحَفَ كعَادَتِهِ؛ بعد أَنْ أنهى جولته الصَّـبَاحِيَّة في مدرسـتِهِ ؛ و أخذ يطالعُ أخبارَ حِصَـار قَصْرِ"عابدين"؛ بَعْدَ أَنْ تَأَزَّمَ الموقفُ في الحربِ؛ وكادتْ "ألمانيا" أَنْ تنتصرَ؛ فلَمْ يَكُنِ الإنجليزُ أَمَامَهم فُرْصَـة إلا لتهدئةِ الأمُورِ الدَّاخِلِيَّةِ في مسـتعمراتِهم؛ فحاصروا قَصْرَ"عابدين" في 4 فبراير 1942؛ وطالبوا المَلِكَ "فاروق "بتولِّي "النحاس باشا "حكومة البلاد .

و فجأةً طُرِقَ بابُ غرفتِهِ؛ وسَمِعَ صَوْتٌ مِن الخارجِ يُنَادِي:

- "أستاذ مُحْسِن"

يُنَادِي:

-"تَفَضَّلْ بالدخولِ"

يفتحُ البَابَ؛ فترتسمُ علاماتُ الدَّهْشَةِ على وَجْهِهِ:

-"ماذا جاء بِكِ إلى المدرسـةِ ؟!؛ خَمْس سَـنَوَاتٍ مَرَّتْ؛ ولَمْ تَحْضُرِي إلى هنا، ولو لمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ؛ أكيد حدث شِيءٌ خَطِيرٌ!!"

مبتسمة:

-"لا أبدًا؛ لا تقلقْ؛ خيرُكَ يملأُ دَارِي؛ وابنتِي لا تَنْسَ فَضْـلَكَ؛ ولَكِنْ....."

يَرُدُّ مُقَاطِعًا:

-"لَكِنَّ .....هَلْ حَدَثَ مَكْرُوهٌ ؟!؛ أخبريني"

- "هناك رَجُل أفندي محترم يُرِيدُ الزَّوَاجَ مِن ابنتِي؛ و لن أَجِدَ خَيْر مِنْكَ يشرَّفَنِي أمام أهل العريس ؛ أرجوك كَمِّل جِمِيلَكَ ؛ ولا تتركُنِي في هذا اليوم!!"

- "حَـدِّدِي اليوم؛ وأنا ســـوف أحضرــ؛ ولا تقلقِي مِنْ ناحية المصاريف؛ لَكِنْ هَل ابنتُكِ موافقة على هذا الزواج؟"

- "لن نســـتطيعَ أَنْ نأخذَ قَرَارًا إلا بَعْدَ أَنْ نعرفَ رَأْيَكَ؛ ونقتدِي بمَشُورَتِكَ"

- "إذًا ألف مبروك" .

اضطراب النَّفْسِ كاضطرابِ الحربِ بين بَلَدِينِ، صِرَاعٌ دَمَوِيٌّ لا ينتهي؛ و إنْ تَمَّ توقيع معاهدة الســـلام؛ فكُلُّ نَفْسٍ تتحفزُ للانتصـــارِ على الأخرى؛ ولَكِنَّ هل ترتاح النَّفْسُ بعد انتصـــارِها،أَمْ تَظَلُّ في صراعٍ آخر مع نَفْسِها؟!

انتهتِ الحربُ العَالَمِيَّةُ الثَّانِيَةُ بَعْدَ دخولِ "أمريكا "في الحربِ بمعركة "بيرل هاربل"؛ وهِيَ اســـمُ القاعدةِ الجَوِيَّةِ التي هاجمها اليَابَانِيُّون؛ فكان الرَّدُّ الأمريكِيُّ هُوَ الأَقْسَىـــ في التاريخِ؛ بإلقاء قُنْبُلَتِينِ ذَرِّيَّتِينِ على مدينة "هيروشيما "، ومدينة "ناكازاكي" .

ذهب "مُحْسِن "إلى بيت زوجته؛ بَعْدَ أن أطمأنتْ على ابنتها:

-"أعتقدُ أنَّنِي الآنَ قد وَفَّيْتُ وَعْدِي لَكِ؛ وأنا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ؛ ولقد وَجَدْتُ فَتَاةً مِنْ أُسْرَةٍ طَيِّبَةٍ؛ ولَمْ تَعُودِي تحتاجينَ لِي في شِيءٍ؛ فابنتُكِ قد وصلتْ لبيتِ زوجِها"

-"أســـتاذ مُحْسِـــن أنَّ ما فعلتُهُ مَعِي؛ لن أنسَـــاهُ طُولَ العُمْر؛ تستطيعُ الآنَ أنْ تُطَلِّقَنِي؛ وتتخلَّصُ مِنْ هَمِّي!!"

-"وَفَّقَكِ اللهُ في حَيَاتِكِ؛ وأسعدَ ابْنَتَكِ!!".

تَمُرُّ الأيَّامُ بأوقاتٍ متقلبةٍ ، ودورةُ الكونِ في حركةٍ؛ فأيَّامٌ حَارَّةٌ صَـيْفِيَّةٌ ،ولَيَالِي باردة شِـتْوِيَّة، وشـهورٌ خَرِيفِيَّةٌ؛ وقد تأتِي أيَّامٌ رَبِيعِيَّةٌ؛ تتفتحُ فيها الأزهارُ؛ ولَكِنْ لا تخلُو مِنْ عَوَاصِفَ تُرَابِيَّةٍ .

تُسْـــمَعُ أصـــواتُ الاحتفالاتِ مِنْ قَصْرِ "عابدين"؛ فلقد رُزِقَ المَلِكُ بوَلِّي العَهْدِ؛ وأسْـــمَاهُ على اســـمِ جِدِّهِ المَلِك "فُؤَاد"؛ ليصـــبحَ "أحمد فؤاد".

تحترقُ القاهرةُ ؛ فَهِيَ الرَّمْزُ التي يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ التَّخَلُّصُ مِنْهُ ؛ تتســارعُ الأحداثُ السِّـــيَاسِـــيَّةُ؛ نَتَّجِهُ نحو تَغَيُّر؛ ســـوف تتغَيَّرُ الدُّنْيَا؛ ولَكِنْ هَلْ ســـتُصْـــبِحُ كما نعرفُها؟!؛ هَلْ يعيشُ أفرادُها حياتَهم كما اعتادُوها؛ أَمْ تدورُ الأيَّامُ كدَوَرَانِ الأرضِ حَوْلَ نَفْسِها؟!

يسمع طَرْقًا على بابِ الشَّقَّةِ .

يُنَادِي على ابنتِهِ بصَوْتٍ عَالٍ:

-"افتحِي البَابَ يَا رُقَيَّةُ"

- "حَاضِر يَا أَبِي"

تَجْرِي الفتاةُ مُسْرِعَةً؛ وتفتحُ البَابَ؛ وتنظرُ بدَهْشَةٍ.

- "مَنْ يَا رُقَيَّة؟!"

- "لا أعرفُ يَا أَبِي؛ إنَّهُمَا رَجُلٌ وامْرَأَةٌ لا أعرفُهُمَا"

وضـــع الجَرِيدَةَ جَانِبًا، يقومُ مَنْ على كُرْسِـــيهِ؛ ويَتَّجِهُ إلى بَابِ الشَّقَّةِ؛ وبدَهْشَةٍ:

-"أَنْتِ؟!"

- "هَلْ سوف تتركُنَا على البَابَ هكذا؟!؛ إنَّكَ كَرِيم ابنُ أُصُول!!"

- "آه ... أَهْلًا وسَـــهْلًا .. ادْخُلَا ... أَهْلًا بِكُمَا ؛ نَادِّ على أُمِّكِ يَا رُقَيَّةُ"

تنظرُ إليه في سَعَادَةٍ:

-"طَبْعًا يا أســتاذ مُحْسِــن أَنْتِ لا تعرفُ مَنْ هذا؟ ؛ إنَّهُ زَوْجِي؛ وقد ذكرتُ له ما فعلتُهُ مَعِي ومع ابْنَتِي؛ وقد وَفَّقَنَا اللهُ أَنْ نَسْـــتَعِدَّ للحَجِّ هذا العام؛ فجِئْتُ أنا وزَوْجِي؛ لنَشْـكُرَكَ على صَـنِيعِكَ؛ ولنُبَارِكَ لَكَ على زواجِكَ، وإن كانتْ متأخرة؛ ونبارِكُ لَكَ على أنَّ اللهَ رَزَقَكَ بِنْتًا جَمِيلَةً؛ ولتَدْعُو اللهَ لَنَا؛ أَنْ يَتَقَبَّلَ حِجَّتَنَا"

وقامتْ هِيَ وزَوْجُها؛ وانصرفتْ .الكونُ في حَرَكَةٍ، والإنســانُ في حَرَكَةِ دَوَرَانِ كدَوَرَانِ الأَرْضِ حَوْلَ الشمسِ؛ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مُسَمَّى.

صَيْحَة فَجْر الغَاب

شمس الأصيل

مع انبعاثِ خيوطِ الفجرِ الأولى إلى جنباتِ غابةِ السعادةِ مُتَسَلِّلَةً بين الأشجار الطويلة، والنباتات الكثيفة مُقَبِّلَةً المياه النائمة بالجدولِ الصغير الذي يقطعُها طولًا؛ فيُقَسِّمُها إلى ضِفَّتِين؛ لتَرْسُمَ على صفحتِها أروعُ اللوحاتِ المُزَيَّنَة بخضرةِ أوراقِ الأغصانِ، وفسيفساء الورودِ والأزهارِ بمختلف الألوان.

استيقظ الدِّيْكُ "سَلَّام" على وقعِ نورِ الفجرِ ونسماتِهِ العطرةِ، نَفَضَ جناحيهِ بحَرَكَةٍ أَخَفُّ مِنْ حركات راقصي. الباليه؛ فتَفَرَّقَ ريشُهما المُزْدَانُ؛ لتظهرَ على جَسَدِهِ فخامةُ الطيورِ عِنْدَ تحليقِها، نظر لنَفْسِهِ بإعجابٍ و رضا حَقِيقِيينِ ثُمَّ رفع بصرَهُ إلى الأعلى مُشَيعًا آخر ما بَقِي مِنْ مصابيحِ السماءِ، قَبْلَ أَنْ تتوارَى بخَجَلٍ خلفَ حِجَابِ نورِ الشمسِ الساطعِ.

اعتلا قِمَّةَ الشجرةِ التي تأوي عُشَّهُ البسيطَ الذي يتَّخِذُهُ مَسْكَنًا آمِنًا؛ ليصدحَ بصوته الجَهُورِيّ مُؤذِّنًا في أرجاء الغابة، مُعْلِنًا عَنْ قدومِ فَجْر يومٍ جديدٍ ، وإشراقة شمس جديدة على سكان مملكة السَّعَادَةِ؛ والذين لَمْ يأخذُوا مِنْ هذه الكلمةِ حَظًّا إلا الاسم الذي أطلقه مَلِكُهم الأسد "هيروي" على غابتِهم.

كانتْ صَـيْحَةُ "سَـلَّام "تُمَثِّلُ لهم نَبْضًـا يدعو إلى التَّطَلُّعِ للحياةِ في ثوبِها المشرقِ؛ فكانتْ كُلُّ حيواناتِ الغابةِ تسـتيقظُ على وَقْعِ تلك الصيحةِ الصادحةِ الصادقةِ -التي لَمْ تُخْطِ موعدُها يومًا-؛ لتنتشرَ في أرجاءِ المملكةِ ؛ تبتغي فَضْلًا من الرزق.

في حِيْنِ أنَّ هذه الصَّـيْحَةَ كانتْ تَقُضُّ مَضْـجَعَ المَلِكِ الشَّـابِ؛ والذي وَصَـلَ إلى عَرْشِـهِ على أَنْقَاضِ حُكْمِ والِدِهِ الهَرِمِ؛ والذي لَمْ يَعُدْ يَمْلِكُ القُوَّةَ الجَسَـدِيَّةَ والعَقْلِيَّةَ؛ لتسييرِ شُؤونِ المملكة؛ فعَهِدَ بها إلى أقوى أبنائِهِ؛ مع أنَّهُ ليس أكبرَهُم على خِلافِ تَقَالِيدِ الحُكْمِ المُنْتَهِجَةِ مُنْذُ عُقُودٍ خَلَتْ.

كان يسـتيقظُ كُلَّ يَوْمٍ بانزعاجٍ وسَـخَطٍ عَظِيمِينِ؛ ليقضي بَاقِي يَوْمِهِ مُعَكَّر المِزَاج؛ فبَعْدَ أنْ يقضيـ جُلَّ لَيْلِهِ في ممارسـةِ هِوَايَتِهِ بالصَّـيْدِ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ؛ ويُقِيمُ حَفْلَةَ شِـوَاءٍ في آخره بالضَّـفَةِ الغَرْبِيَّةِ التي لا يقطنُها الكَثِيرُ مِنْ أهلِ المملكةِ الأَصْـلِيِينَ، بل أغلبُ سُـكَّانِها مِنْ مِمْالِكَ أخرى يأتون ويرحلون؛ بحثًا عَنْ جمالِ الطبيعةِ، وطيبِ الفَاكِهَةِ، وعَذْبِ المِيَاهِ، يعودُ "هيروي" إلى قصرِهِ مع آخر رَمَقٍ مِنْ سَـوَادِ اللَّيْلِ، غَيْرَ أَنَّ صَـيْحَةَ "سَـلَّام" كانتْ تَرِنُّ بأُذُنِيهِ عِنْدَ كُلِّ فَجْرٍ؛ فتُقْلِقُ مَنَامَهُ؛ وتَحْرِمُ عُيُونَهُ مِنْ لَذَّةِ النَّوْمِ بَعْدَ السَّهَرِ العَابِثِ!!

اسْـتَمَرَّ هذا الحال أيَّامًا مِنْ حُكْمِهِ الذي غَيَّرَ كُلَّ عَادَاتِ ومَبَادِئ الغابةِ ؛ بَلْ إنَّهُ غَيَّرَ حتَّى اسْـمِها وشِـعَارِها؛ حَيْثُ عُرِفَ بقُوَّةِ بَطْشِـهِ، وبَسْـطِ سيطرتِهِ على كُلِّ الحَرَكَاتِ والسَّـكَنَاتِ في البَرَارِي والأَجْوَاءِ؛ بَلْ حتَّى على الأَسْـمَاكِ والعَوَالِقِ في جَدْوَلِ المِيَاهِ، والويلُ كُلُّ الوَيْلِ لمَنْ

يُبْدِي امتعاضًا ،أو يرسمُ على ملامحِهِ استهجانًا؛ لأنَّ ذلك السِّجْنَ في تلك المَغَارَةِ البَارِدَةِ المُعْتِمَةِ في أقصى الغابةِ؛ سيَكُونُ مَسْكَنَهُ الأَبَدِيّ!!

بعد ذلك في أحد اجتماعاتِ مَجْلِسِهِ المَلَكِيّ؛ لاحظ مستشارُهُ الحِمَارُ "حيزون" -الذي عَيَّنَهُ بعد تَوَلِّيهِ مَقَالِيدَ الحُكْمِ -؛ نظرًا لولائِهِ الأعمى له ،وانقيادِهِ المُطْلَقِ لأوامرِهِ- أنَّ سَـيِّدَهُ مُعَكَّرُ المِزَاج، ومُنْهَكُ المَلَامِحِ، ومُضْطَرِبُ التَّصَرُّفَاتِ؛ فتَسَاءَلَ بنَبْرَةٍ ترتجُ خَوْفًا وهَلَعًا:

- "مَالِي أرى سَـيِّدِي السُّـلْطَان، مَالِكُ الزَّمَانِ والمَكَانِ، مُكَدَّرَ الوِجْـدَانِ ومُضْـطَرِب الجِنَـانِ؛ ويَعْلُو وَجْهَـهُ البَهِيّ مَسْـحَـةٌ مِن الأحزانِ؟!"

-"هـذا بفعـلِ صُرَاخ ذلـك الـدِّيْـكِ اللَّعِينِ الـذي يَرِنُّ بـآذَانِي كالطَّنِينِ!!"

فكَّرَ "حيزون" في الأمرِ للحظاتٍ؛ فوجـد أَنَّ في الأَمْرِ فرصـةٌ لإثباتِ الولاءِ والوفاءِ، ونيلَ مَزِيدًا مِن الحظوةِ والمكانةِ عِنْدَ سَـيِّد البلاد وقاهرِ أهلِها مِن المُلُوكِ والأسيادِ؛ فوَسْوَسَ لسَيِّدِهِ بأَنْ يُرْسِلَ له خِطَـابًا يحمـلُ أَمْرًا مَلَكِيًا بـالتَّوَقُّفِ عَن الصِّـيَاحِ، والتَّعْبِير، وإعلامِ السُّكَانِ بمَوْعِدِ التَّنْوِيرِ؛ استجاب "هيروي" للفكرة؛ فهِيَ ستَضْمَنُ له راحةَ البَالِ بَعْدَ الانشغالِ، ونوم النَّهَارِ بَعْدَ أَرَقِ الأَسْحَارِ.

كتـب "حيزون" نَصَّ الخِطَـابِ؛ ووَقَّعَـهُ بخِتْمِ مَنْ يَعْتَبِرُهُ رَبَّ الأَرْبَابِ؛ ليرسلَهُ لـ "سَلَّام" مع البريدِ المَلَكِيّ؛ اضطربتْ أوصالُ الدِّيْكِ، وهُوَ يقرأُ الخِطَابَ؛ وقد فَهِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ في مملكةِ السَّـعَادَةِ لن تَكُونَ

بَعْدَ اليومِ إلا شَـــقَاءً وعَنَاءً؛ فكَيْفَ لحنجرتِهِ التي أيقظتِ السُّـــكَانَ لأَعْوَامٍ وعُقُودٍ أَنْ يَخْفُتَ صَـــوْتُها كما تَخْبُو نَارُ السَّـــامَرِيِينَ مع إشراقةِ النَّهَارِ؛ ولا يَبْقَي منها إلا الرَّمَادُ؟!؛ وكيف لمَنْ وُلِدَ إمَامًا، وكان صـــوتُهُ دَلِيلًا للحائرين ومُنِيرًا للأبصـارِ أَنْ يلتزمَ الصَّـمْتَ؛ ويتركَ أهلَ الغَابَةِ لا يُفَرِّقُون بين لَيْلٍ ونَهَارٍ؟!

بعد تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ وتَحْلِيلٍ دَقِيقٍ؛ قَرَّرَ هَجْرَ شَـجَرَتَهِ الشَّـامِخَةَ؛ وترك عُشَّـــهُ الـذي آواه مِنْ يَوْمِ رأى النُّورَ؛ ليبحـثَ عَنْ طَعْمٍ آخر للحياةِ في الضِّـــفَةِ الأخرى مِن المملكةِ؛ انطلق في رحلتِهِ يحذُوهُ أَمَلُ النَّجَاةِ والحَيَاةِ؛ يســـيرُ حِيْنًا؛ ويُحَلِّقُ آخر، يُلْقِي السَّـــلامَ على كُلِّ مَنْ يُصَـــادِفُ في طريقِهِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ وأَطْيَارٍ، يأكلُ مِنْ أشـــهى الثِّمَارِ، ويستظَلُّ بفِيء الأشجارِ، يداعبُ الأغصانَ، ويستنشقُ روائحَ الأزهارِ.

في الضِّـفَةِ الغَرْبِيَّةِ اتَّخَذَ بيتًا في أقصى ـ المملكة على رأس إحدى الأشـــجار فارعة الطُّول ؛عَلَّهُ يكونُ في مَأْمَنٍ مِن الأخطارِ بين سُـــكَّانٍ غُرَبَـاء، لَمْ يـألفْهم؛ ولا أَلِفَ طَبَـائِعَهم، إلا أَنَّـهُ بعـد فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ مِن الإقامة اسـتطاع تكوين علاقاتٍ طَيِّبَةً مع جميع السُّـكَانِ، سَـوَاءً مِنْ أبنـاءِ مملكتـهِ، أو مِنْ أبنـاءِ مختلفِ المَمَـالَـكِ؛ حتَّى أصـــبح الجَمِيعُ يطالبُهُ بالعَوْدَةِ إلى عادتِهِ بإيقاظهم كُلِّ فَجْرٍ، وتنوير عتمة لياليهم بصَـــوْتِهِ الرَّنَانِ الذي يفصـــلُ بين الحركةِ والســـكونِ؛ ويُحَدِّدُ نِظَامَ حَيَاتِهم كما يَجِبُ أَنْ يَكُونَ.

فَكَّرَ "سَـــلَّام" في كلامهم كَثِيرًا؛ حتَّى وَصَـــلَ إلى قناعةٍ تَامَّةٍ بأَنَّ صـيحتَهُ كُلُّ فَجْرٍ ليسـتْ مُجَرَّد صُرَاخٍ لا طَائِلَ منه؛ بَلْ هِيَ إشراقةٌ مَعَ

كُلِّ صَـبَاحٍ تُعِيدُ نَشَـاطَ الحَيَاةِ إلى جَمِيعِ الأرجاءِ في المملكةِ وخارِجِها مِن الأقطارِ القريبةِ، كما فَكَّرَ أيضًـا بأَنَّ صَـوْتَهُ لن يَصِـلَ إلى مَسَـامِعِ المَلِكِ "هيروي"؛ مِنْ بُعْدِ هذه المسـافةِ الشـاسـعةِ؛ وهكذا سـيُؤَدِّي وَاجِبَهُ؛ ويكونُ في مَأْمَنٍ مِنْ غَضَـبِ المَلِكِ وحَاشَـيتِهِ مِمَّنْ يزعجُهم صَوْتُهُ؟!

بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ مِن التَّفْكِيرِ والتَّدْبِيرِ؛ عاد لإطلاقِ صـيحةِ الحَقِّ في فَجْر خَرِيْف شَدِيد السَّوَادِ تتخللُهُ لسعاتُ رِيَاحٍ بَارِدَةٍ؛ فعادتْ معه الحيواناتُ إلى نِظَامِ حَيَاتِها الطبيعي؛ حَيْثُ اسـتعادتْ نَشَـاطَها نَهَارًا، وخلودها لركن الرَّاحَةِ لَيْلًا.

ومَعَ أَنَّ صـيحة "سَـلَّام" لَمْ تَكُنْ تُزْعِجُ راحة المَلِك "هيروي"؛ ولا تقلقُ مَنَامَهُ؛ بحَيْثُ لا يَصِـلُ منها إلى القَصْرِ ـ إلا الصَّـدَى؛ غَيْر أَنَّهُ سَخِطَ عليه سخطًا عَظِيمًا؛ بسـببِ عودتِهِ لإطلاقِ صيحاتِهِ عِنْدَ كُلِّ فَجْرٍ ضَـارِبًا بذلك أوامره عُرْضَ الحَائِط؛ ورأى في هذا التَّصَرُّفِ تَحَدِّيًا لقُوَّتِهِ، وانتقاصًـا مِنْ هَيْبَتِهِ المَلَكِيَّةِ أَمَامَ السُّـكَانِ الذين اسـتوطن الرُّعْبُ منه، ومِنْ بَطْشِهِ نفوسَهم وقلوبَهم؛ وتَوَغَّلَ بأفْكَارِهم؛ فما عاد وَاحِدٌ منهم يَجْرُؤ على معارضتِهِ بينه وبين نفسه!!

اسـتدعى "هيروي" مسـتشـاره "حيزون"، ومُمَثِّلَهُ في الضِّـفَةِ الغَرْبِيَّةِ مِن المملكةِ الثَّعْلَب المَاكِر "سـيبرا" لاجتماع سِرِّي؛ مِنْ أَجْلِ وَضْعِ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ تُخْرِسُ "سَلَّام" إلى الأبدِ؛ اجتمع الثلاثةُ في إحدى لياليهم الحَمْرَاءِ في حَفْلَةِ شِـوَاءٍ، وشَرَابٍ على ضِـفَّةِ الجدولِ؛ ليبدأوا بالكيدِ لصـاحبِ صـيحةِ الفجرِ؛ فاقترح "سـيبرا" اعتقالَهُ؛ ووَضْـعهُ

بالسِّجْنِ مع غيره مِمَّنْ سَوَلَّتْ لهم أَنْفُسُهم إبداءَ بَعْضِ الرَّفْضِ لمَنْهَجِ الحُكْمِ السَّائِد؛ واقترح "حيزون" التَّخَلُّصَ منه ومِنْ شَرِّهِ نِهَائيًا؛ حتَّى لا يَعْلُو صَـوْتُهُ داخلَ زِنْزَانَةِ السِّـجْنِ؛ ولا يُوقِظُ هِمَمَ المَسَـاجِينِ مِنْ جَدِيدٍ.

فَكَّرَ"هيروي" بالاقتراحِينِ مَلِيًا؛ ووَجَدَ أَنَّ كلام "حيزون" أقربُ إلى مَنْطِقِهِ؛ وأنَّهُ يُنْهِي الأمرَ مِنْ أَسَاسِهِ؛ ويقتلعُ الدَّاءَ مِنْ جُذُورِهِ:

-" كلامُكَ يا مُسْـتَشَـارُ وقع بقَلْبِي موقعًا؛ لذلك على "سـيبرا" اسـتدراج ذاك الدِّيْكَ النَّاعِقَ بَعِيدًا عن عُشِّـهِ العَالِي إلى أَحَدِ أمَاكِنِنا؛ حتَّى يَسْهُلَ القضاءُ عليه دُوْنَ جَلَبَةٍ"

-" أَمْرُ مَوْلَاي وسَيِّدِي؛ أنا طَوْعُ بَنَانِكَ ورَهْنُ إشَارَتِكَ!!"

-" نَفِّذِ الخُطَّةَ بإتقانٍ؛ وعندما يُصْبِحُ الأمرُ مُسْتَتِّبًا؛ سأرسلُ لَكَ قَائِدَ حُرَّاسِي: "الذِّئب كَمَّاشَة "؛ ليُنْهِي هذه المهزلة!!"

مع قدومِ يَوْمٍ جَدِيدٍ بدأ "سيبرا" بتنفيذِ خُطَّةِ الغَدْرِ التي وَضَعَها بإحكامٍ؛ فقام بدعوةِ جَمِيعِ سُـكَّانِ الضِّـفَةِ مِن الحيواناتِ على مَأْدُبَةِ غَدَاءٍ متنوعةٍ حسب اختلافاتِهم، ورغباتهم، وفي وَسَـطِ المَأْدُبَةِ تَقَدَّمَ مِنْ "سَـلَّام"؛ وقَدَّمَ له شُـكْرَهُ وامتنانَهُ نِيَابَةً عَنْ جَمِيعِ الحاضرينَ عَمَّا يقومُ به؛ وطلب مِنْهُ الاسـتمرارَ في عمله؛ فبَدَتْ تلك المَأْدُبَةَ، وكَأَنَّها حَفْلَةُ تَكْرِيمٍ له.

انصرفتْ كُلُّ الحيواناتِ إلى بُيُوتِها؛ وعاد "سَلَّام "إلى عُشِّـهِ آمنًا مطمئنًا مفتخرًا بنَفْسِهِ؛ رَغْمَ استغرابِهِ مِنْ تَصَرُّفِ "سيبرا"؛ لَكِنَّهُ اعتبر أَنَّ الأمرَ رَاجِعٌ إلى اختلافِ الطَّبَائِعِ بين الخَلْقِ؛ وأقنع نَفْسَـهُ بأَنَّهُ ليس مِن الضَّرُوري أَنْ ينزعجَ "سـيبرا" مِمَّا يزعجُ المَلِكَ فقط لكَوْنِهِ مُوَظَّفًا لديه ومُمَثِّلًا له، كما أَنَّ صَوْتَهُ الآنَ لَمْ يَعُدْ مَصْدَر إزعاجٍ للمَلِكِ؛ وهذا ما يَضَعُهُ في مَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِ؛ وهكذا نام مُرْتَاحَ البَالِ قَرِيرَ العَيْنِ.

بعد مُرُورِ أسبوعٍ مِنْ تلك المَأْدُبَةِ كان "سَلَّام" بأعلى عُشِّهِ ينعمُ بقَيْلُولَةٍ في سَلَامٍ؛ طالما استمَدَّهُ مِنْ جَمَالِ روحِهِ ونَقَائِها، وكذلك مِنْ اسْـمِهِ الذي رَافَقَهُ مُنْذُ مَجِيئِهِ للحياةِ إلى أَنْ أفْزَعَهُ صَـوْتُ رسـول "سيبرا" يستدعيه إلى ديوانِهِ في أَمْرٍ هَامٍّ دُونَ أَنْ يُفْصِحَ عنه؟!

تَبَعَـهُ بخُطُوَاتٍ مُتَرَدِّدةٍ؛ وقد دَبَّ الخَوْفُ والرُّعْـبُ بقَلْبِـهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَذَّبَ ذلك الشُّـعُورَ الذي يراودُهُ؛ عندما تَذَكَّرَ تلك الوُعُودِ بالأمَانِ التي قَدَّمَها له "سـيبرا" على العَلَنِ، في طريقه التقى الحَمَامَةَ "نيان" التي أَلِفَ وُدَّها مُؤخَرًا؛ فطلب منها مُرَافَقَتَهُ إلى بابِ الديوانِ؛ حتَّى يقضي غَرَضَهُ بالداخل، وقفتِ الحَمَامَةُ بأجنحتها البيضاء على غُصْنٍ قَرِيبٍ مِنْ بَابِ الدُّخُولِ؛ بينما دَلِفَ هُوَ إلى الدَّاخِلِ، وعُيُونُهُ تُشَـيِّعُها ببَرِيقِ أَمَلٍ في لِقَاءٍ أَكْثَرُ دِفْئًا عَنْ قَرِيبٍ؛ صُـدِمَ؛ وارتعدتْ أَوْصَـالُهُ فَوْرَ وُلُوجِهِ مَجْلِس "سـيبرا"، ورؤيته "كَمَّاشَـة" مُحَاطًا بعَدَدٍ مِنْ زَبَانِيتِهِ، وأنيابَهُ التي أكسـبتْهُ ذلك الاسـمَ المُرْعِبَ بَارِزَةً يَسِـيلُ لُعَابُها لفَرِيسَـةٍ جَدِيدةٍ.

هَمَّ بالصِّيَاحِ وإطْلَاقِ نداء استغاثة؛ بَعْدَ أَنِ استشف نَوَايَاهم مِنْ خِلالِ تلك النَّظَرَاتِ المَاكِرَةِ؛ رَغْمَ أَنَّهُ مُوقِنٌ بأَنَّ صَدَاهُ لن يَتَعَدَّى جُدْرَانَ تلك القَاعَةِ الصَّمَاءِ، غَيْرَ أَنَّ أيْدِيهم الغَادِرَةَ كانتْ أسرعُ مِنْ صَوْتِهِ؛ والذي خَفَتْ تدريجيًا تحت وطأة تلك الأَصَابِعِ الغَلِيظَةِ التي تَسُدُّ فَمَهُ؛ وتكتمُ أَنْفَاسَهُ إلى أَنْ سَقَطَ أَرْضًا رَاحِلًا لعَالَمِ اللاوعي؛ غَيْر مُدْرِكٍ أَيّ نِهَايةٍ تنتظرُهُ؟!

تَمَلَّكَ الحاضرون بَعْضَ التَّوَتُّر والقَلَقِ مِمَّا حَدَثَ؛ واضطربتْ أَنْفَاسُهم مِنْ ذلك المَشْهَدِ الذي أظهر لهم بوضوحِ صُورَةَ المَوْتِ؛ وهِيَ تغتصبُ رُوحًا بَرِيئَةً؛ كُلُّ ذَنْبِها أَنَّ صَاحِبَها صَدَحَ بصَوْتِهِ عَالِيًا في الأرجاءِ؛ ولَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ سِلاحًا آخر غيره؛ ليَطْلُبَ "سيبرا" نَقْلَ جَسَدِ "سَلَّام" إلى الضِّفَةِ الأخرى مِن المملكةِ قَبْلَ التَّنْكِيلِ به؛ لَكِنَّ تهديدَ "كَمَّاشَة" له بملاقاةِ نفسِ المَصِيرِ؛ إذا سَمِعَ منه كَلِمَةً أخرى؛ جعلَهُ يَتَحَسَّسُ رَقَبَتَهُ برُعْبٍ؛ خَاشِيًا مِنْ فَصْلِها عَنْ جَسَدِهِ؛ دار قَائِدُ الحَرَسِ حَوْلَ الجَسَدِ المُمَدَّدِ بعُيُونٍ تلمعُ رَغْبَةً وعطشًا للونِ الدِّمَاءِ؛ فَكَّرَ في طَرِيقَةٍ للتَّخَلُّصِ منه دُوْنَ إثَارَةِ ضَجَّةٍ بالجوار؛ فلَمْ يَجِدْ لذلك أفضلُ مِنْ تقطيعِ أَوْصَالِهِ إلى أَشْلَاءٍ صَغِيرةٍ يَسْهُلُ إخفاؤُها عَن الأَعْيُنِ المُرَاقِبَةِ؛ ليقومَ بتلك المُهِمَّةِ الفَظِيعَةِ تَحْتَ أنظارِهم التي حَمَلَتْ تَعَابِيرَ مختلفةً بين رعبٍ، وخَوْفٍ، ولا مبالاةٍ، وعلى وَقْعِ بَعْضِ الكلماتِ التي كان يُدَنْدِنُ بها؛ لتمتزجَ بأَصْوَاتِ الزَّفَرَاتِ الحَارَّةِ التي تملأُ فَضَاءَ القَاعَةِ.

فِي خَارِجِ الدِّيْوَانِ ظَلَّتْ "نيان" تنتظرُ خروجَ "سَـلَّام" لسَـاعَاتٍ متأخرةٍ مِن اللَّيْلِ بدُوْنِ جَدْوَى؛ فقَرَّرَتِ اتِّخَاذَ أَحَدِ الأغصـــانِ العَالِيَةِ نُزُلًا تقضيــ به ليلَتها تلك؛ غَيْر أَنَّ خُرُوجَ حَرَسِ المَلِك مَعَ قَائِدِهم في سَــاعَاتِ الفَجْرِ الأولى سَــالِكِينَ الطَّرِيقِ المُؤدِّي للضِّــفَةِ الشَّرْـقِيَّةِ في أَجْوَاءٍ مُرِيبَةٍ أَثَارَ اســتغرابَها وشُــكُوكَها؛ خُصُــوصًــا عند تذكرِها آخر كلمات "سَلَّام" قَبْلَ دخولِهِ:

-" إذا لَمْ أَعُـدْ إلَيْـكِ مِنْ رِحْلَتِي هـذه؛ انْشُرِــي خَبَرِي في كُلِّ الأَرْجَاءِ؛ واجْعَلِي الجَمِيعَ يعرفُ بذَهَابِي لغير عودة !!"

كان خوفُها ورعبُها يزدادُ كُلَّمَا مَرَّ وَقْتٌ أطولُ دُوْنَ خُرُوجِهِ مِنْ مَجْلِس "سـيبرا"، ومع تَوَسُّـطِ قرص الشـمس السَّـمَاءَ؛ قَرَّرَتْ الوَفَاءَ بوَعْدِها، وتنفيذَ وَصِــيتِهِ؛ فطارتْ مُحَلِّقَةً بجناحيها في الأجْوَاءِ؛ تعلنُ خَبَرَ اختفائِهِ بدِيوَانِ مُمَثَّل المَلِك؛ حتَّى عَلِمَ جَمِيعُ سُــكَّانِ المملكةِ، وحتَّى سُـكَّانِ المَمَالِكِ المجاورة بهذه القِصَّـة اللَّغْز؛ فتوافدتِ الوُفُودُ؛ واجتمع السُّـكَانُ أَمَامَ ديوان "سـيبرا"؛ والذي لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِن اسـتقبالِ بَعْض وُفُود المَمَـالِـكِ الأخرى وإدخـالهـا للمَقَرِّ؛ مِنْ أَجْـلِ البحـثِ والتَّحَرِّي عَنْ جُثَّةِ "سَــلَّام" التي نَفي وُجُودَها عِنْدَهُ، والتي تَبَيَّنَ بعد الضُّــغُوطِ أَنَّهُ تَمَّ التَّخَلُّصُ منها بطَرِيقَةٍ كَثُرَ حَوْلَها اللَّغَطُ؛ ولا أَحَدٌ اعترف بتَفَاصِيلِها.

ثارتْ بَعْدَ هذه الحادثةِ الأَنْفُسُ؛ وغضــبتِ المَمَالِكُ؛ وتَوَعَّدَتْ بمقاطعةِ مملكةِ السَّــعَادَةِ؛ وطالب البَعْضُ بعَزْلِ مَلِكها الذي اكتفي بعزلِ "سيبرا" مِنْ مَنْصِبِهِ؛ وذَمَّ تَصَرُّف "كَمَّاشَـة"؛ وذهب آخرون إلى

ضرورةِ معاقبتِهِ على فعلتِهِ تلك؛ غَيْر أَنَّ ما كان يُقَدِّمُهُ لهم مِنْ ثِمَارٍ، ومِيَاهٍ ،ومختلفِ الخَيْرَاتِ ؛ كان ثَمَنًا كَافِيًا لصَـمْتِهم وتواطؤِهم مَعَهُ في جريمتِهِ.

وهكذا مَرَّتْ الأَيَّامُ والشُّهُورُ دُوْنَ أَنْ يعرفَ أَحَدٌ بشَكْلٍ رَسْمِيّ ؛ ما كان مَصِيرَ جُثَّةِ "سَلَّام" بَعْدَ تقطيعِها، ولَمْ يَكُنْ له قَبْرٌ يأوي رُفَاتَهُ؛ ويَكُونُ مَعْلَمًا لوجوده؛ لَكِنَّ ذكرَهُ ظَلَّ خَالِدًا على أَلْسِـنَةِ كُلِّ مَنْ كانتْ صيحتُهُ دَلِيلَ فَجْرِهم ونُورَ بَصَائِرِهم.

انتهتْ حَيَاةُ "سَلَّام "؛ وظَلَّ صَدَى صَوْتِهِ يَتَرَدَّدُ بآذانِ محبيه؛ ليَرْسِمَ لهم الخَطَّ الفَاصِلَ بين النُّورِ والظَّلامِ، وبين الحَقِّ والبَاطِلِ، كما ظَلَّ يَتَرَدَّدُ بآذَانِ "هيروي" وأعوانه، وكُلِّ مَنْ تواطأ معهم؛ ليقض مَضْجَعَهم؛ ويُؤَرِّقُ نَوْمَهم؛ فلا هُمْ نَعِمُوا بنَوْمٍ هانِئٍ في حَيَاتِهم، ولا هُمْ خَلَّدُوا ذِكْرًا طَيِّبًا بعد مَوْتِهم؛ فكانتْ قُبُورُهم على فخامتِها مهجورةً ،لا تسكنُها إلا الصَّرَاصِيرُ وخَفَافِيشُ الظَّلامِ؛ لأنَّ مَنْ عَاشَ بظُلْمٍ وظَلَامٍ في دُنْيَاهُ؛ كانتْ آخِرَتَهُ ظَلامًا وأَكْثَرُ سَوَادًا!!

أنهى الأَبُ سَرْدَ القِصَّةِ لابنه ذي العَشْرِ سَنَوَاتٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَرِّرَها مَوْضُوعًا نَثْرِيًا كوَاجِبِ مَدْرَسِيّ؛ ليفاجئُهُ الابنُ بالسُّؤال:

- "هل هَذِهِ القِصَّةُ حَدَثَتْ فِعْلًا يَا أَبِي؟!؛ وهَلْ مملكةُ السَّعَادَةِ مَوْجُودَةٌ حَقًّا؟!"

خَبَّأ الأَبُ عَيْنِيهِ بين أوراقِ الجَرِيدَةِ التي كان يقرأُها؛ والتي كان في أَحَدِ الأَيَّامِ مِنْ مُحَرِّرِيها؛ هُرُوبًا مِنْ نَظَرَاتِ ابْنِهِ المُتَسَـــائِلَةِ؛ ليجيبَ بنَبْرَةِ صَوْتِ منكسرةٍ تحملُ الكَثِيرَ مِن الأَسَى:

-"بل هناك عِدَّةُ مَمَالِك للسَّعَادَةِ يَا وَلَدِي، كُنَّا في الأصلِ مملكةٌ وَاحِـدَةٌ؛ لَكِنَّ أصـــبحـتِ التَّعَاسَـــةُ حَظَّنَا؛ مُنْذُ أَنْ فَرَّقَتْنَا الحُـدُودُ والمَصَالحُ!!"

لَكِنَّهُ انتفض على إثرِ الكلماتِ البريئةِ للولدِ الصغيرِ:

- "هَذِهِ القِصَّةُ تُشْبِهُ كَثِيرًا قِصَّة وَقَعَتْ مُؤخِرًا في "....

وضـع الأَبُ يَدَهُ على فَمِهِ؛ وهُوَ يتلفتُ يَمِينًا وشِـمَالًا؛ يتأكَّدُ مِنْ أَنَّ الأبوابَ والنَّوَافِذَ مؤصدةٌ بشَكْلٍ مُحْكَمٍ؛ يَنْهَرُهُ بلَهْجَةٍ غَاضِبَةٍ:

-"كَمْ مَرَّةٍ أخبرتُكَ ألا تدخلَ مَوَاقِعَ إلكترونيَّةَ غَيْر التي تحتاجُها بدِرَاسَتِكَ! ؛ اذْهَبِ الآنَ للنَّوْمِ؛ وفي الغَدِ سأَتَصَرَّفُ بأَمْرِ الشَّبَكَة!!".

انصرـف الوَلَدُ إلى غرفتِهِ بخُطُوَاتٍ متثاقلةٍ؛ وبعَيْنِيهِ أسـئلةٌ لا حَصْرَ لها بدُوْنِ إجَابَةٍ؛ بينما هَرَعَ الوَالِدُ إلى نوافذِ بيتِهِ يُشَـدِّدُ إحكامَ إغلاقِها؛ ويسـترقُ مِنْ خَلْفِ سـتائِرِها نَظَرَاتٍ إلى الشَّـارِعِ الخَالِي تَمَامًا مِن المَـارَّةِ؛ ثُمَّ أطفـأ الأَنْوَارَ؛ وانزوى على أَرِيْكَـةٍ في غرفـة الجُلُوسِ؛ ليغرقَ وَجْهَهُ بعَبَرَاتِ عُيُونِهِ التي تتوقُ لصَيْحَةِ فَجْرٍ جَدِيدَةٍ ؟!!

طَيْف مَلائكِيّ

سامي علوان

تجمدتِ الدِّمَاءُ في عُرُوقِها؛ عندما رأتْ مَنْظَرَ الدِّمَاءِ، وهي تسيلُ مِنْ صَدْرِ وَلَدِها، وهو يَشُقُّ طريقَهُ مترنحًا ما بين الأشجارِ بصُعُوبةٍ شَدِيدةٍ، وآثارُ الدِّمَاءِ تتناثرُ مِنْ حَوْلِهِ هُنَا وهُنَاك؟!!

آهاتُ لَيْلٍ صَامتةٍ تكادُ أنْ تَفْتِكَ بأعماقِها، لا تَكُفُّ، ولا تَهْدَأُ، وكأنَّها غيمات وسحابات أمطار موسميَّة لا تتوقفُ، ولا تهدأُ، سُرْعَانَ ما تتحوَّلُ إلى سيلٍ جَارفٍ مِن الآهاتِ والأحزانِ، يَصُبُّ في بحرٍ هَائِجٍ عَمِيقٍ يموجُ ويرتفعُ، يضربُ بكُلِّ قُوَّتِهِ حتَّى يهدأَ على الشاطئ، ويتلاشى؛ فتلاحقُهُ مِنْ جَدِيدٍ مَوْجَاتٌ ومَوْجَاتٌ .

لحظاتٌ قليلةٌ مَرَّتْ عليها، وهِيَ ما زالتْ عالقةً أمامَ مَنْظَرِ الدِّمَاءِ التي تسيلُ مِنْ وَلَدِها؛ وهو يسقطُ على الأرضِ .

أشار بيدِهِ إلى بابِ الحجرةِ ثُمَّ سكنتْ حَرَكَاتُهُ .

عادتْ على صوتِ صرخاتٍ واستغاثاتٍ تنبعثُ مِنْ خلف باب الحُجْرَةِ؛ لملمتْ قُوَاهَا؛ وأمسكتْ بالبُنْدُقِيَّة؛ وفتحتْ بَابَ الحجرةِ بحَذَرٍ شَدِيدٍ؛ ليعلُو صوتَ الصُّرَاخِ؛ ليزلزلَ المكانَ - حان مَوْعد الولادةِ لزَوْجَةِ وَلَدِها-

مَدَّتْ يَدُها نَحْوَها؛ حِيْنَ أبصرتْها تَمِدُّ بَصَرَها ناحية الصالة، وكأنَّهَا تسألُ عَنْ زَوْجِها؛ فأصواتُ طلقاتِ البنادقِ لَمْ تتوقَّفْ مُنْذُ سَاعَاتٍ؛ وكأنَّ السماءَ ترعدُ، والرصاصاتُ تتساقطُ كحَبَّاتِ المَطَر .

زلزلةُ صُرَاخ الطِّفْلِ تعلنُ عَنْ جُوعِهِ؛ فأسرعتِ الجَدَّةُ تحتضنُهُ؛ وتَلِفُّهُ بقطعةٍ من القُمَاشِ المَنْسُوجِ؛ وتُغَطِّيهُ؛ وتُعْطِيهُ لأُمِّهِ التي ما زَالَتْ غَيْرَ قَادرةٍ على الحركةِ .

استجمعتْ قُوَاهَا المُنْهَارَةُ؛ لتلقمَ الطِّفْلَ "عبد الرحمن " ثَدْييها بيدٍ ترتعشُ .

عادتِ الجَدَّةُ أدراجَها إلى حَيْثُ يرقدُ ابْنُها مُدَرَّجًا في دِمَائِهِ ثُمَّ عادتْ على صَوْتِ صُرَاخِ الطِّفْلِ؛ حَيْثُ ترقدُ زوجةُ ابْنِها تَارَةً أخرى .

لحظاتٌ قليلةٌ عصفتْ بكَيَانِها عَصْفًا؛ وهاجتْ بأعماقِها خيباتُ المَاضِي السَّحِيقِ؛ وراحتْ تجوبُ الحُجْرَاتِ والأروقةَ؛ وتفتحُ الأبوابَ وتُغْلِقُها؛ وما زَالَ يَتَعَلَّقُ بأُذُنِها صَرَاخَاتُ حَفِيدِها "عبد الرحمن"

وأخذتْ تتذكَّرُ عندما كانتِ الأُسْرَةُ تتجمَّعُ حَوْلَ مَأْدُبَةِ الطعامِ في المَسَاءِ ، وعندما كان الأولادُ الصِّغَارُ يلعبُون هُنَا وهُنَاكَ .

عادتْ ذَاتَ ليلةٍ عاصفةٍ؛ لتكتشفَ زَيْفَ تلك الليالي؛ وأنَّهَا قد ذَهَبَتْ سُدَى؛ عندما كَبَرَ الأولادُ، ومَاتَتْ براءتُهم؛ وتَأَجَّجَتْ نارُ الفِتْنَةِ بَيْنَ أولادِ العَمِّ؛ حملُوا البَنَادِقَ؛ وأخذُوا يصوبونها نَحْوَ صُدُورِهم

وَاحِدًا تلو الآخَر أخذًا بالثأرِ؛ حتَّى قَضَـــتْ عليهم تلك الفِتْنَةُ، وهكذا بدُونِ سَابِقِ إنذارٍ!!

انطفأتْ بهجةُ الشــبابِ؛ واكتســتِ النِّسَــاءُ باللَّوْنِ الأَسْــوَدِ؛ وغيَّمَتِ الأحزانُ على بيوتِ القرية .

أغمضتْ عينيها؛ حتَّى لا ترى وَلَدَها المُدَرَّجَ في دِمَائِهِ؛ ولملمتْ نَفْسَـها؛ وراحتْ تَحِثُّ الخُطَى وَسْـطَ الظلامِ، وهي تحتضـنُ حَفِيدَها "عبد الرحمن"، وتســندُ أُمَّهُ التي ما زَالَتْ غَيْرَ قَادِرةٍ على الســيرِ؛ وأحضرتِ العربةَ "الكارو"؛ ووَضَــعَتِ الطِّفْلَ وأُمَّهُ، وبعضًــا مِن الأَغْطِيَة، ورَقَبَةَ الجملِ الفُخَارِيَّةِ، وصُـنْدُوقَها الخَشَـبِيّ؛ وأخذتْ تبحرُ وتموجُ بالعربة "الكارو" وَسْــطَ الزراعاتِ؛ وتركضُ ناحيةَ الضــوءِ الخافتِ وَسْــطَ القُرَى مُسْرِعَة الخُطَى؛ تســتقبلُها نُبَاحَاتُ الكِلَاب وعِوَاءَاتُ الذِّئَاب!!

وأخذتِ العربةُ تموجُ وتترنحُ ما بين الزراعاتِ والطُّرُقِ التُّرَابِيَّةِ، مِنْ قريةٍ إلى أخرى طوال الليلِ، وطوال النهار؛ حتَّى اســتقَرَّتِ العربةُ أمَامَ تَلَّةٍ صَغِيرةٍ .

وعندما شرفتْ على النجاةِ؛ شعرتِ الجَدَّةُ بوَهَنٍ يغزُو جَسَـدَها النحيفَ؛ فأســندتْ رَأْسَــها إلى جِذْعِ شَــجَرَةِ الصِّــفْصَــاف ثُمَّ راحتْ تَتَحَسَّــسُ ما فوق صَـدْرِها وبين أحضـانِها؛ ونظرتْ إليه؛ واحتضـنْتَهُ حتَّى شملَها بَعْضٌ مِن السَّكِينةِ، والطمأنينةِ، والهدوءِ .

وأخذتْ تَصْنَعُ مِن الأَغْطِيةِ خَيْمَةً صَغِيرةً؛ ليَحْتَمُوا بها مِن البردِ القَارِس .

لحظاتٌ قليلةٌ مَرَّت، وبدأتِ الشَّمْسُ تسقطُ أشعتَها على تلك التَّلَّةِ حَوْلَ الخيمةِ الصغيرةِ، وبدأتِ الحركةُ مِنْ حَوْلِها؛ وتَعَجَّبَ أهلُ القريةِ مِنْ تلك الخيمة؛ والتي لَمْ تَكُنْ موجودةً بالأمسِ القريبِ؛ وأَخَذْنَ يَتَحَسَسْنَ الخَبَرَ؛ ويَتَعَجَبْنَ مِنْ قدرتِهم وشجاعتِهم على المَبِيتِ في تلك الخيمةِ وَسْطَ الزراعاتِ، ووَسْطَ العَرَاءِ؟!

وتَمُرُّ الأَيَّامُ تِبَاعًا، والجَدَّةُ والأُمُّ يُرَاعِيَانِ الطِّفْلَ، ونِسَاءُ القريةِ يَتَعَجَبْنَ ويَتَسَاءَلْنَ .

وذَاتَ مَسَاءٍ وقف "كنعان اللص "أمامَ الخيمةِ؛ يتَقَدَّمُ خَطْوةً؛ ويتأخرُ الأخرى؛ حتَّى أَتَتْهُ الشجاعةُ؛ وتَسَلَّلَ داخلَ الخيمةِ .

أَحَسَّتِ الجَدَّةُ بدَبِيبِ وَقْعِ خُطُواتِهِ، وهو يَتَسَلَّلُ داخلَ الخيمةِ ؛ وأخذ الدَّمُّ يجري في عُرُوقِها؛ واندفع الدَّمُّ دفعًا؛ وتكسَّرتْ قيودُ المَارِدِ بداخلِها؛ وأمسكتْ باللص؛ وأخذتْ تَكِيلَهُ ضربًا بكلتا يَدِيها؛ وأمسكتْ بتلابيبِهِ؛ وقذفتْهُ بكُلِّ قُوَّتِها إلى خارجِ الخيمةِ؛ وأخذتْ تضربُهُ بالعَصَا، وهو يتدحرجُ مِنْ أمامِها هَابِطًا التَّلَّةَ؛ وأوثقتْهُ بالحبالِ في جِذْعِ شَجَرَةِ الصِّفْصَافِ .

وفي الصَّبَاحِ فُوجئتْ جموعُ المَارَّةِ بذلك اللصِ المَوْثُوقِ بالحبالِ في جِذْعِ الشَّجَرَة؛ وهو يستنجدُ بهم؛ ويستعطفُهم؛ حتَّى يَفُكُّوا أسْرَهُ .

ذاع الخبرُ في القريةِ عَنْ شــجاعتِها، وعَنْ قدرتِها على الإمســاكِ باللص كنعان الذى دَأَبَ يسرقُ مَاشِيتَهم مُنْذُ فترةٍ من الزَّمَن .

هبطتِ التَّلَّةَ؛ وفَكَّتِ الحبلَ مِنْ حَوْلِهِ؛ وقَدَّمَتْ له الطعامَ .

ومَرَّتِ الأيَّامُ؛ وأصــبحتِ الخيمةُ الصــغيرةُ مَصْــدَرَ أَمْنٍ وأمَانٍ لأهلِ القريةِ .

أُعْجِبَ بشــجاعتِها الكَثِيرُ مِنْ نِسَــاء القريةِ؛ مِمَّا دَفْعَهُنَّ إلى التَّقَرُّبِ منها ،ومساعدتِها، والسُّؤالِ عَنْ حالِها .

اتَّجِهَتْ ناحيةَ بيتِ شَــيْخ القريةِ؛ وراحتْ تَشْــكُو له حَيَاتَهم المُوحِشَــة في تلك الخيمة ثُمَّ بَكَتْ كسِــيلٍ هَدَّارِ بسِــعَةِ ذلك النَّهْرِ الذي يعبرُ القَرْيَةَ؛ وظَلَّتْ تَبْكِي حتَّى احْمَرَّتْ عيناها .

عادتْ على صَرَاخَاتِ حَفِيدِها؛ فأسرعتْ تحتضنُهُ؛ وتَضُمُّهُ إلى صَــدْرِها ،وكُلَّمَا احتاجتْ إلى المالِ؛ كانتْ تسرــعُ الخُطَى نَحْوَ رَقَبَةِ الجَمَلِ الفُخَارِيَّةِ؛ وتعودُ بالجُنِيهَاتِ الذَّهَبِيَّةِ؛ لتُبَدَّلَها مِنْ شَــيْخِ القريةِ .

جلســتْ وَقْتَ غُرُوبِ الشــمس بجانب خيمتِها الصــغيرةِ أعلى التَّلَّةِ، وفي حِجْرِها "عبد الرحمن"، والنَّسِيمُ الباردُ يصافحُ وَجْهَهَا .

جاء شَــيْخُ القريةِ؛ وبَشَّرَــها ببِيْتٍ مَعْرُوضٍ للبيعِ داخلَ القريةِ؛ أسرعــتِ الخُطَى حَيْثُ رَقَبَـةِ الجَمَـلِ الفُخَـارِيَّـةِ؛ وأَتَـتْ بـالجُنِيهَـاتِ الذَّهَبِيَّةِ؛ لتُعْطِيها لشَيْخِ القريةِ .

وأخذتْ تشـــترِي كُلَّ قِطْعَةِ أَرْضٍ تُعْرَضُ للبيعِ داخلَ القريةِ: فدان .....اثنان..... خمسة أفدنةٍ .

و"عبد الرحمن " يَحْبُو، ويَلْهُو، ويَلْعَبُ هُنَا وهُنَاكَ داخلَ أروقةِ البيتِ وَسْطَ القريةِ .

وفي المَسَاءِ كان يجلسُ يستمعُ إلى حِكَايَاتِ جَدَّتِهِ عَنْ شجاعةِ وَالِدِهِ، وهو يمتطِي جَوَادَهُ، ويحملُ بُنْدَقيتَهُ؛ ويحاربُ الأعداءَ، وكان الطِّفْلُ يسبحُ بخَيَالِهِ، ويعيشُ بكُلِّ وِجْدَانِهِ مَعَ أَحْدَاثِ حِكَايَاتِ جَدَّتِهِ؛ ويتخيَّلُ نَفْسَـهُ، وهو يمتطِي جَوَادَهُ، ويحملُ بُنْدَقِيتَهُ هُوَ الآخَرُ بجوارِ وَالِدِهِ؛ ويُحَارِبَانِ الأعداءَ مَعًا .

يعودُ على دُمُوعِ جَدَّتِهِ؛ وهِيَ تتســاقطُ على وَجْنَتِيها؛ فيَمُدُّ يَدَهُ الصغيرةُ؛ ويَمْسَحُها؛ ويَطْبَعُ قُبْلَةً حَانِيَةً على جَبِينِها .

ومَرَّتِ الأَيَّامُ ؛ وكَبَرَ الطِّفْلُ، وكانتْ في تلك السِّــنِّ الصَّــغِيرةِ مِنْ قائمةِ أُمْنِيَاتِهِ الكَثِيرةِ :أنْ يملكَ بُنْدَقِيَّةً كالتي يحملُها "كنعان"، أو تُخْفِيها جَدَّتُهُ داخلَ صُنْدُوقِها الخَشَبِيّ.

وكان يحلمُ أنْ يحملَها؛ وأنْ يضرِــبَ بها، وكانتْ أُمُّهُ تنهَاهُ عَنْ ذلك؛ وتكتفي بأَنْ تُرْسِــلَهُ الى الكُتَّابِ عِنْدَ شَــيْخِ القريةِ بصُــحْبَةِ "كنعان".

تَخَيَّلَ نَفْسَهُ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، وهُوَ يُمْسِكُ البُنْدُقِيَّةَ، ويحملُها؛ حتَّى اكتشف أنَّهَا لا تُنَاسِبُهُ؛ ووَجَدَ نَفْسَهُ في أَنْ يجتهدَ في دُرُوسِهِ؛ ويختمُ القرآنَ الكريمَ مَعَ شَيْخِ القرية .

"عبدالرحمن" يلتحقُ بالجَامِعَةِ؛ ويَجِدُ صَدِيقَ عُمْرِهِ "عصام" ، وذات مَسَاءٍ أَذَّنَ المُؤذنُ لصِلَاةِ العِشَاءِ وتَقَدَّمَ "عبدالرحمن" ليَؤمَّ المُصَلِّين.

انتبه "عصام"على صوتِ "عبد الرحمن"، وهو يقرأُ القرآنَ في الصَّلَاةِ ؛ فنهض واقفًا في مكانِهِ؛ وأُذُنَاهُ تترَّصَدُ صَوْتَهُ، وفي تلك اللحظةِ فقط أَيْقَنَ أَنَّهُ سَمِعَهُ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، وحتَّى الآنَ ليس بمَقْدُورِهِ نِسْيَانِهِ .

قَبْلَ عِدَّة أعوامٍ مَضَتْ في ذلك اليوم الذى سَمِعَهُ فيه في صَلاةِ الفَجْر .

ذلك اليوم بشُرُوقِهِ البديعِ كانتْ فَرَاشَاتُ الربيعِ تَطِيرُ، وتَحُطُّ مِنْ حَوْلِهِ ، أثناءَ عودتِهِ مِن المَسْجِدِ إلى بيتِهِ كانتْ تَطِيرُ، وتَحُطُّ هُنَا وهُنَاكَ بجوارِ البيتِ المهجورِ.

وقف مكانَهُ لا يتحرَّكُ طوالَ دَقَائقِ مَعْدُودَةٍ؛ يراقبُها وهِي تَطِيرُ، وتَحُطُّ حول البيتِ المهجورِ؛ وتَمَنَّى لو تَقَابَلَ مَعَ ذلك الطَّيْفِ المَلَائكِي الذي كان يُصَلِّي بهم؛ واختفى بَعْدَ انتهائِها .

عاد "عصـام"؛ ليسرـعَ في إنهاءِ وُضُـوئِهِ؛ ليدخلَ في الصَّـلاةِ؛ وأُذُنَاهُ تترصَّـدُ صَـوْتًا يَعْشَـقُهُ، يَتَرَنَّمُ مَعَ كُلِّ حَرْفٍ يسـمعُهُ؛ وعندما انتهتِ الصَّـلاةُ مَشِـيَا مَعًا في الطُّرْقَةِ داخلَ المدينةِ الجَامعيَّةِ في طريقِهما نَحْوَ الغرفةِ .

ومِن اللقاءِ الأَوَّلِ أَحَسَّ أَنَّهُ قَرِيبٌ منه؛ فتَقَرَّبَ إليه، وكانا طُوالَ الوقتِ لا يفترقانِ داخلَ الكُلِيَّةِ، وفي المدينةِ الجَامعيَّةِ؛ فقد كان يَتَحَدَّثُ معه، وكأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ مَعَ وَجْهٍ يَعْرِفُهُ ؛ رَآهُ في لَحْظَةٍ ثَانيةٍ مِنْ زَمَنٍ آخر .

وتَمُرُّ سَـنَوَاتُ الدِّرَاسَـةِ عَامًا بَعْدَ عَامٍ، وحُبُّهما يُسَـطِّرُ قِصَّـةَ صداقتِهما؛ ويتعاهَدَانِ ألا تُفَرِّقَهما الأَيَّامُ والسِّنون .

اقترب مَوْعِد زِفَاف "عصام" و"عبد الرحمن" يجلسُ في القطارِ بجوارِ النافذةِ، يَحْبُوه الأَمَلُ أنْ يُمَتِّعَ عينيه بتلك المناظرِ الخَلابَّةِ، ومياهِ النيلِ النقيَّةِ التي تنسابُ في يُسْرٍ ودَلَالٍ، وتلك الفُلُكُ التي تطفُو فَوْقَ صفحتِهِ تتراقصُ وتتمايلُ معها هُنَا وهُنَاكَ.

أخذ يَتَشَـمَّمُ رائحةً اعتاد أَنْ يَتَشَـمَّمَها؛ كُلَّمَا اقترب مِنْ مَحَطَّةِ الوُصُول .

هبط مِن القِطَار؛ واسـتأجر العربةَ "الحنطور"؛ واتَّجَهَ ناحيةَ قريةِ صَـدِيقِ عُمْرِهِ "عصـام "؛ ليحضرَـ حفلَ زِفَافِهِ، وما أنْ توقفتِ العربةُ عَن السـيرِ؛ حتَّى هبط منها حَامِلًا حقيبتَهُ؛ وأخذ يُهَنْدِمُ مِنْ مَلَابِسِهِ؛ واتَّجَهَ إلى الناحيةِ التي أشار إليها سائقُ العربةِ "الحنطور" .

فراشـاتُ الربيعِ كبيرةٌ وصـغيرةٌ مُلَوَّنَة بألَوْانٍ بَهِيَّةٍ، ما أبدعها!!، تطيرُ مِنْ حَوْلِهِ هُنَا وهُنَاكَ، وكأنَّهَا أطيافٌ مَلَائكَيَّةٌ تُرَحِّبُ به ثُمَّ تَحُطُّ على الأزهارِ، والأشـــجارِ، والحشـــائشِ، ثُمَّ تَطِيرُ وتَحُطُّ، واقترب مِن البيتِ؛ وأخذ يَطْرِقُهُ بيديه، وهو ينادي على صَدِيقِهِ "عصام".

لحظاتٌ قليلةٌ مَرَّتْ عليه، وهُوَ عَالِقٌ داخلَ دائرةِ الانتظارِ؛ أخـذ يلتفـتُ مِنْ حَوْلِـهِ، ويـدورُ هُنَـا وهُنَـاكَ ثُمَّ يعـاودُ الطَّرْقَ على البابِ... مَرَّة .....اثنتان .....ثلاث مرات؛ وهُوَ يُنَادِي على صَـــدِيقِهِ "عصـام"؛ حتَّى يَأسَ؛ وشَرَعَ يهبطُ درجاتِ السُّـلَّمِ؛ وجد نَفْسَـهُ عَالِقًا تَائِهًا؛ وكأنَّ هناك شَـــيئًا خَفِيًّا يدفعُهُ إلى الدخولِ؛ وأخذتْ خُطُواتُهُ تَتَّجِهُ مَرَّةً ثَانِيةً نَحْوَ البابِ .

عاد على صوتِ صَدِيقِهِ "عصام "؛ وهُوَ يُنَادِي عليه مِنْ بَعِيد .

حمل حقيبتَهُ؛ واتَّجَهَ إلى الناحيةِ الأخرى مِنْ ذلك البيتِ؛ وكَأنَّ هناك شَيئًا يدفعُهُ إلى العودةِ إلى ذلك البيتِ .

ومشيا سَوِيًا؛ وتَجَاذَبَ كُلٌّ منهما أطرافَ الحديثِ، وهكذا فجأةً مِنْ دُونِ مُقَدِّمَاتٍ أخبره "عصـام "عَنْ قِصَّـةِ هذا البيتِ؛ وكيف تركَهُ أصْحَابُهُ مهجورًا مُنْذُ فترةٍ طويلةٍ؟!

عندما فَرُّوا مِن القريةِ فِي لَيْلَةٍ حَالِكَةِ الظلامِ؛ لَمْ تشهدْها القريةُ مِنْ قَبْلُ، تَحْتَ وَابِلٍ مِنْ طلقاتِ البَنَادِقِ والرُّصَـــاصَـــاتِ التي كانتْ تُمْطِرُها البَنَادِقُ على القرية ؟!

لَمْ يَنَمْ ليلتَها؛ وأخذ يَتَقَلَّبُ في فِرَاشِهِ يتذَكَّرُ؛ ويستحضرُ كُلَّ ما سَمِعَهُ عَنْ ذلك البيتِ المَهْجُورِ .

ولِمَ لَا؟!؛ وهُوَ يَتَشَمَّمُ رَائِحَتَهُ؛ كُلَّمَا فتحتْ جَدَّتُهُ صُنُدوقَها الخَشَبِي!!

في الصَّبَاحِ الباكرِ قادتْهُ قَدَمَاهُ إلى هُنَاكَ حَيْثُ الفراشاتِ؛ وجد نَفْسَهُ هُنَاكَ؛ وأخذ يَتَحَسَّسُ جُدْرَانَ البيتِ؛ ويتَشَمَّمُها؛ وشعر بوَحْشَةٍ غَرِيبةٍ .

عاد على صَوْتِها، وهِيَ تُنَادِيهِ على استحياءٍ؛ تُخْبِرُهُ بأنَّ الجَمِيعَ في انتظارِهِ على الفُطُور .

تَبَدَّدَتِ الوَحْشَةُ منْ دَاخِلِهِ ما أنْ رآها؛ وعَادَتِ السَّكِينةُ إلى فُؤَادِهِ؛ ومَشِيَا مَعًا وَسْطَ الزُّهُور وفراشاتِ الربيعِ تَطِيرُ وتَحُطُّ مِنْ حَوْلِهم؛ وتَجَاذَبَا الحَدِيثَ، وكأنَّهُ يَعْرِفُها، أو رَآهَا مِنْ قَبْلُ .

لحظاتٌ قليلةٌ كانتْ كافيةً لتُصَدِّرَ له السَّعَادَةَ والسَّكِينَةَ، واسترسلا في الحديثِ بشَغَفٍ غَيْر معهودٍ، وهِيَ تَقُصُّ ما سمعتْهُ مِنْ جَدَّتِها عَنْ قِصَّةِ أهلِ هذا البيتِ المهجورِ؛ وكيف أنَّ الثَّأْرَ حَوَّلَ الأصدقاءَ وأبناءَ العُمُومَةِ إلى أعداءٍ يَتَرَبَّصُ كُلٌّ منهما بالآخَر .

وعَنْ ذلك الطَّيْفِ المَلَائِكِيّ الذي كانتْ تَرَاهُ على سطحِ البيتِ المهجورِ ثُمَّ استحضرتِ ابتسامتُها؛ وانزوتْ داخلَ البيتِ، وهُوَ مِنْ ورائِها .

همستْ إليه :

-"رَأَيْتُكَ مِنْ قَبْلُ في طفولتِي ، صِبَاي ، شَبَابِي ، أَحْلَامِي ، مَنَامِي ، يَقَظَتِي، كنتُ أنتظرُكَ طَيْفًا مَلَائِكِيًا تأتِي في الرَّمَقِ الأَخِيرِ مِن اللَّيْلِ ؛ تَتَحَسَّسُ جُدْرَانَ هذا البيت، وتدورُ مِنْ حَوْلِهِ مُرْتَدِيًا جِلْبَابَكَ الأبيض ثُمَّ ما تلبثُ أَنْ تختفي؛ فجأةً ظننتُها أضغاثَ أحلامٍ تُرَاوِدُنِي؛ حتَّى وَجَدْتُ جَدَّتِي تَقُصُّ عَنْ ذلك الطَّيْف المَلَائِكِي الذي تشاهده يَحُومُ حَوْلَ هذا البيتِ؛ فرَاوَدُنِي الأملُ مِنْ جَديدٍ؛ فأنتظرتُكَ؛ وطال الانتظارُ... أيَّام ... شُهُور ... سِنُون، أنتظرتُكَ طويلًا؛ حتَّى تَمَكَّنَ اليأسُ مِنِّي؛ وظننتُكَ حُلْمًا عَابِرًا سقط مِنْ مُخَيلَتِي؛ حتَّى رَأَيْتُكَ الآنَ تَتَحَسَّسُ جُدْرَانَ البيت، وتدورُ مِنْ حَوْلِهِ مِثْلَ تلك الفَرَاشَاتِ ".

وفي لحظةٍ نبض قلبيهما؛ ودَقَّا بقُوَّةٍ؛ ومُنْذُ تلك اللحظةِ وقَدَمَاهُ تُقُودَانِهِ إلى حَيْثُ هِيَ؛ يَتَمَنَّى أنْ يُكَلِّمَها، وكانتْ كُلَّ أَمَانِيهِ أنْ يَرْتَبِطَ بها؛ وكان ذلك بَادِيًا بشكلٍ غير عادي في نظراتِ العُيُونِ القَلِقَة، وتَعَابِير الوجهِ المُتَرَقِبَةِ لشَيءٍ ما .

وفي المساءِ حَيْثُ الزِّينَاتِ والأنوار، ومُكَبِّرَات الصَّوْت، وطَلَقَاتِ البَنَادِقِ ترعدُ في الهواء، وصوت المِزْمَار والطَّبْل البَلَدِي يُسِيْطِرَانِ على المكانِ .

عَلَـتِ الزَّغَـارِيـدُ؛ وابتســـمـتِ الوُجُوهُ؛ والكُـلُّ يُبَـارِكُ العُرْسَ المَيْمُونَ، وما إن انتهتْ سَـاعَاتُ السَّـهْرَةِ؛ وتَسَـلَّلَ "عصـام "وعَرُوسُـهُ حتَّى جلس وَحِيدًا تُسِيْطِرُ عليه عَلَامَاتُ القَلَقِ والحِيْرَةِ .

جاءتْ جَدَّةُ "عصــام"؛ ورَحَّبَتْ به؛ وتبادلا الحَدِيثَ؛ وأدخلتْ إلى قَلْبِهِ شيئًا مِن البَهْجَةِ والسُّرُورِ .

كان يرى تلك اللحظاتِ، وتلك القريةِ بعَيْنِي طِفْلٍ صَغِيرٍ يجلسُ بينهم، وهُوَ يُحَلِّقُ بجناحيهِ الصَّـغِيرِينِ مِثْل فَرْخٍ يتلهَّفُ لأَحْضَـانِ أُمِّهِ في المَسَاءِ .

وهِيَ تنظرُ إليه مِنْ بَعِيدٍ يختلســـانِ نظرات الحُبِّ والإعجابِ ؛ وكان جَمِيلًا أَنْ يرى الحُبَّ في عينيها؛ ويرى الدِّفءَ والحَنَانَ وَسْـــطَ أُسْرَتِها وحَدِيثَ جَدَّتِها .

عاد حَيْثُ جَدَّتِهِ، وأُمِّهِ، وكُلُّهُ شَـــوْقٌ وحَنِينٌ إلى أحضـــانِهما، وحُبُّهما تملؤهُ السَّعَادَةُ .

على البابِ وَجَدَ جَدَّتَهُ في انتظارِهِ؛ أخذها بالأحضـــانِ؛ وأخذ يُقَبِّلُ يَدِيها مِنْ فَرْطِ سَعَادَتِهِ .

أخـذتْـهُ مِنْ يَـدِهِ؛ واتَّجَهَـتْ بـه نَـاحِيَـةَ حُجْرَتِهـا؛ وأدخلتْـهُ؛ وأَوْصَدَتِ البَابَ لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً؛ ساد فيها هُدُوءُ ما قَبْلَ العَاصِفَةِ .

ولَكِنْ يبدو أنَّ المرأةَ التي ذاقتْ طَعْمَ المَوْتِ؛ واشْـــتَمَّتْ رائحةَ الدِّمَاءِ مَرَّات ومَرَّات؛ أَبَتْ أنْ تتركَهُ يَعِيشُ سَعِيدًا بحُبِّه .

فتحتِ الصُّـنْدُوقَ الخَشَـبِيّ؛ وأخرجتِ البُنْدُقِيَّةَ؛ وسَـلَّمَتْها إيَّاهُ؛ وأخذتْ تَسْرُدُ له كَيْفَ قُتِلَ أبوه؛ ووَقَفَ مِنْ أمَامِها مَمْسِكًا بُنْدُقِيَّةَ أبيه غَارِقًا في بَحْرٍ مِن الذُّهُولِ؛ مِنْ هَوْلِ الفَاجِعَةِ؛ وانتفض جَسَـدَهُ؛ وأخذ يُرَاقِبُ حَرَكَاتِ الشِّفَاهِ ؛ ويمعنُ النَّظَرَ فيها؛ وترك كُلَّ مَا حَوْلَهُ؛ وذهب يَسْمَعُ صَوْتَ أَنِينِها .

إنَّهُ كالذي يُفَكِّرُ في المفاضـــلة ما بين المَوْتِ والمَوْتِ؛ تبادرتْ هذه الأفكارُ إلى ذِهْنِه سَرِيعًا؛ وبدأ يستجمع قُوَاهُ؛ ويتَّخِذُها زَادًا وعَتَادًا له في رِحْلَتِهِ؛ وانتظر دقيقةً ..... دَقِيقَتِينِ ..... ثلاث دَقَائِق؛ وأمسـك بالبُنْدُقِيَّة؛ وأخذ يَحْشُوها بالرَّصَاص .

فتحتِ الأُمُّ البَابَ؛ ودخلتْ على غَيْرِ عَادَتِها؛ وقَاطَعَتْهُ؛ وجَذَبَتِ البُنْـدُقِيَّـةَ مِنْ بين يَـدِيـهِ؛ حـدث كُلُّ ذلـك بوَتِيرةٍ سَرِيعـةٍ مُفَـاجِئـةٍ؛ وقَاطَعَتِ الجَدَّةَ؛ ووجد نَفْسَـــهُ وَاقِفًا ما بين رِضَـــاء أُمِّهِ وجَنَّة حُبِّهِ، ورِضَاء جَدَّتِهِ ونار الثَّأْرِ والانْتِقَام.

لحظاتٌ قليلةٌ وجد نَفْسَـــهُ وَاقِفًا فيها فَوْقَ حُلْمِهِ؛ يرى ظَلَامًا حَالِكًا أتَى مِنْ بَعِيدٍ مِنْ خَلْفِ الغُيُوم .

حاولتِ الأُمُّ كَشْـــفَ الغَمَامَةِ عَن العُيُون التي مَزَّقَتْها العاداتُ والتَّقَالِيدُ القديمةُ البَالِيَةُ؛ وكان لمَرَارَتِها في الحَلْقِ أَسًى عَمِيقًا مصحوبًا بالتَّنْهِيدَاتِ، والإحباط، ورُبَّمَا اليأس .

حاولتِ الأُمُّ سُـدَى أنْ يكونَ للجَدَّةِ مِن الشَّـجَاعَةِ ما تجعلها أنْ تتراجعَ؛ وتتأقلمَ مَعَ الحياة على الرَّغْمِ مِمَّا فيها مِنْ مَصَائِبَ وآلامٍ كثيرةٍ

؛ وأنْ تختارَ الحياةَ بَدَلًا مِن بُحُورِ الدَّمِ وسُـيُولِهِ التي سَـتَسِـيلُ بِلَا تَوقُّفٍ، وبلا نِهَايَة!!

ظَلَّتْ صَـامِدَةً؛ وقاومتْ كَثِيرًا؛ فهِيَ مَنْ زَهَدَتِ الرِّجَالَ مِنْ أَجْلِ وَلَدِها .

ويبدُو، وإنِ اسـتسـلمتِ الجَدَّةُ لكَلَامِها وتَوَسَـلاتِها، إلا أنَّهُ يبدُو أنَّهَا تُضْـمِرُ شَـيئًا ما؛ وجَذَبَتِ البُنْدُقِيَّةَ مِنْ بين يَدِي الأُمِّ؛ وأعادتْها إلى داخل صُنْدُوقِها الخَشَبِيّ.

وظَلَّلَتْ غَمَامَاتٌ على ذلك البيتِ الذي طالما وُجِدَت فيه السَّعَادَةُ، وجلس "عبد الرحمن" وَحِيدًا مُنْزَوِيًا لا يُكَلِّمُ أَحَدًا؛ أيَّامٌ قَلِيلَةٌ مَرَّتْ، والكآبةُ تسيطرُ على مَنْ في البيتِ .

ذهبتْ إليه أُمُّهُ تُوَاسِيهِ في وِحْدَتِهِ؛ وأخذتْ تَضُمُّهُ إلى صَدْرِها؛ وطلبتْ مِنْهُ أنْ يَذْهَبَ إلى صَـدِيقِهِ "عصـام"؛ لَعَلَّهُ يُخْرِجُهُ مِنْ جَوِّ الكآبةِ والحُزْن .

مَرَتِّ الأيَّـامُ والسُّـكُونُ يَمْلأُ جَنَبَـاتِ البيـت؛ والأُمُّ والجَـدَّةُ يَتَجَرَّعَانِ مَرَارَةَ الأَلَمِ والحِرْمَان .

ووَسْـطَ تلك الغَمَامَة التي أخفتْ عَن العُيُون قُرُونًا طَوِيلَةً تَنَاقُضَـاتِ الوَاقِعِ وحَقَائِقَ الحَيَاةِ؛ رَجِعَتِ الأُمُّ إلى البيتِ؛ وأخذتْ تَبْحَثُ عَن الجَدَّةِ هُنَا وهُنَاكَ.

سألتِ الخَادِمَةُ عنها؛ أخبرتْها بأنَّهَا اسْتَقَلَّتِ السَّيَّارةَ، وبصحبتها "كنعان" ومعه بُنْدُقِيَّتُهُ، وبيَدِها بُنْدُقِيَّة أخرى .

هَرَوَلَتِ الأُمُّ إلى حُجْرَة الجَدَّةِ؛ وفتحتِ الصُّـــنْدُوقَ الخَشَـــبِيّ؛ ساعتها أدركتْ أنَّ الجَدَّةَ في طريقِها إلى البَلْدَةِ القَدِيمَةِ .

أسرعتْ تُهَرْوِلُ مِنْ خَلْفِها بسَـيَارَةٍ أخرى؛ والأَمَلُ مِنْ أمَامِها ظَلَّ متوهجًا بضَوْئِهِ الخَافِتِ مِنْ بَعِيد .

وعلى الطريق سَـــيَارةُ الجَدَّةِ تُسَـــابِقُ الرِّيْحَ؛ ومِنْ خَلْفِها على مَسَافَةٍ غير بَعِيدَةٍ تُلَاحِقُها سَيَارَةُ الأُمِّ .

وقفتِ الجَدَّةُ في رُدْهَةِ البيتِ أَمَامَ صُـورَةٍ يحتويها بِرْوَاز فِضِّي- اللونِ تَرَاكَمَتْ عليه الأتربةُ، ونُسِجَتْ مِنْ حَوْلِهُ خُيُوطُ العنكبوتِ .

أَحَسَّـتْ بالمَرَارَةِ والأَسَى؛ وأخذتْ تمسـحُ بيديها الأتربةَ؛ وتُزِيلُ آثارَ خُيُوط العنكبوتِ مِنْ حَوْلِها؛ وأخذتْ تَتَحَسَّسُ الصُّورَةَ .

عادتْ على صوتِ أُخْتِها جَدَّة "عصام"؛ وهِيَ تَتَوَسَّلُ إليها بعد ما رَأَتِ الشَّرَرَ يتطايرُ مِنْ عَيْنِيها؛ وهمستْ اليها :

-"أُخْتِي، الحِيّ أَبْقَى مِن الميت، أَرْجُوكِ لا تَقْسِ عَلَيَّ؛ كفانا مِنْ سِنِين البُعْد والحِرْمَان ، وبُحُور الدِّمَاء التي تضربُ بأمَوْاجِها مَنْ حَوْلِنا؛ ولنتركْ أَخْطَاءَ المَاضِي؛ حتَّى يعيشَ أَحْفَادُنَا في سَلَام!!"

حاولتْ؛ ولَمْ تُفْلِحْ محاولاتُها؛ فلقد عَمَيتِ البصـــيرةُ؛ وزاغتِ الأبصارُ؛ وسَيْطَرُ الغضبُ على قلب الجَدَّة .

-"أختاه أنا مَنْ أغلقتْ بَابَ دَارِكم؛ وحافظتْ عليها وعلى أَرْضِكم طوال كُلِّ تلك السَّـــنَوَات ، أنا مَنْ حَمِلَتْ وَلَدَكِ؛ وهُوَ مُغْمَى عليه مُدَرَّجًا في دِمَائِهِ؛ وأسرعتُ أَهِيمُ بعربتِنا "الكارو" إلى المستشفى؛ قَبْلَ أَنْ أُحْضِرَ "الدَّايَة"؛ فزَوْجَةُ وَلَدِي قد حانتْ لحظةُ ولادتِها"

-"أنا مَنْ أســـعفتْ وَلَدَكِ؛ ووَقَفْتُ عَاجِزَةً أمَامَ وَلَدِي، وهُوَ مُدَرَّجٌ في دِمَائِهِ، وكأنَّ المَوْتَ مكتوبٌ على كُلِّ أبْنَائِي؟!؛ وعُدْتُ على صَرَاخَاتِ توأم وَلَدِي: "عصام" و"عفاف"

-"عصام صديقُ حَفِيدِكِ عبد الرحمن؛ عرفتْهُ مُنْذُ أَنْ رَأَيْتُهُ أَوَّل مَرَّة، وهُوَ يَحُومُ حَوْلَ دَارِكم يَتَحَسَّـسُـها بيَدِيهِ؛ ظننتُهُ لوَهْلَةٍ أَنَّهُ ذلك الطَّيْفُ المَلَائِكِيّ الذي كَثِيرًا ما رأيتُهُ يَحُومُ في المَسَاءِ حَوْلَ دَارِكم، وكأنَّهُ يحرسُها حتَّى جَاءَ به حَفِيدِي عصام ."

-"عرفتُهُ مِنْ نَبَرَاتِ صَـــوْتِهِ، مِنْ نَظَرَاتِ عَيْنِيهِ ؛ حتَّى نَظَرَاتِ حُبِّهِ لحَفِيدَتِي "عفاف" أدركتُها، رَأَيْتُ الحُبَّ يملأُ قَلْبَهُ؛ ووَجَدْتُ حَفِيدَتِي كذلك؛ فَرِحْتُ؛ وعَلِمْتُ أنَّ بُحُورَ الدَّمِ آنَ لها أَنْ تتوقفَ!!"

-"أختاه ،لا تَقْسِ عَلِيَّ!!".

دخلتِ الأُمُّ تَتَوَسَّـــلُ إليها هِي الأخرى؛ رَمَقَتْها بنَظَرَاتِها الحَادَّةِ؛ وضَاعَتْ كُلُّ مُحَاوَلاتِها وَسْطَ العاصفةِ؛ وتتابعُ جَدَّةُ "عبد الرحمن" مَشْيَها إلى الداخل، غَيْر عَابِئَةٍ لمصدرِ الصوتِ، مُوحِيةٌ لكُلِّ مَنْ حَوْلِها أَنَّهَا لا تسمعُ؛ فقدتْ حَاسَّةَ السَّمْعِ هَارِبَةً مِن النَّصَائِح والتَّحْذِيرَاتِ

التي تلاحقُها؛ تُسْرِـعُ خطاها، تَعْدُو كمَنْ يَرْكُضُ؛ وما زَالَتِ الأَصْـوَاتُ تتابعُها؛ تلتصقُ بها؛ وتَتَحَوَّلُ النِّدَاءَاتُ إلى تَوَسُّلاتٍ ورَجَاء .

وكأنَّ ما يحدثُ في هذا الليل الغريب، لَمْ يَكُنْ ليتَوَقَّعَهُ أَحَدٌ؛ وظَلَّتْ تلك الغَمَامَاتُ تدورُ، وتدورُ مِنْ حَوْلِهم كدَوَّامَةٍ ليس لها قَرَار .

كُلُّ ذلك و"عبد الرحمن" لا يعرفُ حَقِيقَةَ قَاتِلِ وَالِدِهِ؛ ومِمَّنْ كان عليه أَنْ يأخذَ بالثَّأْرِ مِنْهُ .

لَمْ يَكُنْ لـ "عبد الرحمن" رَغْبَةً في تناول طَعَامِ العَشَاءِ بَعْدُ.

ترك كُلَّ شِيءٍ في مكانِهِ؛ واتَّجَهَ نَاحِيةَ بابِ الدَّارِ، ومِنْ خَلْفِهِ "عصام" يُنَادِيهِ؛ يستجديه أَنْ يتناولَ مَعَهم طَعَامَ العَشَاء؛ أَبَى؛ فتَبَعَهُ "عصام".

جلسا تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ بجوارِ السَّاقِيةِ القَدِيمةِ يسترسلان الحَدِيثَ ، والسِّرُّ ـ الرَّهِيبُ قد انبلج مِنْ رَحِمِ الظُّلْمَةِ؛ وذاب في سُكُون المكانِ مِنْ حَوْلِهما .

-"ماذا يُرِيدُون مِنَّا ؟!"

-"أسمعُ خَلَجَاتِ ما تُشْبِهُ الصَّدَى تَمُوجُ بجَسَدِي تَحْتَ عِظَامِي : أنا لَسْتُ بدُمْيَةٍ تُحَرِّكُها أَصَابِعُ جَدَّتِي"

وبينما هُمَا على هذا الحال لَمَحَ "عبد الرحمن" بُنْدُقِيَّةً تخرجُ فوهتُها مِنْ بين عِيْدَان الزِّرَاعَات تَتَجَّهُ نَاحِيةَ صَدْرِ صَدِيقِهِ "عصام"؛ بادر "كنعان"؛ وضَـغَطَ على الزِّنَادِ؛ فارتمى على الفَوْرِ مُسْـتَقْبِلًا

طلقاتِها؛ وهُوَ يَدْفَعُ بصَدِيقِهِ "عصام "إلى الخلفِ؛ لينأى به بَعِيدًا عَنْ مَرْمَى النِّيرَانِ؛ فتُصِـيبُهُ إحداها في كَتِفِهِ؛ ويَقَعُ على الأرضِ يتألمُ مُدَرَّجًا في دِمَائِه .

ضــغطتِ الجَدَّةُ هِيَ الأخرى على زِنَادِ بُنْدُقِيَّتِها اتِّجَاه صَــدْرِ "عصــام "المُلْقَى على الأرضِ؛ فإذا برَجُلٍ مُلَثَّمٍ يرتمي مِنْ فَوْقِهِ؛ يتلقَّى الطَّلَقَاتِ النَّارِيَّةَ بَدَلًا مِنْهُ .

هَرْوَلَ الجَمِيعُ إلى حَيْـثُ صَــوْتِ البَنَـادِقِ، ورائحـةِ البَـارُودِ؛ "عصام" يحتضنُ "عبد الرحمن"؛ ويمسحُ عَنْ كَتِفِهِ آثارَ الدِّمَاءِ؛ وهُوَ يُوَاسِـيهِ ،وبجَانِبِهما الرَّجُلُ المُلَثَّمُ الذي ظَهَرَ فجأةً؛ وألقى بنَفْسِـهِ أَمَامَ طلقاتِ بُنْدُقِيَّةِ جَدَّة "عبد الرحمن"؛ يرفعُ "عصــام" اللثامَ مِنْ على وَجْهِهِ؛ ويكاد ألا يَتَذَكَّرَهُ .

-"أَلَيْسَ هُوَ؟!"

-"نَعَمْ ،هُوَ؟!".

مُنْذُ أنْ عَاهَدْتُكَ يَا صَــدِيقِي؛ وأنا أَتَذَكَّرُ ذلك الطَّيْفَ المَلَائِكِيّ المُلَثَّمَ الذي كان يُصَـلِّي بنا صـلاة الفَجْر؛ وما إن انتهتِ الصَّـلاةُ حتَّى اختفي؟!

نبراتُ صَوْتِكَ تشبهُ نبراتِ صَوْتِهِ .

قـد أكونُ قـد لَمَحْتُـهُ مَرَّات ومَرَّات بـالقُرْبِ مِنْ ذلـك البيـتِ المهجورِ، وكأنَّهُ يَتَرَقَّبُ؛ ينتظرُ؛ يبحثُ عَنْ شَيءٍ ما .

أخذتْ أقدامُ الجَدَّةِ تقتربُ وتقتربُ؛ وتدنُو بها حَيْثُ يَرْقُدُ ذلك المُلَثَّمُ؛ واقتربتْ؛ وألقتْ بالبُنْدُقِيَّةِ مِنْ يَدِيها؛ وأخذتْ تُقَلِّبُ فيه؛ وتَتَحَسَّسُهُ؛ وهِيَ تصرخُ بأعلى صَوْتِها:

-"وَلَدِي... وَلَدِي!!!".

لَعْنَةُ الغَرَاوَلَة

تامر عبد الحليم

استيقظ مِنْ نومه، ووجد على فراشه دِمَاءً؛ ولَكِنْ مِنْ أَيْنَ أتت هذه الدماء، هكذا حَدَّثَ (خنزيرة) نفسه؟!

أمضى- يومه في عمله كبلطجي على الباعة البسطاء، والذين قد افترشوا قارعة الطريق؛ لعلهم يكسبون في نهاية اليوم بعض المال البسيط؛ ليشتروا طعامًا يَسُدُّ أفواه أولادهم وزوجاتهم.

ذهب إلى فِرَاشِهِ متأخرًا كعادته، وفجأة انقطع ضوء المصباح الموجود بغرفته الكئيبةِ، ويشعرُ بيَدِينِ نَاعِمَتِينِ تَضْغَطَانِ بقُوَّةٍ على عُنْقِهِ، وفي نفس الوقت يسمع صوتَ فتاةٍ صغيرةٍ يَرِنُّ في أُذُنِيهِ:

"حاولْ أنْ تنام"

"يبدو أنَّكَ أثقلتَ مِنْ جرعة (الأس تروكس) اليوم"

"يا لك مِنْ لعين!!!".

ينتفضُ مِنْ نومه مذعورًا، وبعد دقائق تهدأُ دَقَّاتُ قَلْبِهِ؛ وتصيرُ كسُلْحِفَاةٍ بطيئةٍ تنوى الحصولَ على المَرْكَزِ الأَخِيرِ في سِبَاقٍ للجِرْي!!

يحاول النَّومَ مُجَدَّدًا؛ فلَمْ يســـتطعْ؛ وهاجمتْهُ نَفْسُ الكوابيسِ مَرَّات كثيرة.

في الصباح دخل إلى دَوْرَةِ المياهِ؛ ليَغْتَسِلَ؛ ويَجِدُ دِمَاءً تنزلُ مِنْ نِصْفِهِ السُّفْلِيّ بلا توقُّفٍ، مَرَّتْ دقيقة .... دقيقتانِ..... ثلاثُ دَقَائِق؛ توقَّفَتِ الدِّمَاءُ؟؟!!

غسل جَسْمَهُ جيدًا بصَابُونٍ مِن النوعِ الفاخرِ، ارتدى ملابسه؛ وظَلَّ يشعرُ بقشعريرةٍ لا يعرفُ مَصْدَرَها؟!

خرج إلى السُّوق؛ ليمارسَ عَمَلَهُ الوَقِحَ، ووقت العصر ذهب إلى المطعمِ الذي اعتاد الأكلَ فيه؛ فإنَّهُ يُقَدِّم وَجَبَاتٍ شَهِيَّةً.

"ماذا تطلب يا (خنزيرة) اليوم؟".

يَحِكُّ ذَقْنَهُ للحظاتٍ؛ ويبتســـمُ للعَامِلِ؛ ويقول له في صَـــوْتٍ أَجَشٍّ:

-"طبق خُضَار مِشَكِّل، ورُز، ورُبْع فَرْخَة مَشْوِيَّة، وسَلَطَة".

-"تمام ربع ساعة؛ ويكون الأكل جاهز".

مَرَّت الدقائقُ، ويدخل العاملُ حاملًا الصَّـينِيَّةَ التي تحملُ وجبةَ (خنزيرة)، وبدأ (خنزيرة) يأكل من الطعام الشَّـــهِي الموضـــوعِ على طَاوِلَتِهِ؛ وعندما وضع المِلْعَقَةَ في طَبَق الخُضَار المِشَكِّل؛ وجد بَعْضَ الدِّمَاءِ بدلًا مِنْ صَلْصَلَة الطَّمَاطِم؟!

فِي عَصَبِيَّةٍ شَدِيدَةٍ: "مين ..... اللي حَطْ لي دَمْ في الخُضَار؟!"

يهرولُ العاملُ نَحْوَهُ بسُرْعَةِ القِطَارِ: "مستحيل؛ كيف ذلك؟!".

يحضر صاحبُ المَطْعَمِ مسرعًا؛ ويقولُ لـ (خنزيرة) في هُدُوءٍ:

"لو كان ما قُلْتُهُ صَحِيحًا؛ لأَعْطَيْتُكَ (500) جنيه فورًاااااا".

أمســـك طَبْقَ الخُضَـــار، وكانتْ هناك مِلْعَقَةٌ في يَدِهِ؛ وتذَوَّقَ الخُضَارَ؛ ثُمَّ نظر في سُخْرِيةٍ إلى (خنزيرة):

"يبدو أنَّكَ أخذتَ جرعةً زائدةً مِن.....!!"

يقفُ لحظاتٍ طويلةً لا يدري ماذا حدث له ؟!؛ وتحَوَّلَ صـوتُهُ الأَجَشُّ والذي يشـــبهُ صَـــوْتَ الحِمَارِ، إلى صـــوتٍ رقيقٍ كصَـــوْتِ الحَمَامَةِ!!

يضعُ رَأْسَهُ في الأرضِ؛ وقال لصَاحَبِ المَطْعَمِ:

-"أنا آسف".

دخل إحدى البنايات الخَرِبَة التي تُشْـبِهُهُ؛ وأخرج سـيجارةً مِنْ نوع "مهرجان السـعادة" ؛ وشربُ أنفاسًـا منها؛ وشـعر كأنَّهُ مُمْسِـكٌ بالسَّحَابِ والنُّجُومِ بين يديه!!

وجد نَفْسَـــهُ داخلَ المَقَابِرِ؛ وإذا بشـــبحٍ مُخِيفٍ يهجمُ عليه؛ ويمسكُ بِهِ مِنْ ظَهْرِهِ؛ ويَلْوِي عنقَهُ:

"مَنْ أنْتَ؟!"

"ألا تَعْرِفُنِي يا (خنزيرة)؟!"

في رُعْبٍ:

-"لا ..لا أَعْرِفُكَ؛ والعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ كُلِّ جَسَدِهِ؟!"

-"أنا عَمَلُكَ الأَسْوَدُ؛ أنسيتَ ما فعلتَ بـ (سلمى) مُنْذُ عَامٍ؟!".

يسكت بُرْهَةً مِن الزَّمَن؛ ويَتَذَكَّرُ ما حَدَثَ مِنْهُ.

فتاةٌ عُمْرُها حوالي تسع سنواتٍ، كانتْ نائمةً في إحدى الخراباتِ، أشهر مطواتَهُ في وَجْهِها؛ وقال لها:

"ستعملينَ لحِسَابِي؛ أَنْتِ تتسولِينَ؛ وأنا أحْمِيكِ؛ وفي نهايةِ اليومِ أُعْطِيكِ بعضَ المالِ، وأيضًا بَعْضَ الطعامِ، ومِن المُمْكِنِ أشياء أخرى!!".

لمعتْ عَيْنَاهُ نَحْوَ جَسَدِها الجَذَّابِ؛ وقال لنَفْسِهِ:

-"قطعة مِن الفراولةِ الحُلْوة!!".

ظَلَّتْ هكذا عِدَّة أسابيع، وفي نهاية كُلُّ يومٍ يُعْطِيها عشرةَ جُنَيْهاتٍ؛ ويطعمُها عِدَّةَ أرغفةٍ مِن الخُبْزِ، وقطعةً مِن الجُبْنِ الرَّدِيء، وحَبَاتٍ مِن الزَّيْتُونِ الأَسْودِ؛ والذي يتلاءمُ لونُهُ مع مستقبلِها؛ فلا شَهَادةً معها، ولا أُسْرَةً، ولا مَنْزِلًا تعيش فيه!!

-"ما المانع؟!"

-"فتاة صغيرة؛ ولَنْ تَقْدِرَ على مُقَاوَمِتِكَ!!"

على غَيْرِ عَادَتِهِ يبتسمُ كالذِّئْبِ المَاكِرِ:

-"تحبي تشربي عَصِير فراولة؟".

نظرتْ نَحْوَهُ باستغرابٍ:

- "طبعًا ".

المسكينةُ رَاحَتْ في سُبَاتٍ عَمِيقٍ؛ لأَنَّهُ وَضَعَ لها أَقْراصًا مُنَوِّمة في العصـــير، وحشٌ كَاسِرٌ سَـــلَبَها أَعَزَّ ما تملكُ؛ وأزال مَعَالِمَ جريمتِهِ جيدًّا.

تشـــعرُ ببَعْضِ التَّعَبِ؛ وأخـذتْها إحـدى الفتيات مِنْ طينتِها؛ وذهبتا إلى المستشفى؛ والطبيبُ قال للفتاة الأخرى في حُرْقَةٍ:

-"لقد اعتدى عليها أَحَدُ الذِّئَابِ؟!"

يشعر (خنزيرة) بالشَّبَحِ الأَسْوَدِ يَهِزُّهُ هِزَّةً عَنِيفَةً؛ ويقولُ له:

-"ستَظَلُّ اللَّعْنَةُ تُطَارِدُكَ يَا .....".

وفجأةً يظهرُ كلبًا ضخمًا، وله أنيابٌ كالثُّعْبَانِ؛ ويهجمُ عليه.

قَضَمَ قِطْعَةً مِنْ .....

الرُّفَاتُ السَّادِسُ

سامي علوان

على باب تلك المقبرة وقفتُ أَتَذَكَّرُ رَحِيلَهم؛ تَدْفَعُنِي المشـــاعرُ والذكرياتُ إلى البكاءِ في صَمْتٍ؛ فكُلُّ الذكرياتِ التي كانتْ لَمْ يَبْقَ شَيءٌ منها سِوَى نَظَرَاتِ حُزْنٍ دَفِينٍ .

في الأمسِ القريبِ تَحَوَّلَتْ الأمطارُ الغزيرةُ إلى سَـــيْلٍ جَارِفٍ كاد أَنْ يأخذَ المقبرةَ؛ وهُوَ يرتطمُ بها في طريقِهِ إلى النَّهْرِ؛ وصَـــدَقَ حَدْسُ جَدِّي حينما طلب مِنِّي أنْ أطمئنَ عليها .

-"عزمتُ على إصـــلاحِها وتجديدِها؛ فهِيَ بَيْتٌ لا بُدَّ لنا وأَنْ ندخلَهُ"

-"أمســـكتُ بـالمِعْوَلِ؛ وأخـذتُ أُزِيحُ بَقَـايـا الجَصِّ مِنْ على حِجَارَتِها المُتَهَالِكة ؛رويدًا رويدًا حتَّى انتهيتُ؛ وفتحتُ بَابَها؛ وانزويتُ نَازِلًا سُـــلَّمَها حَيْثُ يَرْقُدُ أَجْدَادِي مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ؛ أخذتُ أُزِيلُ آثارَ الأتربةِ والغُبَارَ مِنْ على وَجْهِي ؛وأنـا أَتَحَسَّـــسُ طَرِيقِي حَيْثُ رُفَاتِ أَجْدَادِي، وكأنَّ الزَّمَانَ لحظتُها قد تَوَقَّفَ ؛وأخـذَ يتراجعُ مِنْ حَوْلِي؛ ويزلزلُ كَيَانِي؛ ولَمْ تَعُدْ عَيْنَاي تبصر ـان سِـوَى الرُّفَاتِ المُتَرَاصَّـةِ على أرضيةِ المقبرة".

-"وقفتُ أمَامَها غَارِقًا في بَحْرٍ هادئٍ مِن السَّــكِينةِ والسُّــكُون؛ أعتذرُ لهم عَنْ إزعَاجِي لهم بصَــوْتِ ارتطام المِعْوَلِ بالحِجَارَةِ، وكأنَّنِي أيقظتُهم مِنْ سُبَاتٍ عَمِيقٍ!!

كُلُّ مَشَــاعرِي وحَوَاسِ جَسَــدِي انتفضــتْ لها؛ فجأةً في لحظةٍ واحدةٍ بدُونِ سَــابِق إنْذَارٍ، وكَأنَّ للمكان قُدْسِــيَّةٌ خَاصَّــةٌ ؛ وعَيْنَاي تُمْعِنَانِ النَّظَرَ فيها؛ وأُذُنِي تركتْ كُلَّ مَنْ حَوْلِي؛ وذهبتْ لتســتمعَ إلى صَمْتِها ."

-"شعرتُ لوَهْلَةٍ قَصِيرَةٍ أنَّ إحْسَاسِي يرسلُ عباراتِها الصَّامِتَةِ إلى وُجْدَانِي وأعماقي".

-"ألقيتُ عليهم السَّـلامَ ؛ شـعرتُ بقشـعريرةٍ خَفِيفةٍ تَسْرِي في جَسَــدِي؛ تَذَكَّرْتُ حينها حَدِيثَ جَدِّي؛ حينما طلب مِنِّي أَنْ أذهبَ حَيْثُ مقبرةِ الأجدادِ؛ وأطمئنَ عليها؛ وأُبَلِّغَ سَـلامَهُ لهم؛ فهُوَ الذي أثار اهتمامِي؛ ودَفَعَنِي إلى الذهابِ حَيْثُ أنا الآن ؟!"

-"استشـعرتُ سَـاعَتَها فقط أُنْسَـهم وفَرْحَتَهم بوُجُودِي؛ أدركتُ وقتَها أنَّ هناك نَوْعًا مختلفًا مِن السَّــكِينةِ؛ لَكِنَّنِي لا أعرفُهُ على الرَّغْمِ مِنْ أنَّهـا على الأَرْجَحِ تتراوحُ بين الموتِ والعَـدَمِ، وكـان لهـا القُـدْرَةُ العَجِيبةُ على التَّغَلْغُلِ دَاخِلَ أَعْمَاقِي؟!"

-"أخذتُ أَتَحَسَّــسُــهم؛ وألملمُ العِظَامَ في رُكْنِ المقبرة الشرـقِي، وكان لحَدِيثِي الصَّامِتِ معهم شُعُورٌ آخر .

لحظاتٌ قليلةٌ أخذتْ أُجَمِّعُ فيها عِظَامَ أَجْدَادِي بكُلِّ شَـــغَفٍ وحَنِينٍ يَشُــوبُهُ الدِّقَةُ والحَذَرُ، وكَأَنَّنِي أَتَحَسَّــسُ وُجُوهَهم؛ وأراهم مِنْ أمَامِي وَاحِدًا تلو الآخر؛ يغمرُنِي خُشُوعٌ لَمْ أعهدْهُ مِنْ قَبْلُ ؟!"

-"ساعتُها لَمْ أَحِسَّ بالوَحْشَـةِ أو الغُرْبَةِ؛ وأخذتُ أَتَذَكرَّ حِكَايَاتِ جَدِّي عنهم؛ حتَّى عرفتِ العَبَرَاتُ طَرِيقَها إلى أرضيةِ المقبرةِ.

ولِمْ يَعُدْ لَدِيَّ إلا الرَّغْبَة في البَوْحِ بمَكْنُون جَمٍّ مِن المَشَـــاعرِ والأحَاسِيسِ لذلك القَرِيب البَعِيد؛ والذي كان أقربُ ما يكونُ إلى الرَّوْح في تلك اللحظة.

قد اختلفتْ صُــوَرُهم في المَاضِي عَنْ تلك اللحظةِ؛ حتَّى أنَّنِي فقدتُ التَّمْييزَ بينهم تَمَامًا؛ ووقعتُ في شِبَاكِ الحِيْرَةِ والقَلَقِ؟!"

-"خرجتُ أستجمعُ بَعْضَ مِنْ قُوَايَ التي كادتْ ألا تُسَاعِدَنِي على إكمال مُهَمَّتِي؛ ومسحتُ العَرَقَ الذي أخذ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبْهَتِي؛ وعدتُ أُجَمِّعُ مَا بَقَى مِنْ عِظَامِهم مِنْ جَدِيدٍ؟!

فجأةً تَجَمَّدَتِ الدِّمَاءُ في عُرُوقِي؛ وسَرَتْ في جَسَـــدِي رعشـــةٌ خَفِيفةٌ؛ وأخذ العَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَدِيدٍ؛ حينما أبصرتُ.....

كانتْ رُفَاتٍ!!

وتبادرتْ إلى مُخَيلَتِي الهواجسُ، والظنونُ، والأفكارُ؛ وعرفتِ التَّسَاؤُلاتُ طَرِيقَها إلى عَقْلِي"

-"كُلُّنَا يعرفُ أنَّ المقبرةَ بها رُفَاتُ أَجْدَادِي الخمســـة؛ فلِمَنْ إذًا الرُّفَاتُ السَّادِسُ؟!

علاماتُ اســـتفهامٍ تداعتْ أَمَامَ مُخَيلَتِي؛ سَرِيعًا يَحْتَوِيها بُرْكَانٌ خَامِدٌ تكتنفُهُ حِمَمٌ تَغْلِي فِي دَاخِلِهِ.

فِي تلك اللحظاتِ تواردتْ عَلِيَّ الرؤى؛ ووجدتُ نَفْسِيـــ عَالِقًا؛ ووقفتُ سَاعَتَها لا أعرفُ ماذا أفعلُ غَيْرَ الوقوفِ فِي صَمْتٍ؟!

لحظاتٌ قليلةٌ تتصارعُ فيها المَشَاعِرُ والأَحَاسِيسُ؛ وأنا ما زِلْتُ أتأرجحُ فِي مكانِي!!"

-"حاولتُ الصُّرَـــاخَ إلا أنَّنِي وجدتُ أنَّ مُجَرَّدَ الصُّرَـــاخِ لَمْ يَكُنْ ليُقَدِّمَ أو يُؤخِّر شـيئًا فيما أنا عَالِقٌ فيه على الإطلاق؛ وليس بمَقْدُورِي شَيءٌ!!

حاولتُ الصُّمُودَ!!

حاولتُ الحديثَ معهم؛ ولَكِنْ ضَاعَتْ كُلُّ مُحَاوَلاتِي سُدَى؛ فما كان مِنِّي إلا أنْ توقَّفتُ؛ لألتقطَ الأَنْفَاسَ بعد أنْ غَيَّمَتْ مِنْ حَوْلِي عَجَائِبَ رائحةِ الموتِ، فِي عَالَمِ الأَسْرَارِ حَيْثُ يَرْقُدُ أَجْدَادِي!!"

-"لَمْ يُخْبِرْنِي أحدُهم بشَيءٍ ،أو أومأ لِي بشِيءٍ؛ حتَّى اختلطتْ عَلِيَّ الأمورُ ؛ فلَمْ أَعُدْ أَدْرِى أيُّهم رُفَاتُ أَجْدَادِي الخمسةِ ؟!

وقعتُ في حِيْرَةٍ شَـــدِيدَةٍ؛ وعدتُ أســـألُهم وَاحِدًا تلو الآخر؛ والرُّفَاتُ جَمِيعُها لا ينبئون بشِيـــءٍ؛ ووقعتُ كمَنْ وَقَعَ ما بين القَبْضِ على الجَمْرِ، والقَبْضِ على الجَمَرِ؟!"

-"تملكتْنِي رعشـــةٌ خَفِيفةٌ أخذتْ تَسْرِي وتَسْرِي في جَسَـدِي؛ أَحْسَسْتُ سَاعَتَها بوَقْعِ أَقْدَامٍ مِنْ حَوْلِي؟!

ولوَهْلَةٍ مِن الزَّمَنِ كنتُ أعتقدُ أنَّ سِرَّ الرُّفَاتِ السَّـــادِسِ ما زَالَ حَبِيسَ تلك المقبرة ؛فلَمْ يَكُنْ قد مضى على اكتشافِها سِوَى سُويعَاتٍ قَلِيلَةٍ؛ لَكِنَّ همهماتِ الأصواتِ في الصُّدُورِ تُسْمَعُ في هذا المكان".

كانتِ البَلَاغاتُ والأخبارُ عَن الرُّفَاتِ السَّـــادِسِ تتواردُ تِبَاعًا سَرِيعًا؛ وبسُرْعَةِ البَرْق حَيْثُ أعلن مَرْكَزُ الشُّرْطَة عَن العُثُورِ على رُفَاتِ ضَابِطِ الشُّرْطَةِ؛ والذي اختفي مِن البَلْدَةِ مُنْذُ عَشَرَاتِ السِّنِينَ داخل إحدى المقابرِ

ولِمَ لا؟!؛ وأَيُّ رُفَاتٍ يَكُونُ ؟!

تبادرتْ هذه الهواجسُ والأفكارُ جَمِيعُها دُفْعَة وَاحِدَة إلى العقولِ، في لحظةِ صَـــمْتٍ طالتْ؛ والبَاقُون مِنْ حَوْلِي لَمْ يَتَحَرَّكُوا؛ ظَلُّوا ينظرُون إليها؛ ويســـتنكرُون ما ترى أَعْيُنُهم؛ حتَّى يعودَ أحدُهم؛ ليَعُدَّ الجَمَاجِمَ مِنْ جَدِيدٍ : واحد .... اثنان ..... ثلاث ..... أربع ..... خمس..... ست .

وأنا واقع ما بين أصابع الاتِّهَام والسَّجْنِ .

فِي غُرْفَةِ الحجز أجلسُ فِي هُدُوءٍ وسَــكِينةٍ لَمْ أعهدْها؛ إلا مُنْذُ أنْ انزويتُ نازلًا سُــلَّمَ تلك المقبرة؛ أَتَذَكَّرُ الرُّفَاتِ؛ وكأنَّنِي أحادثُهم؛ أَتَكَلَّمُ معهم؛ وأســترســلُ معهم فِي الحديثِ؛ أســألُهم عَنْ هويتهم، وهَوِيَّةِ الرُّفَاتِ السَّــادِس؛ ولَكِنَّ كانتْ كُلُّ مُحَاوَلاتِي يقابلها الصَّــمْتُ؛ وكأنَّنِي أسترسلُ حديثِي مَعَ طَيْفٍ لا يفهمُ لُغَتِي وإشاراتِي؟!

عـدتُ على صــوت صَرِيرِ بَـابِ الحَجْزِ وهُوَ يُفْتَح؛ ويـدخـلُ الحَـارِسُ؛ ويقبضُ على يَـدِي؛ ويصــحبنِي مَعَـهُ للعرضِ على النِّيَابَـةِ العَامَّة .

لحظاتُ عَصِـيبةٌ مَرَّتْ عَلِيَّ كلَمْحِ البَصْرِ؛ وأنا وَاقِفٌ أمَامَ وَكِيل النِّيَابَةِ لحظة أنْ سَمِعْتُهُ يقولُ لكَاتِبِهِ :

-" يُفْرَجُ عَنْهُ بضَــمَانِ مَحِلِّ إقامتِهِ وذلك؛ لأنَّ تَقْرِيرَ الطِّبِّ الشَّرْعِي يفيدُ بأنَّ الرُّفَاتِ جَمِيعُها مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ؟!".

بقَدْرِ سَــعَادَتِي ، حِيْرَتِي ، بقَدْرِ السَّــكِينةِ التي تغمرُنِي ، بقَدْرِ شَغَفِي وحَنِينِي إلى معرفة سِرِّ الرُّفُاتِ السَّادِس !!

-"خرجتُ مسرعًا أُهَرْوِلُ ناحية المقابر؛ وكَأنَّ هناك مَنْ يَدْفَعُنِي؛ ويَسُــوقُنِي إلى حَيْثُ مقبرةِ الأجدادِ؛ وكَأنَّهَا تفتحُ أجنحتَها تَسْــتَقْبِلُنِي؛ وما إن اقتربتُ منها حتَّى انزويتُ نَازِلًا سُــلَّمَها؛ أَتَحَسَّــسُ طَرِيقِي؛ تغمرُنِي السَّــعَادَةُ؛ ويدفعُنِي الحَنِينُ إلى احتضــانِ ما تَبَقَّى مِنْ عِظَامِ أَجْدَادي.

تسبقُنِي العَبَرَاتُ؛ وتتساقطُ على أرضيةِ المقبرةِ؛ تُروِيها؛ تُرَطِّبُها مِنْ حَوْلِهم؛ أَتَحَسَّسُهم؛ وكأَنَّنِي أَنَسْتُ الرَّاحَةَ والطُّمَأنِينةَ وسَطَ الأجدادِ ؟!

وقعتْ يَدِي على سلسلةٍ مَعْدَنِيَّةٍ؛ ألتقطُها؛ ورجعتُ صَاعِدًا السُّلَّمَ؛ لِعَلِي أراها وأتَفَحَّصُها في ضوء الشمس؛ إنَّهَا سلسلةٌ معدنيةٌ مَنْقُوشٌ على أحد أجزائها عِدَّة أرقامٍ!!؛ لا يستخدمُها إلا العَسْكَرِيُّون في حالةِ الحربِ!!

لحظتُها فقط تَذَكَّرْتُ قِصَّةَ جَدِّي التي يَقُصُّها عَلِيَّ مِرَارًا وتِكْرَارًا؛ كُلَّمَا جلستُ مَعَه!!

يتذكرُها رَغْمَ ما أصابَهُ مِنْ مَرَضِ فُقْدَانِ الذَّاكِرَةِ؛ مُنْذُ أنْ داهمتْهُ أعراضُ الشيخوخةِ؛ إلا أنَّهُ يَأْبَى أَنْ يفقدَها "!!.

كثيرًا لا يعرفُنِي؛ ويبادرُنِي بالسؤال :

-" مَنْ أَنْتَ؟!"

فأجيبُهُ؛ وأنا أبتسمُ :

- "حَفِيدُكَ يَا جَدِّي!!"

تَذَكَّرْتُها ...

حينما ركب القطارَ كعادته ذَاهِبًا إلى عمله في تلك المدينة البعيدة، تَارِكًا أُمَّهُ المريضةَ وَحْدَها في البيت؛ يحزنُهُ أنْ يتركَها مَرِيضَةً كُلَّ هذه المُدَّةِ دُوْنَ أنْ يَرْعَاهَا؛ ويُقَبِّلَ يَدِيها؛ ويَقُومَ على خِدْمَتِها .

تَذَكَّرَ أَخَاهُ الأَكْبَرُ ومِنْصِبَهُ الرَّفِيعَ في الجيشِ؛ وكيف ستَكُونُ أُمُّهُ في أَمَانٍ عِنْدَهُ، وفي ظِلِّ رعايتِه؛ فقَرَّرَ أنْ يُحَادِثَهُ في هذا الأمر؛ حينما يَصِلُ إلى عملِهِ؛ لكَي يطمئنَ بَالُهُ؛ ويرتاحَ قَلْبُهُ على أُمِّهِ العجوز التي أنهكها المرضُ.

أخذ هَاتِفَ مكتبِهِ الصَّغِيرِ؛ وبدأ يُحَادِثُ أخَاهُ الأَكْبَرَ؛ ويَصِفُ له حَالَهُ وحَالَ أُمِّهِ؛ فقَرَّرَ الأخُ الأَكْبَرُ أَنْ تَعِيشَ الأُمُّ مَعَهُ؛ فهُوَ الأَكْبَرُ، وهُوَ الأَحَقُّ بها وبرعايتِها؛ سَاعَتُها لَمْ يَعْرِفِ الأُخُ الأصغرُ أَهُوَ سَعِيدٌ بذلك الخَبْرِ، أَمْ أَنَّهُ يحزنُهُ بُعْدُها عنه ؟!

وبعد عَوْدَتِهِ مِن العملِ؛ أخبر أُمَّهُ برغبةِ أخيهِ؛ فهَلَّلَتِ الأُمُّ؛ وفَرِحَتْ؛ ولِمَ لا؟!؛ والأَمْرُ سيَكُونُ مُرِيحًا لابنِها الصَّغِيرِ؛ والذي أهلكه السَّفَرُ؛ لكَي لا يتركَها وَحْدَها وهِيَ مَرِيضَةٌ .

وبدأتِ الأُمُّ في الاستعدادِ والتَّجْهِيزِ لهذا الأَمْرِ المَنْشُودِ .

ها قد أتى اليَوْمُ المَنْشُودُ؛ وخرج الابنُ الأكبرُ مُتَّجِهًا إلى البلدةِ تتبعُهُ الحِرَاسَةُ؛ والأُمُّ لَمْ تَنَمْ ليلتَها رَغْمَ مرضِها الشَّدِيدِ؛ فَرِحًا للقاءِ ابنِها الكَبِيرِ؛ وأخذتْ تُجَهِّزُ أَغْرَاضَها .

خرج الابنُ الصغيرُ لصَلَاةِ العَصْرِ؛ وحينما عاد وَجَدَ أُمَّه متكئةً على بَابِ البيتِ تسألُ عَنْ أخيه؛ فأخبرها برؤيتِهِ لحَارِسِهِ؛ وأنَّهُ يُسَلِّمُ على أَعْمَامِهِ في القريةِ؛ وسيأتِي إليها حَتْمًا؛ ويفطرُ مَعَنَا .

مَرَّتْ سَاعَاتُ وسَاعَاتٌ؛ والأُمُّ تنتظرُ قَلِقَةً؛ وكَأنَّ قَلْبَها يُخْبِرُها بشِيءٍ ما؛ تنتظرُ رؤيةَ وَلَدِها الأكبر بَعْدَ فترةِ الغيابِ التي طالتْ سَنَوَات وسَنَوَات ؟!

دفعتْهُ كثرةُ تساؤلاتِها إلى الخروجِ ؛ يتساءلُ؛ يبحثُ عَنْ أخيهِ عِنْدَ الأَعْمَام.

رأى الحارسَ عَائِدًا مِنْ ناحيةِ الطَّرِيقِ السَّرِيعِ؛ فسألَهُ عَنْ أخيهِ؛ فأخبرَهُ أنَّهُ غَادَرَ فَجْأَةً؛ بَعْدَ أَنْ هَمَسَ في أُذُنِهِ "خفير القرية "؛ ودُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ هِي وِجْهَتُهُ ؟!

وبدُونِ سَابِق إنذارٍ غرقتْ عَيْنَاهُ بالعَبَرَاتِ وهُوَ يَبْكِي؛ لا يعرفُ كَيْفَ يخبرُها ؟!؛ وتاهتْ قَدَمَاهُ عَن المَسِيرِ في طريقِ عَوْدَتِهِ إلى البيتِ.

يُفَكِّر؛ يَشْغَلُهُ حَالُ أُمِّهِ المريضةِ ؛ كيف سيُخْبِرُها ؟!

عاد ولَمْ يعرفْ كيف يُخْبِرُها ؟!؛ وحينما أبصرتْهُ مِنْ بَعِيدٍ؛ أخذتْ تُنَادِي؛ تتساءلُ دُوْنَ تَوَقُّفٍ :

- "أَيْنَ أَخوكَ؟!"

فأمسك بيَدِها؛ وأخذ يُقَبِّلُها وهُوَ يَبْكِي؛ يستجديها؛ ويستعطفُها أَنْ تُسَـــامِحَهُ ؛لأنَّهُ تَعَارَكَ مَعَ أخيهِ الأكبر؛ وأنَّهُ لا يَقْدِرُعلى مفارقَتِها؛ وطلب مِنْهُ أَنْ يتركَها ويَعُودَ .

غضبتِ الأُمُّ غضبًا شَدِيدًا؛ والابنُ الأصغرُ يَبْكِي؛ ويُقَبِّلُ يَدِيها؛ ويستعطفُها ألا تَغْضَبَ مِنْهُ؛ ووَعَدَها أَنْ يتصالحَ مَعَ أخيهِ الأكبرِ قَرِيبًا.

-"عدتُ أُسْرِعُ الخُطَى ناحية البيت؛ وهاجتْ بدَاخِلِي بُحُورٌ مِن الشَّغَفِ والحَنِينِ؛ أُرِيدُ أَنْ أعرفَ مَنْ جَدِّي؟!

سِرُّ الرُّفَاتِ السَّـــادِسِ؛ والتَّعَرُّف على هُوِيَّتِها؛ وكَمْ خَشِـــيتُ ألا تُسْعِفَهُ ذاكرتُهُ الضَّعِيفَةُ على إخبارِي بسِرِّها"

-"جِدِّي؛ أخبرْنِي مَنْ صَاحِبُ الرُّفَاتِ السَّادِسِ؟!"

-"أَهُوَ جَدِّي؟!؛ شَقِيقُكَ الأكبرُ؟!"

يتنهدُ جَدِّي؛ وتتســـاقطُ العَبَرَاتُ على وَجْنَتِيهِ؛ ويتأوهُ؛ وقد هاجتْ بأعماقِ فُؤَادِهِ الحَزِينِ مَشَاعِرُ الحُزْنِ والأَسَى؛ ويقولُ :

-"نَعَم، إنَّهُ جَدُّكَ يَا حَفِيدِي ...إنَّهُ أَخِي الأكبرَ!!"

فاحتضنتُهُ؛ وأخذتُ أُوَاسِيهِ؛ حتَّى هَدَأَتْ أَنْفَاسُهُ .

-"حَفِيدِي لَمْ أكملْ لَكَ القِصَّـــةَ بَعْدُ !!؛ ثَمَّةُ شَيءٍ أُرِيدُكَ أنْ تـدركَـهُ وتعرفَـهُ؛ ولتَعْلَمْ يَـا حَفِيـدِي أنَّ أَخِي الأكبرَ لَمْ يتملصْ مِن المسـؤوليةِ كما أسـأتُ ظَنِّي فِي البدايةِ؛ بَلْ عَلِمْتُ أنَّهُ قد جاءتْهُ إشـارةٌ

عاجلةُ مِن القِيَادَةِ على هَاتِفِ "عمدة القرية "؛ لإعلانِ الحربِ على العَدُوِ؛ هَمِسَ بها "خفير القرية" في أُذُنِهِ؛ ولَمْ يسـعفْهُ الوَقْتُ، ونِدَاءُ الوَاجِبِ، والأحْدَاثِ؛ حتَّى يُوَدِّعَ أُمَّهُ العجوز؛ ويُوَدِّعَنِي؛ وغادر مُسْرِعًا يُلَبِّي النِّدَاءَ".

ولَمْ تَمْضِ سِـوَى أَيَّامٍ قَلِيلةٍ؛ حتَّى عاد مَحْمُولًا على الأعْنَاقِ وَسْطَ الظلامِ .

ساعتُها فقط أدركتُ كَمْ أنَّنِي ظلمتُهُ؛ وأسأتُ الظَّنَّ فيه ."

-"دفنتُهُ في المقبرةِ؛ وأخفيتُ خَبَرَ استشهادِهِ عَنْ أُمِّي المريضةِ؛ حتَّى لا تموتَ مِن الحُزْنِ والحَسْرَةِ على فُقْدَانِهِ .

-"حاولتُ وحاولتُ أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ أَنْ أخبرَها؛ ولَكِنَّنِي عجزتُ حتَّى عَنْ ذكرِ اسـمِهِ أمَامَها؛ كُلَّمَا شـاهدتُ نَظَرَاتِ غَضَـبِها؛ لأنَّها تُحَمِّلُنِي سَبَبُ عُزُوفِهِ عَن الحضورِ لزيارتِها؛ وكان لمَرَضِها دَوْرٌ آخَر في إخْفَائِي لخَبَرِ استشهادِهِ" .

علا صَوْتُ نَحِيبِ الجَدِّ، وهُوَ يَبْكِي ثُمَّ سكت بُرْهَةً مِن الوَقْتِ؛ وعاد كعَادَتِهِ مُنْذُ أَنْ داهمتْهُ أعراضُ الشيخوخةِ ينظرُ إِلَيَّ؛ ويَتَفَحَّصُنِي بناظريه؛ وهُوَ يقولُ لِي :

-"مَنْ أَنْتَ ؟!"

راودتْنِي ابتسامةٌ خَفِيفةٌ، والعَبَرَاتُ تُغْرِقُ عَيْنِي!!

وأنا أقولُ: -"أنا حَفِيدُكَ يَا جَدِّي!!".

إِلَى المَسْجِدِ

محمد سيد

اســتيقظتُ في يومٍ مِن الأيَّامِ على صَــوْتِ العَصَــافِيرِ تُغَرِّدُ فَوْقَ شُـــبَّاكِي ، وعندما فتحتُ عيني؛ رأيتُ نَفْسِي ــ مُلْقَى على الأرضِ في المســجدِ- بيت الله -، والدِّمَاءُ تنزفُ مِنِّي، وكَثِيرٌ مِن المُصَــلِّينَ حَوْلِي يَنْزِفُونَ ؟!

رأيتُ شــخصًــا يرتدي خوذةً بها كاميرا، ويحملُ ســلاحًا ناريًا ؛ ويُطْلِقُ الرُّصَاصَ في عشوائيةٍ على المُصَلَّينَ ؟!

تعَجَبْتُ ؛ كيف أرى هذا المَشْهَدَ مَرَّةً ثَانِيَّةً ؟!

وتذكَّرْتُ ذلك اليومَ ؛ وقد استيقظتُ مبكرًا كعادتي نشيطًا.

زَوْجَتِي جَهَّزَتِ الإفطارَ اللَّذِيذَ ، ألقيتُ عليها تَحِيَّةَ الصَّبَاحِ :

-"صباحُ الخَيْرِ يا زَوْجَتِي الحَبِيبَةِ".

دخلتُ دَوْرَةُ المياهِ؛ فغَسَــلْتُ وَجْهِي؛ وخَرَجْتُ لأَجْلِسَ مع أولادِي، تناولنا الإفطارَ المُفْعَمَ بكَبْسُولَاتِ السَّعَادَةِ .

أحدُ أبنائِي أُصِيبَ بنِزْلَةِ بَرْدٍ؛ مَنَعَتْهُ مِنْ أداءِ صَلَاةِ الجُمْعَةِ مَعِي.

ذهبتُ للمسـجدِ قَبْلَ مَوْعِدِ الصَّـلَاةِ بنِصْـفِ سَـاعَةٍ، شـعرتُ بإحساسٍ غريبٍ، وكأنَّ المسجدَ حَزِينٌ ، أَرْكَانُهُ تقطرُ ألمًا ؟!

اسـتمعتُ منصـتًا للخَطِيبِ ، وفي أثناءِ ذلك سـمعتُ طَلَقَاتِ الغدرِ والكَرَاهِيَةِ تحاصرُنا داخلَ المسـجدِ؛ نجوتُ بأعجوبةٍ مِنْ بَرَاثِنِ الموتِ؟!

رأيتُ شـخصًـا يرتدي خوذةً بها كاميرا، ويحملُ سـلاحًا ناريًا ؛ ويُطْلِقُ الرَّصَاصَ في عشوائيةٍ على المُصَلِّينَ ؟!

بَعْدَ أيَّامٍ أُقِيمتْ صَـلَاةَ الجنازةِ على أرواحِ الشُّـهَدَاءِ، كانتِ الملائكةُ تَزِفُّ أَجْسَادَهم إلى المَقَابِرِ، وأَرْوَاحَهم إلى الجَنَّةِ .

وبَعْدَ أسـبوعٍ ؛ وقَبْلَ وقت صَـلَاةِ الجُمْعَةِ ؛ خرج الجميعُ إلى المَسْجِدِ :

مُسْلِمُون - مَسِيحِيُّون – يَهُود - .....

سَوْطُ الغَدْرِ

سليمة مليزي

امتطى جَوَادَهُ؛ وأخذ يَجُوبُ الغَابَةَ المُجَاوِرَةَ للقَصْرِ؛ لَعَلَّهُ يعثرُ على آثارِ الجريمةِ التي هزَّتْ عَرْشَ القريةِ البَارِحَةَ؛ والتي كانتْ ابنتُهُ ضَحِيَّتَها.

فتاةٌ في العِشْرِينَ أحرقُوا جَسَدَها بأعقابِ السَّجَائِرِ؛ قَبْلَ أنْ يقتلُوها؟!

ضرب بسَوْطِهِ الأرضَ؛ ورَكَعَ على رُكْبَتِيهِ يَئِنُّ ألمًا، حتَّى صباحِ اليومِ كان يُهَدِّدُ مُرْتَكِبِي الجريمةِ بالقَصَاصِ؛ لَكِنَّهُ فجأةً اكتشف أنَّهُ لا يستطيعُ أنْ يَقْتَصَّ مِنْ نَفْسِه؛ كان هُوَ بَارُون المُخَدَّرَاتِ ؛ والذينَ قتلُوا ابْنَتَهُ لا شَكَّ مُجَرَّد زَبَائِن مُنْحَرِفِينَ!!

وَاقِعٌ مَرِيرٌ

سليمة مليزي

مَرَّ أمَامِي كالبَدْرِ.. طَفْلٌ بَرِيءٌ عَابِسُ الوَجْهِ وحَزِينُ القَلْبِ... حَافِي القَدَمِينِ، ثِيَابُهُ رَثَّةٌ ومُتَّسِخَةٌ بالزُّيُوتِ.

عصابةٌ مِن الضِّمَادَاتِ تَلِفُّ جَبِينَهُ.. يَدَهُ المَكْسُورَةُ والمُضَمَّدَةِ بالجِبْسِ مُعَلَّقَةٌ إلى كَتِفِه النَّاحِلِ بشَرِيطٍ أبيَض... عَيْنَاهُ تَشْرَئِبُ إلي الأعلى؛ ليَرْمِي نظرةَ تَحَسُّرٍ إلى ممرضةٍ كانتْ تُنَادِي على المَرْضَى؛ لإجراءِ صُورِ الأشِعَّةِ في قاعةِ الانتظارِ.

كنتُ أُفَكِّرُ في شيءٍ واحدٍ:

-"عندما نضعُ البراءةَ في مَصْنَعٍ للخِرْدَوَاتِ؛ يمكنُ أَنْ تَدُوسَها آلةٌ عَمْيَاء!!"

فُقْدَانُ

سليمة مليزي

ابتعدتُ قليلًا حتَّى لا أثيرَ ضَـجَّةً ، رُحْتُ أسـترقُ السَّـمَعَ لليلةٍ ليستْ كباقي الليالي.

عاد كغَيْرِ عَادَتِهِ يُدَنْدِنُ فرحًا مصـطحبًا امرأة غريبة؟؟؛ كان يَظِنُّ أنَّنِي أقضي اللَّيلةَ عِنْدَ صَدِيقَتِي التي أعملُ معها كما أخبرتْهُ أَمْسِ؛ لَكِنَّنِي خرجتُ مبكرةً مِن العَمَلِ؛ لتغييرٍ في بَرْنَامَجِ المُدَاوَمَةِ؛ وعدتُ إلى هذا المكانِ المُوحِشِ الذي لم أَعُدْ أعرفُ فيه أَحَدًا؟!

كنتُ أختبأُ بَيْنَ ضُـلُوعِ كِبْرِيَائِي، وأكفكفُ دُمُوعَ حَيَاةٍ لَمْ تَعُدْ مُمْكِنَةً.. ورُوحِي ترتعشُ؛ وأنا أرى شـخصًـا آخَرَ أمَامِي؟؟!!؛ يسـتحيلُ أنْ يكونَ هذا زَوْجِي، وهذه الكلماتُ التي تُقَالُ لِي عَادَةً يُكَرِّرُها كالغَبِيّ مَعَهَا.

بدأتْ ضَحِكَاتُهم تُثِيرُ فِيَّ الغيرةَ التي تقتلُ؟؟!!؛انْصَبَّ عَرَقٌ باردٌ على جِسْمِي؟؟!!؛ أحسـسـتُ أَنَّ رَوْحِي تنزفُ؛ لَمْ يَعُدْ هذا المكانَ آمِنًا ولا دَافِئًا.

لَمْلَمْتُ جِرَاحِي وأَثْوَابِي؛ وخَرَجْتُ؟!

بَقَايَا فَرْح

سليمة مليزي

أيَّتُها الطفولةُ الوَارِفَةُ والرَّاقِصَةُ في فِكْرِي ورُوحِي ؛ أحْكِي لَكِ عَنْ فَرَحِي بين حَنَايَا الشــوقِ واللهفةِ لاكتشــافِ كُلِّ ما هُوَ غَرِيبٌ وجَمِيلٌ، نَمْرَحُ في المُرُوجِ الخَضْرَاءِ؛ ونَقْطِفُ الأزْهَارَ المُتَنَاثِرَةَ على بِسَاطٍ أخضر مِنْ لؤلؤةِ الجَنَّةِ.

كَمْ كنتُ أَشْــتَهِي التَّمَردَ في وَجْهِ الزَّمَنِ!!، والفرحةُ التي كانتْ تسكنُنِي .

أعشقُ تَغَارِيدَ العَصَافِيرِ التي كانتْ تشدُو بأَجْمَلِ الألَحَانِ؛ وأحِنُّ للُعْبَةِ الجِيرَانِ، وأصواتِ العَائِدِينَ مِنْ بَسَاتِينِ التِّيْنِ، والزَّيْتُون، والخَوْخ والرُّمَانِ يَحْمِلْنَ سِلَالًا مُزِرْكَشَةً بألوانِ الفَرْحِ؟؟

كانتْ تصــنعُها الجِدَّاتُ تَحْتَ شَــجَرَةِ التُّوتِ الوَارِفَةِ فَوْقَ بيتِنا العَتِيقِ؛ فاشتهى فاكهةَ الصَّيْفِ؛ وكَمْ كانتْ تؤنسُنِي أصواتُ الصَّرَاصِيرِ التي يَعَجُّ المكانُ بها معلنةً قُدُومِ مَوْسِــمِ الحَصَــادِ!!، والكُلُّ في فَلَكِ الطبيعةِ يُسَبِّحُون: الحَبُّ، والزَّرْعُ، وأَشْوَاقُ المَكَانِ.

زَمَنْ مِنْ نَار

سليمة مليزي

تَوَقَّفَتْ سَيَّارَة فَخْمَةٌ تَقُودُها سَيِّدَةٌ تبدُو مِنْ طبقةٍ راقيةٍ.

اقتربتْ منها سَيَّدَةٌ وَجِلَةٌ تتحَدَّثُ الفرنسيَّةَ بإتْقَانٍ وبصُعُوبَةٍ في نَفْسِ الوقتِ؛ ممَّا أثار دَهْشَةَ وانتباهَ السَّيِّدَةِ.

كانتِ المرأةُ تقبضُ على يَدِها اليُمْنَى؛ وتُحَرِّكُ رَأْسَها يَمِينًا وشِمَالًا؛ فتحتِ السَّيِّدَةُ زُجَاجَ النَّافِذَةِ؛ لتستمعَ إليها بشكلٍ جيدٍ.

قالتْ لها بفرنسيَّةٍ بَطِيئَةٍ:

-"لا تغلقِي النَّافِذَةِ مِنْ فَضْلِكِ؛ فأنا إنْسَانَةٌ مِثْلَكِ"

وراحتْ تَرْوِي لها حِكَايَةً عَن الزَّمَنِ الذي لَعِبَ بها ؛ بعد ما كانتْ مِثْلَها سَيَّدَة لها مَظْهَرٌ رَاقٍ ..إطار في وزارةِ الصِّحَةِ .. وأُمٌّ لسِتَّةِ أَطْفَالٍ.. بَنَاتِي التوأم طُرِدْنَ مِن الثَّانَوِيَّةِ؛ لعَدَمِ توفيرِ الأدواتِ لَهُنَّ.. أَبْنَائِي سافر كُلٌّ وَاحِدٍ؛ حَيْثُ يَجِدُ قُوتَهُ!!

تركَنِي زَوْجِي مُنْذُ أُصِبتُ بمَرَضِ الصَّرَعِ النِّصْفِي؛ بعد ما كنتُ لَهُ السَّنَدَ في كُلِّ شيءٍ، واليومَ لا أَجِدُ لُقْمَةَ عَيْشٍ تَسُدُّ رَمْقَ أَوْلَادِي!!

كانتْ تبحثُ عَنْ دِينَارٍ؛ لتَشْـتَرِي بِهِ الخُبْزَ!!، وتبحثُ عَنْ قَلْبٍ يستمعُ لمُعَانَاتِها!!

خَبْزٌ تَحْتَ الحِصَارِ

سليمة مليزي

نهضتْ كغَيْرِ عَادَتِها

مَفْزُعَةٌ ... إحْسَاسٌ ما يَنْتَابُها

خَوْفٌ مِن المَجْهُولِ ...

وكأنَّ شيئًا ما سيَحْدُثُ

تشعلُ النَّارَ في بَاحَةِ الدَّارِ

ورائحةُ الخُبْزِ المُخَمَّرِ تفوحُ

تُعَبِّقُ المكانَ ...

تعلنُ عَنْ طُلُوعِ فِجْرٍ جَدِيدٍ

كيفَ لها أنْ تملأَ الأَفْوَاهَ الجَائِعَةَ

والحصارُ يمنعُ دخولَ الغِذَاءِ إلي القَرْيَةِ؟!

كانتْ تَبْكِي الجُوعَ ..

لَكِنَّها بَعْدَ الدَّمَارِ الذي لَحِقَ بغَزَّة

مِنْ جَرَّاءِ القَصْفِ الإسْرَائِيلِيّ ؟!

هَا هِيَ تُلِمْلِمُ حُزْنَها

على شُهَدَاءِ الوَطَنِ!!

شَبَحُ الظُّلْمِ

سليمة مليزي

بدأ الفجرُ يرسلُ خُيُوطَهُ الفِضِّيَّةَ، نهضتْ "يامنة" تراقبُ أفقَ السَّمَاءِ؛ لتسارعَ الزَّمَنَ ، ذهبتْ إلي الإسطبلِ؛ حلبتِ النَّعْجَةَ الوَحِيدَةَ التي تقتاتُ منها؛ وتَعِيلُ بَنَاتِها الثلاثةَ ؛ بعد ما تَرَكَهُما وَالِدُهما الذي اُسْتُشْهِدَ في ميدانِ التحريرِ؛ دفاعًا عَن الوطنِ.

تهرولُ يمينًا وشِمَالًا؛ بحثًا عَنْ قطعةِ خُبْزٍ؛ لتَسُدَّ بها رَمْقَ ابنتِها الصُّغْرَى ،لا تأخذُها مَعَها إلي المَدِينَةِ ... سَلَكَتَا الدَّرْبَ الذي تُحِيطُ بِهِ حَدَائِقُ جِدِّها .. الهَادِئَةُ كهُدُوءِ الصَّبَاحِ إلا مِنْ أصواتِ العصافيرِ وصِيَاحِ الدِّيَكَةِ، وحَفِيفِ الأشجارِ التي تُدَاعِبُها نَسَائِمُ الصَّبَاحِ ، ورائحةِ الخُبْزِ التي تنبعثُ مِنْ بُيُوتِ الفَلَّاحِينِ المُسْتَعِدِّينَ للذَّهَابِ إلي حُقُولِهم .

كان الدَّرْبُ المُكَلَّلُ بأَشْوَاكِ التُّوتِ البَرِّيّ؛ والتي بدأتْ بَرَاعِمُهُ تتفتَّحُ لإعلانِ قُدُومِ الرَّبِيعِ ، وهُنَاكَ في الدُّرُوبِ مُرُوجٌ تتلألأُ مِنْ بَعِيدٍ بأزهارِ الأُقْحُوَانِ والبَنَفْسِجِ؛ وكأنَّها سِجَادٌ حِيْكَ بتَنَاسُقٍ جَمِيلٍ مِنْ إبداعِ الخَالِقِ، كانتْ نَسَائِمُ الصَّبَاحِ حِيْنَئِذٍ تُدَاعِب جَسَدِيهُمَا، وهُمَا يَشُقَّانِ الدَّرَبَ مُسْرَعِتِينِ؛ قَبْلَ أنْ تفوتَهما الحَافِلَة الوَحِيدة التي تَقُلُّهُما إلي المَدِينَةِ ، كان الهدوءُ يبعثُ صَمْتَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إلا مُنَظِّفُ القَرْيَةِ

يَجُرُّ عَرَبَتَهُ لتنظيفِ شَـوَارِعِها ، وحَارِسُ الحديقةِ الكبيرةِ التي تتوسَّـطُ سَـاحَةَ القَرْيَةِ ؛ والذي كان يَسْـقِي الحديقةَ، وعَزَفَ الماءُ المتطايرُ على وُريقَاتِ الوُرُودِ يَرْنُو لَحْنًا شَــجِيًّا يكسرُ الصَّــمْتَ بجَمَالِ رَقْرَقَتِهِ على الأزهارِ والأشــجارِ؛ والتي كانتْ تُلَامِسُ رَشَّــاتِ الماءِ المتطايرِ عليها بحَنِينٍ ، ورائحـةُ الوردِ الجُورِي، والتوليـب، والجـاردينـا، والكاميليـا، والبَنَفْسِج تنبعثُ وتنعشُ الهواءَ برائحتِها العَطِرَةِ

لَمْ تَكُنْ تعلمُ الفتاةُ الصغيرةُ؛ لماذا كُلُّ أسبوعٍ تَجُرُّها وَالِدَتُها إلي المَدِينَةِ؟!؛ كانتْ تتذَكَّرُ إلا قَلِيلًا مِن القِصَّــةِ ؛ حَيْثُ كان هناك شَــبَحُ الظُّلْمِ وقَهْرُ أعْمَـامِهـا لَهُنَّ؛ في انتهـاكِ حُقُوقِهم في مِيْرَاثِ وَالِـدِهم؛ والذي تَرَكَ أَرَاضِي لهم الحَقُّ فيها .

و"يامنة" السَّــيِّدَةُ القَوِيَّةُ والذَّكِيَّةُ التي كانتْ تُطَالِبُ بحَقِّ بَنَاتِها المَشْرُوعِ.

لِمْ تيأسْ يَوْمًا مِن المطالبةِ بهذا الحَقِّ بالعَدْلِ!! .

انْبِلاجُ الفَرَجِ

سليمة مليزي

تَسَـلَّلَتْ أشِـعَّةُ الشَّـمْسِ مِنْ زُجَاجِ النَّافِذَةِ ، دَغْدَغَتْ حَوَّاسَـهُ الرَّقِيقَةَ؛ فتح عُيُونَهُ ، وهُوَ يبتسمُ:

-"أُمِّي .. أُمِّي طلعَ النَّهَارُ .. يَا لَهَا مِنْ لَيْلَةٍ رَائِعَةٍ؛ اليومَ لَمْ أبردْ يَا أُمِّي، ولَمْ أَخَفْ مِنْ نُبَاحِ الكِلَابِ، وحَلْكَةِ اللَّيْلِ، ومُطَارَدَة الأَشْرَارِ لنا؛ والتي كانتْ تَلِفُّ حَوْلَنا؛ وتزرعُ الرُّعْبَ في قُلُوبِنَا "!!

غَضِـبَتِ الأُمُّ مِنْ قَهْرِ الزَّمَانِ .. مِنْ وَجَعِ القَدَرِ... مِنْ مُجْتَمَعٍ لا يَرْحَمُ!!

بَعْدَ ما رَمَاها زَوْجُها وفَلْذَةَ كَبِدِها في الشَّارِعِ، وهُوَ رَضِيعٌ؟!

لَجِئَتْ إلى وَالِدِها؛ وَجِدَتْ جَحِيمَ زَوْجَةِ الأَبِ الذي لَمْ يَكُنْ أَرْحَمُ مِنْ قَهْرِ الزَّوْجِ.

مَسِحَتْ على جَبِينِهِ؛ واحْتَضَنَتْهُ؛ وتَنَهَّدَتْ بعُمْقٍ :

-"آهٍ .. وآهٍ يا بُنَيّ؛ كَمْ هُوَ عَنِيدٌ هذا الجُرْح؟!، لَيْتَنا نهربُ إلى عَالَمٍ مِن النُّورِ؛ حتَّى لا تدركَنا حَلْكَةَ الظُّلْمِ التي تُغْرِقُ قُلُوبَ البَشَرِ؟!".

هَمْسُ الأَنِينِ

سليمة مليزي

تُسَـــامِرُنِي الظُّنُونُ؛ يَهْمِسُ فِي فِكْرِي حَنِينُ المَاضِي؛ تَتَسَـــارَعُ نَبَضَــاتُ قَلْبِي؛ تُشْــعِرُنِي بوَلَعِ الحُبِّ؛ حِيْنَ كُنَّا؛ وكان الرَّبِيعُ مُبْتَسِــمًا هُنَاكَ ؟!

فِي مَمْلَكَةِ القَلْبِ صَفَّقَ البَابُ خَلْفَهُ بعُنْفٍ.

سَمِعَتْ شَتَائِمَ، صُرَاخَ الأَطْفَالِ، أَنِينَ الوَجَعِ يُمَزِّقُ قَلْبَها!!

مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ سَقِطَتْ مُنْهَارَةً ؟؟!!

غُرْبَةٌ مِنْ أَجْلِ الفَرَحِ

سليمة مليزي

تَنَاثَرَتْ مِنْ بَيْنَ أَصَـــابِعِهِ كأَوْرَاقِ الخَرِيفِ ، وهُوَ يَصْرُـخُ بأعْلَى صَوْتٍ :

-"يا إلَهِي تَحَصَّـــلْتُ على المِنْحَةِ التي كنتُ أَحْلُمُ بِهَا؛ سَـــأُفَرِّحُ حَبِيبَتِي؛ وأُحَقِّقُ لَهَا حُلْمَها: أَنْ نَعِيشَ عِيْشَـــةً هَنِيئَةً؛ بَعْدَ هذا العَنَاءِ والغُرْبَةِ في صَحرَاءٍ قَاحِلَةٍ" .

حَمَـلَ حَقِيبتَـهُ إلى الرَّحِيـلِ؛ وهُوَ يُفَكِّرُ كَيْفَ سَـــيَكُونُ اللِّقَـاءُ الجَمِيلُ؛ لتَحْقِيقِ حُلُمٍ انْتَظَرُهُ كَثِيرًا .

مَرَّ عَلَى بابِها، زَغَارِيدُ وأَفْرَاحٌ هُنَاكَ ؟!

سَمِعَ كَلَامًا مِنْ هُنَا وهُنَاكَ :

-"تَزَوَّجَتْ رَجُلٌ غَنِيٌّ؛ وتَرَكَتْ خَطِيبَها الذي سَـافَرَ إلَى الصَّـحَرَاءِ مِنْ أَجْلِها؟!"

رَبِيعُ الثَّوْرَةِ

سليمة مليزي

انْتَصِرَ-أَخِيرًا عَلَى بَقَايَا الشَّرِّ-.. عَنْ فِكْرَةٍ كَانَتْ في جُعْبَتِهِ تُصَارِعُ الغَدْرَ؛ والذي عَاشَ فيه طِيْلَةَ عُمْرٍ مِن الزَّمَنِ !!

رَاحَ يُحَاوِرُ العِتَابَ :

-" كَيْفَ لِي أَنْ أُوَاجِهُ ضَمِيرِي؛ حِيْنَ رَمِيْتَ بالوَطَنِ في الشَّارِعِ؛ فكُنْتُ أَوَّلُ مَنْ الْتَقَطَ عِزَّةَ الوَطَنِ؟ ، ثَوْرَةٌ مِنْ رَحِمَ المُعَانَاةِ ؟؟، ثَوْرَةٌ تَحَوَّلَ رَبِيعُها إلى عَوَاصِفُ أَكَلَتِ الأَخْضَرَ واليَابِسَ؟؟!!

خِيَانَةُ الفِدَاءِ

سليمة مليزي

غَادَرَ المَغَارَةَ في مُنْتَصَـفِ اللَّيْلِ، مُسْرِعًا خُطَاهُ كغَيْرِ عَادَتِهِ؛ بعد ما مَوَّلَ المُجَاهِدِينَ مِنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَهُ مِنْ غِذَاءٍ، ودَوَاءٍ، وأَسْـلِحَةٍ ؛وهُوَ يُهَرْوِلُ؛ يتلفتُ يَمِينًا وشِـمَالًا؛ يُحَلِّقُ في الأُفَقِ؛ لَعَلَّهُ يَرَى نُورًا مُنْبَعِثًا مِن القَرْيَةِ ؛ ليَطْمَئِنَ قَلْبُهُ قَلِيلًا.

سَارَعَ في خُطَاهُ ، لَمْ يَأْبَ أَنْ يَرْكَبَ حِصَانَهُ؛ حَتَّى لا يُثِيرَ ضَجَّةً في المَكَانِ.

عَوِاءُ الذِّئَابِ، حَلْكَةُ اللَّيْلَ، ورُعْبُ الغَابَةِ المُوحِشَـةِ لَمْ تُخِيْفْهُ؛ بقَدْرِ ما هُوَ خَائِفٌ عَلَى مَصِيرِ بَلَدِهِ وأُمَّتِهِ!!

وحِيْنَ أَوْشَـكَ على الوُصُـولِ إلى بَيْتِهِ؛ سَـبَقَتْهُ خِيَانَةُ الأَعْدَاءِ !!؛ تَرَبَّصَ بِهِ العَدُوُّ عِنْدَ حَافَةِ الوَادِي؛ فكَانَتْ شَـهَادَتُهُ أَجْمَلَ فِدَاءً لِلْوَطَنِ!!

حُبٌّ عُذْرِيّ

سليمة ملّيزي

نَسَـمَاتٌ مُحَمَّلَةٌ بشَـذَى الوَرْدِ، ورَوَائِح الرَّيْحَانِ، والزَّعْتَرِ البَرِيّ، ونَفَحَاتُ هَوَاءٍ تَأْتِي على مَسَافَاتِ الرُّوحِ .

نَهَضَـتِ القَرْيَةُ على صِيَاحِ الدِّيَكَةِ ، ورَائِحَةُ الخُبْزِ الطَّازَجَةِ التي يُسَافِرُ عِطْرُها في كُلِّ الأفْضِيَةِ، يَمْتَدُّ بَصَرِي إلى مُنْتَهَى الأُفُقِ.

سَـمَاءٌ تَحْتَضِـنُ غُيُومَها ،جَبَلُ (مجونس) تَظْهَرُ قِمَّتُهُ البَيْضَـاءُ شَـامِخَةً يَكْسُـوها لَوْنُ الثَّلْجِ نَاصِـعِ البَيَاضِ كَعَمَامَةٍ تَنْحَتُ الأَمَلَ مِنْ حَنَايَا الفَضَـــاءِ، وتَزْرَعُـهُ على القَرْيَةِ الحَزِينَـةِ؛ ولأَنَّ مَسَـــافَاتٍ مِن الصُّحَفِ الدَّاكِنَةِ أَضْحَتْ تُوحِي بقُدُومِ المَطَرِ.

يَسُودُ الشُّعُورُ بهُدُوءِ ما قَبْلَ العَاصِفَةِ.

يَخْرُجُ "مختار" مُسرِعًا يُنَادِي الرَّاعِي الذي تَأَهَّبَ؛ لَيسُـــوقَ المَاشِيَةَ نَحْوَ المَرْعَى:

-"يَا هه ...يا حامة ،،،يا هه ... يا ورجع الشياه للكوري ؟ "

نظر إليه "حامة" باسْتِغْرَابٍ :

-" ما بِهِ هَذَا الرَّجَلُ، قَلِيلًا مِن السُّحُبِ أَفْزَعَتْهُ!! "

-كَانَتْ تَقُولُ أُمِّي :

" إذا سَـحَبْتَ مَعَ الصَّـبَاحِ رَجَعَ دَابَكَ للمَرَاحِ ، وإذا سَـحَبْتَ مَعَ العَشِيَّةِ سُوق دَابَكَ للمَشي"

-"خُذْهَا حِكْمَةً مِنِّي أيُّهَا الرَّاعِي؛ سَتُمْطِرُ اليَوْمَ؟؟!"

تَمْتَمَ "حامة" بكَلِمَاتٍ غَيْر مَفْهُومَةٍ؛ ورَاحَ يَضْرِبُ المَاشِيَةَ:

"آس آس آس .... اللَّعْنَةُ عَلَى هَذَا اليَوْمِ ... نَكَد مِنْ صَـبَاحِ رَبِّي ... أَكِيْد اليَوْمَ سَـتَكُونُ أَشْـغَالًا شَـاقَةً فِي ذَلِكَ الإِسْـطَبِلِ؛ لَتَنْظِيفِ بَقَايَا المَاشِـــيَةِ، ونَقْلِها إلي رِأْسِ الزُّبَالَةِ؛ فالشِّـــتَاءُ هَذِهِ السَّـــنَةُ؛ سَـــيَكُونُ قَاسِيًا!!"

-"لَسْـتُ أَدْرِي مَاذَا حَدَثَ لِتِلْكَ المِسْـكِيْنَةِ الخَادِمَةِ التي تُنَظِّفُ الإِسْطَبْلَ ... غَائِبَةٌ مُنْذُ أَيَّامٍ ؛ وهَا أنَا أَقُومُ بكُلِّ الأَشْغَالِ؟!"

كانَ البِيْتُ العَتِيقُ لـــ "سي أحمد" مِنْ أَجْمَلِ البُيُوتِ فِي القَرْيَةِ، بَنَاهُ مُهَنْدِسٌ مِعْمَارِيّ إيْطَالِيّ؛ حَتَّى الحَطَبِ اسْتَوْرَدَهُ مِنْ إيْطَالَيَا !!

-"آهٍ .. مَنْ يَسْـــتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَـــهُ إلَى نَوَافِذِ البِيْتِ؛ واللهِ سَتُقْطَعُ رَأْسُهُ؟!"

كَانَتْ "خديجة "الفتَاةَ المُدَلَّلَةَ لـ "سي أحمد" مِنْ أَجْمَلِ فَتَيَاتِ القَرْيَةِ .. جَمَال ، وجَاه ، وأَصْلَ، وغِنَى !!

-"آهٍ عَلى حَظِّي السَّـــيِئ : لِمَاذَا وُلِدَتُ فَقِيرًا؛ أَتَذَكَّرُ عِنْدَمَا كُنَّا صِغَارًا؛ كُنَّا نَلْتَقِي قُرْبَ اليَنْبُوعِ ؛ كَانَتْ تُحِبُّ اللَّعَبَ مَعِي"

يَسْـــتَرْجِعُ "حـامـة" ذِكْرِيَاتِ الطُّفُولَـةِ؛ يَوْمَ كَانَ يَجْمَعُ بَقَـايَا الفَاكِهَةِ الصَّـيْفِيَّةِ التي كَانَتْ تَسْـقُطُ خَارِجَ سُـورِ حَدِيقَةِ "سي أحمد"، ومَرَّةً سَـمِعَ "خديجة"، وهِيَ تَصْرُـخُ بِأَعْلَى صَـوْتِها؛ فَصَـعَدَ مُسْرِـعًا؛ تَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ ؛ونَكَزَ على السُّورِ .. كَانَ مَنْظَرًا مُخِيْفًا ومُضْحِكًا ؛عِنْدَمَا وَجَدَ "خديجة" عُيُونُها مُثَبَّتَةٌ نَحْوَ جِدَارِ النَّبْعِ، ووَجْهُها شَاحِبُ اللَّوْن؛ وهِيَ تَرْتَعِدُ، وسَلَّةُ التِّيْنِ التي قَطَفَتْها مِن الشَّجَرَةِ مُتَنَاثِرَةٌ عَلَى الأَرْضِ .

- "انْظُرْ هُنَاكَ ثُعْبَانٌ كَبِيرٌ؛ كُنْتُ أَغْسِلَ التِّيْنَ؛ فَخَرَجَ إِلَيَّ مِنْ بَيْنَ تِلْكِ الشَّجَرَةِ؟!"

- "لا تَخَافِي يَا خديجة"

-" كُنْـتُ أُرِيـدُ أَنْ أَكَونَ ذَلِـكَ البَطَـلَ الـذي يُنْقِـذُ الأَمِيرَةَ مِن الخَطَرِ!!"

حَمَلْتُ صَخْرَةً كَبِيرَةً؛ وضَرَبْتَهُ عَلَى الرَّأْسِ؛ فَأَرْدِيْتُهُ قَتِيلًا!!"

-"رَمَتْ "خديجة" نَفْسَها عَلَى صَدْرِي، وهِيَ تَشْهَقُ بالبُكَاءِ".

كَمٍ كَانَتْ طَرِيَّةً غَضَّة!!، رَائِحَتُها شَهِيَّةٌ تُشْبِهُ الأُمَرَاءَ؛ وَهِيَ فِعْلًا ابْنَةُ الأُمَرَاءِ ؟!

لَنْ أَنْسَى ذَلِكَ اليَوْمَ ،غَسَلْتُ لَهَا وَجْهَهَا بمَاءِ النَّبْعِ البَارِدِ المُنْعِشِ، وجَمَعْتُ لَهَا التِّيْنَ، ولَمْ أَكُنْ يَوْمَها أُرِيدُ مُفَارَقَتَها:

- "أَلَاْ تَذْهَبِينَ مَعِي اليَوْمَ؛ لنَقْطَفَ أَزْهَارَ النَّرْجِسِ مِن الوَادِي؟!"

- "لا ،أَنَا خَائِفَةٌ؛ مَنْظَرُ الثُّعْبَانِ أَرْعَبَنِي؟!"

سَمْعَتْ صَوْتًا مِنْ بَاحَةِ الدَّارِ يُنَادِيهَا ؛ فَرَاحَتْ مُسْرِعَةً:

- "إنَّها أُمِّي تُنَادِينِي؛ يَجِبُ عَلِيَّ الذَّهَابُ؛ سَلَام" .

مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمَ عَرِفْتُ مَعْنَى أَنْ تَكُونَ الأُنْثَى رَمْزًا مِنْ رُمُوزِ الإِحْسَاسِ والجَمَالِ بالنِّسْبَةِ للرَّجُلِ؛ تَرَكَتْ بدَاخَلِي حُزْنًا أَعْمَقُ مِن الَّذِي اعْتَرَانِي يَوْمَ أَدْرَكْتُ مَدَى فَقْرِي، مِنْ رُوحِها الَّتِي تَزُورُنِي كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ طَيْفَها، رَائِحَتُها العَذْبَةُ الَّتِي لا تُفَارِقُنِي!!

- "اسْتَيْقَظْتُ عَلَى صُرَاخِ "سي المختار" الَّذِي لَطَمَ وَجْهِي بمَاءٍ بَارِدٍ؛ أَفْزَعَنِي مِنْ حُلْمِي الجَمِيلِ ؟!"

-"غَفَوْتُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ العَرِيْقَةِ الَّتِي تَمْتَدُّ أَغْصَانُها إِلَى السَّمَاءِ" .

- "انْهَضِ؛ السَّمَاءُ تَكَادُ تُمْطِرُ؛ وَأَنْتَ لَمْ تُنْهِ عَمَلَكَ؛ أَنْتَ لَسْتَ فِي رِزْقِ أَبِيكَ ؟!"

-"سَأَعُودُ إِلَى رَائِحَةِ (الكوري) النَّتِنَةِ؛ وأَمْرِي للهِ "!!!

كَانَتْ "لاله اليامنة" السَّـــيِّدَةَ الوَحِيدَةَ الَّتِي تَحِنُّ عَلِيَّ؛ بَيْنَمَا أَنَا عَلَى عَتَبَةِ البَابِ؛ وَجَـدْتُ تَلِكَ السَّـــيِّدَةَ الطَّيِّبَةَ جَاءتْنِي بقَلِيلٍ مِن الكَسْرَـاتِ واللَّبَنِ؛ لأَسُـــدَّ بِهُمُا زَمَنًا مِن الرَّمَقِ؛ لأَنَّنِي لَمْ أَتَنَاوِلِ الطَّعَامَ مُنْذُ أَمْسِ، لا تُوجَـدُ فِي البِيْتِ حِفْنَـةٌ مِن الطَّحِينِ ؛ اللَّعْنَـةُ عَلَى هَـذِهِ الحَرْبِ ؟!"

"- يَا "حامة" تَعَالَ!!؛ تَنَاوَلْ غَدَاءَكَ، وهَذِهِ بَعْضُ الفَاكِهَةِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ العَمَلَ!!"

-"سُـــبْحَانَ اللهَ ،وكَأَنَّهَا سَـــمِعَتْنِي هَذِهِ السَّـــيِّدَةُ الكَرِيْمَةُ ابْنَةُ الكُرَمَاءِ ؟!؛ -جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا - سَيِّدَتِي ."

-"كُنْتُ أُحَدِّثُها، وأَنَا مُطَأْطِئ الرَّأْسِ؛ لأَنَّهُ لَوْ رَآنِي "سي المختار" أَنْظُرُ إِلَيْهَا؛ سَيَقْتُلُنِي!!؛ هَكَذَا عَائِلَاتُ النُّبَلَاءِ لا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ النَّظَرَ إِلَى نِسَائِهم؟!".

-"صَحْ "لاله"؛ رَبِّي يِخَلِيكِ "

-"وانْصَرَـفَتُ مُسْرِـعًا، واللَّبَنُ يَتَقَاطِرُ مِن " البوقال" المَصْـنُوعِ مِن الفَخَّار؛ كُنْتُ أَرَى العَجُوزَ "حجيلة" تَأْخُذُهُم إِلَى رَأْسِ الهَضَـــبَةِ؛ وتُشْعِلُ النَّارَ بـــ "الوقيد"؛ مِنْ أَجْلِ كَيِّهم بَعْدَ مَا تَنْتَهِي "لآلة اليامنة" مِنْ صُنْعِهم؛ حَتَّى تُحَافِظَ عَلَى صَلَابَتِهم."

هَبَّتْ رِيْحٌ بَارِدَةٌ فِي عَزِّ حَرَارَةِ الخَرِيفِ، ههها هَا هِي نُبُوءَةُ "سي المختار" تَتَحَقَّقُ؛ هُنَاكَ أَمْطَارٌ قَادِمَةٌ مِنْ جَبَلِ (مجونس) ..حَتْمَا سَتَحْدُثُ فَيَضَانَاتٌ.

-"آهٍ ، جَمِيلٌ.. اليَوْمَ سَأَبِيْتُ هُنَا عَلَى الأَقَلِّ؛ سَأَتَعَشَّى ـ اللَّحْمَ والكُسْكُسِي فِي بِيْتِ "سي أحمد" كُلّ لَيْلَةٍ وَلِيْمَة"

-"أَشْهَدُ عَلَى هَذَا البِيْتِ الكَبِيرِ لـــ "أحمد ابن القاضي"، طَابِقُهُ العُلْوِيُّ كُلَّهُ زُجَاجٌ، وعِنْدَمَا يَحِينُ وَقْتُ الحَصَادِ؛ كَانَ القَمْحُ المَنْثُورُ فِي بَاحَةِ القَصْرِ ـ تَطْلُعُ عَلِيهِ الشَّـــمْسُ؛ فتَعْكِسُ نُورَهُ عَلَى زُجَاجِ الطَّابِقِ العُلْوِيّ".

-"أَيْنَ تُوجَدُ غُرْفَةُ الضُّـــيُوفِ الَّتِي لا يَدْخُلُها أَحَدٌ؛ يُقَالُ إِنَّهَا مَفْرُوشَـــةٌ بزَرَابِي، ونَمَارِقَ، ومُزَيَّنَةٌ بالنُّحَاسِ؛ فكَانَ زُجَاجُ القَصْرِ ـ يُنِيرُ القَرْيَةَ؛ فيَعْتَقِدُ أَهْلُهَا أَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ مِنْ بِيْتِ "أحمد ابن القاضي"، وعِنْدَمَا يَنْزِلُ إِلَى القَرْيَةِ يَمْتَطِي حُصَـانَهُ الأَبْيَضَ (وبرنوسـه) ، ويَحْمِلُ بُنْدَقِيَّتَهُ؛ يَبْدُو، وكَأَنَّهُ سَـــحَابَةٌ تَمْشِي ـ عَلَى الأَرْضِ؛ حَتَّى كَلْبِهِ أَبْيَض اللَّوْنِ، ويَجُوبُ أَرَاضِـيهِ الخِصْـبَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ عَلَى مَدِّ البَصَرِ، وكُلَّمَا مَرَّ" سي أحمد" عَلَى مَكَانٍ؛ يُفْسَـــحُ لَهُ الطَّرِيْقُ؛ لهِيْبَتِهِ، وقُوَّتِهِ، وجَمَالِهِ ، ويَقُولُون السَّـمَاءَ لرَبِّي، والأَرْضُ لابن القاضي، وكُلُّ لَيْلَةٍ تُقَامُ الوَلَائِمُ فِي قَصْرِهِ؛ وكُلُّ عَابِرِ سَـبِيلٍ يَقْصِـدُ بَيْتَهُ؛ لكَرَمِهِ، وعِنْدَهُ كَثِيرٌ مِن الأَرَاضِي الشَّاسِعَةِ الَّتِي يَمْلِكُها، مِنْ خَيْرَاتِ القَمْحِ البليوني المُمْتَازِ، وبَسَاتِينُ مِن الفَوَاكِهِ بَعْضُها نَادِرُ الوُجُودِ فِي القَرْيَةِ؟!

- "يَقُولُون أنَّهُ صَـــعِدَ لِلْجَبَلِ؛ مِنْ أَجْلِ الالْتِحَاقِ بالمُجَاهِدِينَ؛ سَمِعْتُ "سي المختار" يُكَلِّمُ ابْنَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ؛ لَمَّا نَزِلَ إِلَى قَعْرِ المَطْمُورِ؛ ليَجْلُبَ لَـهُ ذَخِيْرَةً مِن الأَسْـــلِحَـةِ، والاحْتِيَاجَـاتِ الَّتِي يُرْسِـــلُهَـا إِلَى المُجَاهِدِينَ؛ حَتَّى أَنَا أُرِيدُ أَنِ الْتَحِقَ بِالجَبَلِ؛ ولَكِنَّنِي خَائِفٌ مِنْ "سي المختار"؛ لأَنَّـهُ لَنْ يَجِـدَ مِنْ يَخْـدِمَـهُ مِثْلِي؛ بَقِينَـا أَنَـا وهُوَ وَحْـدَنَـا فِي القَرْيَةِ!!

ذَاتَ يوْمٍ قَالَ اتَّبِعْنِي:

"- آهٍ، الحَمْدُ للهِ أَنَّنِي أَكْمَلْتُ عَمَلِي اليَوْمَ؛ هَكَذَا يَكُونُ رَاضِـــيًا عَنِّي" سي المختار" .

بُكَاءُ الشَّيَاطِينِ

إبراهيم صالح

-"سَأصْدُقُكِ القَوْلَ؛ فَلَا تَتَعَجَّبِي ؛ لَقَدْ أَصْبَحْتُ أَتَأَفَّفُ مِنْ كُلِّ العُطُورِ حتَّى الَّتِي أَعْرِفُها، وتَرُوقُ لِي دَوْمًا، لَمْ تَعُدْ تَجْذِبُنِي رَائِحَةُ أيِّ عِطْرٍ جَدِيدٍ لأيّ امْرَأَةٍ أُقَابِلُها مَهْمَا كَانَتْ جَاذِبِيَتَه!!"

-"نَعَمْ؛ لَقَد اشْـــتَقْتُ لَكِ، ولِعَطْرَكِ الَّذِي صِرْتُ أَسِـــيرًا لَهُ؛ بَلْ كَالمَسْـحُورِ كُلَّمَا أَخَذَنِي تَفْكِيرِي إلَيكِ؛ حِيْنُها تُدَاعِبُ أَنْفِي تِلْكَ الرَّائِحَةُ العَطِرةُ غَامِرةً كُلَّ شيءٍ مِنْ حَوْلِي، كَأَنَّنِي أَغْرِقُ دَاخِلَ قِنِينَةِ عِطْرٍ مُعَتَّقَةٍ مِن الزَّمَنِ القَدِيمِ؛ مَرَّ عَلِيهَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ، ذَلِكَ العَصْرُ ـــالَّذِي مَا زَالَتْ جُذُورُهُ تُحِيطُ بالشَّرْـقِ كُلِّه تُقَيِّدُهُ كَأَغْلَالٍ مِن الحَدِيدِ والنَّارِ؛ فَلَا يَسْـعَى أَحَدٌ لكَسْرِها إلا أَحْرَقَتْهُ؛ وقَطَّعَتْ أَوْصَـالَهُ، لا أَدْرِي أَهَذِهِ لَعْنَةٌ عَتِيقَةٌ قَابِعَةٌ عَلِينَا، قَدِيمَةٌ قِدَمُ الزَّمَنِ ؟! ، أَمْ ضَـــلَالُ التِّيْهِ أَتَى مِنْ عَصْرِـــنَا الحَدِيثِ إِثْرَ ظَلَامِ خَلَّفَتْهُ أَدْخِنَةُ الآلَاتِ ، كُلُّ هَذَا بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي لَمْ أَرَاكِ مِنْ قَبْلُ، ولَمْ أَلْقَاكِ حتَّى صُـدْفَةً ، لَمْ أَرَ سِـوَى صُـورَتِكِ ونَظْرَةِ عِينِيكِ، الَّـذِي يَتَمَلَّكُنِي؛ أَحَنَانٌ يَمْلَأُ أَعْمَاقَ قَلْبِكِ؛ حتَّى طَغَى عَلَى نَظْرَتِكِ الحَانِيَةِ تِلْكَ؟ ،أَمْ هُوَ حُبٌّ نَابِعٌ مِنْ قَلْبٍ صَادِقٍ لا يَعْرِفُ مِن الدُّنْيَا شُرُورَها وأَحْقَادَها؟ لا أَدْرِي مَا هَذَا الشُّعُورُ؛ لا أَدْرِي!! "

-"فَقَطْ لَا أُرِيدُ سِـوَاكِ؛ لَكِنَّنِي مَا زِلْتُ أَخْشَى- عَلِيكِ مِنِّي؛ نَعَمْ، مِنِّي أنا ومِنْ نَفْسِي. ؛ فأَنَا واسْمَحِي لِي بأنْ أُسَمِّيني إنْسَانٌ .... إنْسَانٌ لا يَلْمِسُ شَـيْئًا إلا واحْتَرَقَ، ومَا فَكَّرْتُ بشَيءٍ إلا فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ غَرَقَ ، وكَفَى بهَذَا التَّعْبِيرِ أَنْ أَصِـفَ لَكِ حَيَاةَ مَا صَـنَعْتُ بِهَا شَـيْئًا ذَا فَائِدَةٍ تُذْكَر، وهَا أَنَا مَا زِلْتُ أَكْتُبُ خَوَاطِرِي عَنْكِ مُكَافِحًا؛ لأُعَالِجَ ضَـعْفِي اللُّغَوِي الَّذِي تُبْغِضِينَهُ بجَانِبِ أُمُورٍ أخرى ، مُنْتَظِرًا يَوْمَ اللِّقَاءِ"

مُلْتَقَى بِهِ جَمْعٌ مِن أُنَاسٍ كُثُر فِي حَلَقَاتٍ تَدَاخَلَ بَعْضُـها ببَعْضٍ ، أَصْـوَاتٌ تَتَدَاخِلُ عَلَى المَسَـامِعِ ، وضَـجِيجٌ يُوحِي بانْتِهَاءِ ذَلِكَ الحَدَثِ الَّذِي انْتَظَرْتُهُ بشَغَفٍ، كَمَا كُنْتِ تَنْتَظِرِينهُ عَلَى حَرِّ جَمْرِ الشَّوْقِ إِلَيهِ .

دَاخِلَ قَاعَة "سَـاقِيَة الصَّـاوِي" حَيْثُ يُقَامُ حَفْلُ تَوْقِيعٍ لأَوَّلِ دِيْوَانٍ شِـعْرِي لأَحَدِ أَصْـدِقَائِي ، "أَخُوكِ مصـطفى" ذَاكَ الشَّـاعِرُ صَـاحِبُ المَوْهِبَةِ الفَذَّةِ بشَـهَادَةِ كُلِّ مَنْ قَرَأَ، أَوْ سَـمِعَ شِـعْرَهُ ، لطَالَمَا اخْتَلَفْنَا فِكْرِيًا وثَقَافِيًا، وكَمْ مِنْ مَرَّةٍ تَتَدَخَلِينَ لفَضِّ مُنَاقَشَـاتِنا!!؛ والَّتِي لَمْ تَكُنْ إلا عِبَارَةٌ عَنْ صِدَامٍ بَيْنَ آرَائِي المَادِيَّةِ الَّتِي لا عِلَاقَةَ لَهَا بِالثَّقَافَةِ العَرِبِيَّةِ كَمَا تَقُولِينَ دَائِمًا، أو البَعِيدَة كُلَّ البُعْدِ عَن المَبَادِئ، والقِيَمِ، وأَحْيَانًا عَن الدِّيْنِ كَمَا يَقُولُ "مصطفى" .

بَعْدَ تَهْنِئَتِي الحَارَةِ إِلَيهِ صُدِمَ مِنِّي بذَلِكَ السُّؤالِ المُحْبِطِ :

- "أَتَظُنُّ بِأنَّ كِتَابَةَ الشِّـعْرِ، وتَشَـبُّثَكَ بأفْكَارِكَ المُثِيرَةِ للشَّـفَقَةِ تِلْكَ؛ سَتُسَاعِدُكَ عَلَى العَيْشِ بهَذَا البَلَدِ ؟! "

بنَظْرَةِ الأَسَى المَمْزُوجَةِ بشِيءٍ مِن الغَضَبِ الَّذِي آثَرَ كَتْمَهُ؛ كَانَ رُدَّهُ المُحْرِقِ :

- "وأَتَظُنُّ يَا (فارس) بأنَّ تَزْوِيرَ التَّارِيخِ ونَشْرِ الأَبَاطِيلِ الَّذِي تَفْعَلُهُ فِي كِتَابَاتِكِ هُوَ سَبِيلُ مُوَاكَبَةِ التَّطَوُّرِ والحَدَاثِةِ ؟! ،أَمْ سَبِيلُ نِيْلِ الرِّضَا مِنْ أَسَاتَذِتِكَ وأصْحَابِكَ؛ للحُصُولِ عَلَى المَنَاصِبِ والأَمْوَالِ ؟!! ،هَا هِيَ أَتَتِ الَّتِي تُنْقِذُكَ مِنِّي كُلَّ مَرَّةٍ ، نَظَرَ إِلَيَّ مُبْتَسِمًا ثُمَّ قَالَ :

- "(كرمة) خُذِيهِ بَعِيدًا عَنِّي؛ كَي لا يُعَكِّرَ عَلِيَّ صَفْوَ هَذَا اليَوْمِ"

- "كَفَاكُمَا ،أَلَمْ تَمِلَّا مِنْ نِقَاشَاتِكُمَا الَّتِي لا جَدْوَى مِنْهَا ؛ وكُلٌّ مِنْكُمَا مُتَعَصِّبٌ لرَأْيِهِ ؛ فَلا دَاعٍ مِنْها "

-"يَوْمُها كَانَتِ المَرَّةَ الأَوْلِى الَّتِي أَرَاكِ فِيهَا؛ وأَنْظُرْ إِلَى عِينِيكِ ؛ أَتَحَدَّثُ مَعَكِ دُونَ عَوَائِقَ أَوْ فَوَاصِلَ، ذَلِكَ العَالَمُ الافْتِرَاضِيّ المُسَمَّى بالتَّوَاصُلِ الاجْتِمَاعِيّ "

-"كَأَنَّنِي أَقِفُ فِي فَضَاءٍ ،لا أَرَى، ولا أَسْمَع أيّ مِنْ هَؤُلاءِ النَّاسِ إلا أَنْتِ، ثُمَّ مَشَيتُ مَعَكِ؛ لأُحَدِّثَكِ فكَانَ كَلامًا طَالَمَا اشْتَقْتُ إِليهِ، وحَدِيثًا لَمْ أَرْغِبْ فِي الانْتِهَاءِ مِنْهُ مُطْلَقًا، وطَلَبَتُ أنْ أَظَلَّ برِفْقَتِكِ حتَّى تَصِلِينَ إِلَى بَيْتِكِ؛ فَمَشَينَا سَوِيًا بَعْدَ رَفْضٍ مِنْكَ ثُمَّ اسْتِجَابَةٍ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، ولَمَّا أَمْسَكْتُ بيَدِكِ؛ بَرِقَتْ عَيْنَاي؛ وابْتَسَمْتُ كطَفِلٍ تَمَلَّكَ لُعْبَةً أَعْجَبَتْهُ؛ وأَرَادَ الحُصُولَ عَلِيهَا بأيَّةِ طَرِيقَةٍ .

بَعْدَ مُضِي عِدَّةِ سَنَوَاتٍ لَمْ يَتَغِيَّرْ بِهَا شَيءٌ إلا للأَسْوَأِ ، فِي البِيْتِ الَّذِي طَالَمَا تَخَيَّلَتْهُ وَاحَةً غَنَاءً إلا أنَّ الوَاقِعَ يَصْدِمُنَا بعَكْسِ ذَلِكَ تَمَامًا ، فِي صَبَاحِ يَوْمٍ انْتَظَرْتُهُ كَثِيرًا لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بَالٍ قَطّ أنَّهُ يَحْمِلُ تِلْكَ المُفَارَقَاتِ القَاسِيَةَ .

- "(كرمة) أَمَا زِلْتِ تُصِرِّينَ عَلَى عَدَمِ حُضُورِ حَفْلِ التَّوْقِيعِ اليَوْمَ؛ بالرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ عَمَلِي الأَدَبِي الأَوَّلُ ؟

رَدَّتْ بكُلِّ مَا لَدِيهَا مِنْ تَهَكُّمٍ :

- "أَمَا زِلْتَ تُسَمِّي هَذَا الهُرَاءَ أَدَبًا يا (فارس) ؟!!؛ إلَى مَتَى سَتَظَلُّ تَنْشُرُ أَفْكَارَكَ الضَّالَةَ؛ والَّتِي تُسَمِّمُ بِهَا عُقُولَ النَّاس وبحَقَارَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ" .

حَدَّقْتُ بَها مُتَعَجِّبًا مُحَاوِلًا السَّيْطَرَةَ عَلَى غَضَبِي، أنَّها بصَوْتٍ يَمِيلُ إِلَى الحِدَّةِ :

- "لِمَ الإِهَانَةُ مُجَدَّدًا ؟!؛ لا تُثِيرِي غَضَبِي يَا (كرمة)"

انْتَفَضَتْ مِنْ جِلْسَتِها كَمَنْ لَسَعَهُ عَقْرَبٌ لِتَوِهِ؛ تَسْتَشِيطُ غَضَبًا؛ وَقَفَتْ تَضِعُ وَجْهَهَا أَمَامَ وَجْهِي؛ تَمْرُقُنِي بنَظْرَةٍ مِنْ نَارٍ؛ تُشِيرُ إِلَيَّ بسَبَابَتِها، بوَكْزَةٍ فِي صَدْرِي قَائِلَةً :

- "أَنْتَ مَنْ تُهِينَ نَفْسَكَ، وقَلَمَكَ؛ وتَبِيعُ قِيَمَكَ، ومَبَادِئَكَ، ودِيْنَكَ، وأَخْلَاقَكَ ؛ تَارَةً تَنْشُرُ مَقُولَةً مِنْ "تفسير ابن كثير" بِهَا مِن العِوَارِ والضَّلَالِ؛ مَا لا يَقْبَلُهُ عَقْلٌ ولا دِيْنٌ؛ كَي تَقُولَ للنَّاسِ أنَّ كُتُبَ

التُّرَاثِ مَلَيِئَةً بالخُرَافَاتِ؛ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا؛ إذًا لَزِمَ حَرْقُها والتَّخَلُّصُ مِنْها، وبَعْدَ أنْ بَحَثْتُ عَنْهَا؛ ونَظَرْتُ فِي كِتَابِ" التفسـير لابن كثير"؛ والمَوْجُودُ فِي مَكْتَبَةِ وَالِدِي ؛وَجَدْتُها وَاحِدَةً مِنْ سَـبْعِ أَقْوَالٍ أَوْرَدَها الإِمَامُ فِيمَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الآيَةِ؛ والَّتِي ذَكَرْتُها أَنْتَ؛ لتُفَسِّرَهَا بهَوَاكَ ثُمَّ عَلَّقَ عَلِيها جَمِيعًا بقوله :

(وكُلُّ هَذَا عِنْدِي لَا يَصِحُّ) ثُمَّ ذَكَرَ مَا ثَبَتَ صِحَتُهُ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ؛ وحِيْنَما رَاجِعْتُكَ؛ وبَيَّنْتُها لَكَ؛ تَهَرَّبْتَ مِنِّي ثُمَّ زَعَمْتَ بأنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ تَعْلِيقَ الإِمَامِ؛ فلَمَّا طَلَبْتُ مِنْكَ نَشْرَ تَصْحِيحٍ تَرْجِعُ فِيهِ عَنْ ذَلِكَ العِوَارِ؛ أَخْبَرْتَنِي بأنَّكَ سَتَفْعَلُ؛ وإِلَى هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ تَفْعَلْ؛ و تَارَةً أُخْرَى أَجِدُكَ تَظْهَرُ عَلَى إحْدَى الفَضَائِيَّاتِ؛ لتَقُولَ بأنَّ الصَّحَابَةَ - رِضْوَان اللهِ عَلِيهِم- لَيْسُوا مَلَائِكَةً؛ ولَمْ يَكُنِ النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَانِ يَمْشِي الوَاحِدُ مِنْهم، وهُوَ يُخْفِي جَنَاحِينِ يَخْرُجَانِ مِنْ ظَهْرِهِ تَحْتَ عَبَاءَتِهِ؛ كُلُّ هَذَا التَّهَكُّمِ لفَتْحِ بَابِ الطَّعْنِ فِيهِم؛ وأَخِيرًا مُنْذُ بِضْعَةِ أيَّامٍ اكْتَشَفْتُ أنَّكَ تُحَضِّرُ لرَسَالَةِ دكتوراه فِي أَكْبَرِ مَرَاكِزِ الاسْتِشْرَاقِ فِي العَالَمِ؛ والَّذِي لا يَنْشُرُ إلا الضَّلَالَ الفِكْرِيّ والثَّقَافِي بَيْنَ شُعُوبِنَا العَرَبِيَّةِ؛ إِلَى مَتَى سَتَظَلُّ تَبِيعُ عَقْلَكَ، وقَلَمَكَ، ودِيْنَكَ لمَنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ .

تَحَجَّرْتُ فِي مَكَانِي كَالمَشْلُولِ؛ لا أَدْرِي مَا أَفْعَلُ إلا أنْ أَزْجُرَهَا بقَوْلِي :

- "اصْمُتِي؛ لَقَدْ تَجَاوَزْتِ كُلَّ حُدُودِكِ، فكَمَنْ أَصَابَهُ صَمَمٌ لَمْ تَسْمَعْنِي؛ لتَسْتَدْرَكَ كَلامَها المَصْبُوبَ عَلَى رَأْسِي كَالحِمَمِ؛ لتَقُولَ :

- "لَقَدْ أَصْـبَحْتَ أَخْشَى- أَنْ تَبِيعَنِي أَنَا أَوْ ابْنِي؛ والَّذِي أَحْمِلَهُ فِي بَطْنِي لأَيّ شَـخْصٍ يَدْفعُ الثَّمَنِ مِنْ هَؤُلَاءِ الحُثَالَةِ الَّذِيْنَ يُحِيطُونَ بِكَ؛ ويُغْـدِقُونَ عَلِيكَ بـالأَمْوَالِ نَظِيرَ مَا تَفْعَلُـهُ؛ وتَقُومُ بكِتَـابَتِـهِ ونَشْرِـهِ؛ لتُرْضِيَهم"

-"لَمْ أَشْـــعُرْ بنَفْسِيـــ إلَّا بَعْدَ أنْ هَوَتْ يَدِي عَلَى وَجْهِهَا بلَطْمَةٍ أَسْـقَطَتْهَا عَلَى الأَرْضِ؛ لتَرْتَطِمَ بكُرْسِي الصَّالُونِ القَرِيبِ مِنْهَا؛ فتَسْـقُطَ عَلَى الأَرْضِ مَغْشِـيًّا عَلِيهَا؛ وَقَفْتُ مُتَصَـلِّبًا نَاظِرًا؛ بَعْدَ ذَلِكَ نَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتِيّ أَتَحَسَّسُ جَبِينَها بدُمُوعٍ تَتَسَاقِطُ عَلَى وَجْهِهَا؛ أُنَادِيَها قَائِلًا :

- "كرمة، أَفِيْقِي !! ... رُدِّي عَلِيَّ !!"

دَاخِلَ إحْدَى غُرَفِ العِنَايَةِ المُرَكَّزَةِ الخَاصَّـــةِ؛ تَرْقُدُ امْرَأَةٌ ابْنَةُ الثَّالِثَةِ والثَّلَاثِينَ مَا بَيْنَ الحَيَاةِ والمَوْتِ؛ وبالخَارِجِ أَمَامِ تِلْكَ الغُرْفَةِ يَقِفُ أَمَامِي ذَلِكَ الكَهْلُ؛ والَّذِي شَارَفَ عَلَى السَّـبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ مُوَجِّهًا كَلَامَهُ الزَّاجِرِ إِلَيَّ مِنْ أَبٍ مَكْلُومٍ عَلَى ابْنَتِهِ :

-" أَتَعْلَمُ بِمَـا أَخْبَرَنِي الطَّبِيـبُ ؟!؛ إنَّهـا مُصَـــابَـةٌ بنَزِيفِ إِثْرَ الإجْهَاضِ الَّذِي حَدَثَ لَهَا؛ وكَادَ أنْ يُودِي بحَيَاتِها مَعَ الجَنِينِ، ذَلِكَ الطِّفْـل الثَّانِي الَّـذِي مَاتَ قَبْلَ أنْ تَرَاهُ مِثْـلَ مَنْ كَانَ قَبْلَـهُ؛ وأنَّهـا قَـدْ أُصِيبَتْ بانْهِيَارٍ عَصَبِيّ حَادٍ؛ سَيَطُولُ عِلَاجُهُ نَتِيجَةَ الضُّغُوطِ النَّفْسِيَّةِ القَاهِرَةِ عَلِيهَا؛ كُلَّ هَذَا؛ وهِيَ لَمْ تَعْلَمِ بَعْد بأنَّها لَمْ تَعُدْ تَمْلُكُ القُدْرَةَ عَلَى الحَمْلِ ولا الإنْجَابِ مُجَدَّدًا؛ كُلُّ هَذَا بسَبَبِكَ أَنْتَ؟؟!!"

بدُونِ أيّ تَأَثُّرٍ أَوْ تَعْبِيرٍ يُذْكَرُ عَلَى وَجْهِي إِثْرَ كَلَامِهِ؛ نَفَثْتُ دُخَانَ سِـــيْجَارَةٍ فِي وَجْهِهِ؛ قَبْلَ أَنْ أُطْفِأهَا بِحِذَائِي، ثُمَّ مَا مِنْ حَرْفٍ يُنْطَقُ إلا كَلِمَة وَاحِدَة أُنْهِي بِهَا تِلْكَ الحِكَايَةَ :

- "ابْنَتُكَ طَالِق؛ حِيْنَما تَدْخُلُ إِلَيهَا قُلْ لَهَا أَنَّنِي طَلَّقْتُها!!" .

مَشِيْتُ مُخَلِّفًا تَرِكَةً مِن الدَّمَارِ؛ لَمْ أَحْسِبْ حُدُوثَهُ يَوْمًا أنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الصُّـــورَةِ، مَعَ كُلَّ خُطْوَةٍ أَخْطُوهَا تَدُورُ عَجَلَةُ الذَّاكِرَةِ؛ لتَمُرَّ أَمَامَ عَيْنِي ،عَشْرُ سَـنَوَاتٍ كَشَرِيطٍ سِـينَمَائِيّ؛ واغْرَوْرَقَتْ عَينِي بدُمُوعٍ لَمْ أَعْرِفْها مِنْ قَبْلُ؛ فوَجَدْتَنِي مُعَنِّفًا نَفْسِي؛ أَقُولُ لَهَا :

- "مُنْذُ مَتَى تَعَلَّمَتِ الشَّيَاطِينُ البُكَاءَ ؟!" .

حِيْنَئِـذٍ تَـذَكَّرْتُ يَوْمَ أَرَدْتُ التَّقَـدُّمَ لخِطْبَتِـكِ؛ حِيْنَهـا رَفَضَ (مصـــطفى) بشِـــدَّةٍ ؛كَأَنَّهُ تَوَقَّعَ لَحْظَتَها كُلَّ الَّذِي حَدَثَ طِيْلَةَ فَتْرَةِ زَوَاجِنَا؛ كَانَ بَعِيدَ النَّظَرِ ذا بَصِيرَةٍ فِي قَوْلِهِ :

- "أَنْتُمَا عَلَى طَرَفِي النَّقِيضِ فِكْرِيًا وثَقَافِيًا؛ فكَيْفَ سَـــتُكُونُ الحَيَاةَ بَيْنَكُمَا إلا صِرَاعٌ مُحْتَدِمٌ، وجَحِيمٌ لا يُطَاقُ ؟!؛ هَـذِهِ الزِّيْجَـةُ مَصِيرُها الفَشَلُ مَهْمَا طَالَتْ!!" .

لَمْ يُثْنِـهِ عَنْ مَوْقِفِـهِ إلا بَعْـدَ رُؤيَتِـهِ لتَمْسُـــكِكِ بإتْمَامِ الزَّوَاجِ وتَوْضِيحِ نَظْرَتِكِ لَهُ؛ فأَخْبَرَنِي بنَفْسِهِ بالمُوَافَقَةِ وتَحْدِيدِ مَوْعِدٍ لمُقَابَلَةِ وَالِدِكُمَا؛ فلمَّا ظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِي آثَارُ الدَّهْشَـةِ والتَّعَجُّبِ المَمْزُوجَتَانِ بالفَرْحَةِ؛ لمُوَافَقَتِهِ وتَغْيِيرِ مَوْقِفِهِ المُفَاجِئ؛ قَالَ :

- "لَا تَتَعَجَّبْ يَا(فارس)؛فأَنَا مَا زِلْتُ عَلَى قَنَاعَتِي مِنْ مَصِيرِ تِلْكَ الزِّيْجَةِ"

- "ومَا هُوَ السَّـبَبُ الَّذِي جَعَلَكَ تُوَافِقُ؛ مَا دُمْتَ تَرَى أنَّ زَوَاجِي مِنْ (كرمة)؛ سَيُدَمِّرُ حَيَاتَها ؟!"

- "لا شِيءَ أَكْثَرُ مِنْ أَمِلَها بأنَّ زَوَاجَكُمَا؛ سَيَكُونُ سَبَبًا فِي هِدَايَتِكَ وعَوْدَتِكَ لرُشْـدِكَ؛ هَذَا فَقَطْ هُوَ الَّذِي جَعَلَنِي أُفَكِّرُ فِي أنَّهَا مِن المُمْكِنِ أنْ تَكُونَ قَدْ رَأَتْ فِيْكَ شـيئًا لَمْ أَرَاهُ بالرَّغْمِ مِنْ صَـدَاقَتِنَا الطَّوِيلَةِ، كَثِيرٌ مِن النَّاسِ يُغَيِّرُوا قَنَاعَـاتِهم وآرَائِهم؛ بَلْ ومُعْتَقَـدَاتِهم؛ فلرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ؛ ويَتَبَدَّلُ حَالُكَ وفِكْرُكَ؛ لتَكُونَ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْتَ عَلِيهِ الآنَ!!"

أَخَذَنِي التَّفْكِيرُ كَثِيرًا دُونَ جَدْوَى، كَمَنْ يَسْـــبَحُ فِي بَحْرٍ مَا لَهُ مِنْ شَاطِئ، تَارَةً أَقُولُ لنَفْسِي :

- "هَلْ هِيَ مُحِقَّةٌ فِي قَوْلِها، ومَا تَأْمَلُهُ ليَأْتِي عَلِيَّ يَوْمٌ يَتَغَيَّرُ فِيهِ فِكْرِي؛ لأَكُونَ مِثْلَ (مصطفى) بأفْكَارِهِ الَّتِي أَكَلَ عَلِيهَا الدَّهْرُ وشَرِبَ ؟!،

وتَارَةً أُخْرَى أَقُولُ:

- "أَمْ أَنَّها خُدِعَتْ بكَلَامِي المَعْسُـولِ؛ فكَثِيرًا مَا سَـمِعَتْهُ؛ وأَحَبَّتْ سَـمَاعَهُ مِنِّي؛ فسَـقِطَتْ فِي شِـبَاكِ الهَوَى بالرَّغْمِ مِنْ فِطْنَتِها؛ كأيّ امْرَأَةٍ تَغَلَّبَتْ عَلِيهَـا عَـاطِفَتُهـا؛ فَلَا تَرَى الـدُّنْيَـا مِنْ حَوْلَهـا إلا بعُيُونِ قَلْبِهـا المَسْحُورِ بحَلَاوَةِ الحُبِّ وكَلَامِهِ، ولَوْ كَانَتْ أَذْكَى نِسَاءِ الأَرْضِ" .

-"مَا أَرَدْتُ خِدَاعَكِ يَوْمًا قَطْ؛ لأَنَّكِ أَحَبُّ نِسَاءِ الكَوْنِ إِلَى قَلْبِي؛ لَكِنَّ دَوْمًا مَا يَدُورُ بخُلْدِي سُؤالٌ لَمْ أَجِدْ لَهُ إجَابَةً أبَدًا :

- "هَلْ مِن المُمْكِنِ أنْ نُؤذِي مَنْ نُحِبُّ، أَوْ نُسَبِّبُ لَهُم ضَرَرًا مَا، سَوَاءً كَانَ بقَصْدٍ أَوْ بدُونِ قَصْدٍ ؟!"

-"هَا أنَا ذَاكَ المَغْرُورُ؛ لأَعُودَ بتِلْكَ المِشْيَةِ الثَّابِتَةِ والنَّظْرَةِ الثَّاقِبَةِ، ثُمَّ ابْتِسَامَةٍ هَادِئَةٍ كقَطْعَةٍ سُكَّرٍ مَسْمُومَةٍ أُلْقِي بِهَا لِتَلْكَ المَرْأَةِ الوَاقِفَةِ أَمَامَ بَوَّابَةِ المَشْفَى، عَيْنَاها السَّوْدَاوَانِ، وشَعْرُهَا الأَسْوَدِ، كَلِيلِ غُرَّةِ شَهْرٍ عَرَبِيّ لَمْ يُرَ هِلَالُهُ؛ فَهُوَ مَسْدُولٌ بسَوَادِهِ يُغَطِّي كَامِلَ ظَهْرِهَا، قِصْرِ قَامَتِها، قَدُّهَا الَّذِي يَمِيلُ إِلَى السِّمْنَةِ؛ إنَّها تُشْبُهُ (كرمة) كَثِيرًا، بَيْدَ أنَّنِي سَوْفَ أَرَى مُعْظَمَ النِّسَاءِ تُشْبِهُهَا لفَتْرَةٍ مِن الوَقْتِ؛ رُبَّمَا تَطُولُ قَلِيلًا، أَمْ قَدْ حَانَ دَوْرُهَا هِيَ الأُخْرَى؛ لتَلْقَى مَصِيرَ مَنْ كَانَتْ قَبْلَها ؟!".

-"دَاخِلَ أَشَدِّ سُجُونِ الدُّنْيَا قَسْوَةً عَلَى الإطْلَاقِ ذِلَكِ الحَبْس الانْفِرَادِيّ المُسَمَّى بالقَفَصِ الصَّدْرِيّ؛ تَقْبَعُ مُضْغَةٌ تُسَمَّى (القلب)؛ تَمْلَأُ فَضَائِي الدَّاخِلِيّ صُرَاخًا، و بُكَاءً، وعَوِيلًا؛ تَنُوحُ؛ وتَقُولُ :

- "أَلَم أُحَذِّرْكِ ؟!؛ أَلَمْ أَقُلْ لَكِ أنَّنِي أَخْشَى عَلَيكِ مِنِّي ؟!؛ أَخْبَرْتُكِ بِألا تُصَدِّقِينِي ؛ فَلِمَ تُصَدِّقِينِي !!"

تَفْتَحُ عَيْنِيها، وهِيَ تَلْقفُ أَنْفَاسَها كالغَرِيقِ؛ وتِلْكَ الكَلِمَةُ تَهْمِسُ فِي أُذُنِها :

-"فَلِمَ تُصَدِّقِينِي!!!"

فتُرَدِّدُ قَائِلَةً :

-"لَيْتَنِي مَا صَدَّقْتُكَ!!"

لتَجْدَ ذَلِكَ الصَّوْتَ الحَنُونَ بجِوَارِها قَائِلًا :

-"حَمْدًا للهِ يَا ابْنَتِي عَلَى سَــلَامَتِكِ؛ وعَلَى طَلَاقِكِ وخَلَاصِــكِ مِنْهُ!!"

فِي نَفْسِ القَاعَةِ الَّتِي جَمَعْنَا بِهَا أَوَّل لِقَاءٍ؛ أَتَذَكَّرُ كُلَّ مَا مَضَى- بَعْدَ أَنْ سَافَرَ (مصطفى) لضِيقِ رِزْقِهِ هُنَا؛ بسَبَبِ الحَرْبِ الَّتِي شَنَّهَا عَلِيهِ بَعْضٌ مِنْ أَرْبَابِ الثَّقَافَةِ، والحَدَاثِةِ، والتَّنْوِيرِ؛ والَّذِيْنَ أَدْعُوهُم أَسَاتَذِتِي الكِبار؛ فكَادُوا أنْ يَزُجُوا بِهِ فِي السَّــجْنِ؛ بتُهْمَةِ اعْتِنَاقِ أفْكَارٍ تَكْفِيرِيَّةٍ؛ فَلَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ ذَلِكَ المَأْزَقِ الوَعْرِ إلا اسْتِجَابَة اللهِ عَزَّ وجَلَّ دُعَاءَ أَبِيهِ وأُخْتِهِ؛ ثُمَّ حُسْــن حَظِّهِ عِنْدَمَا وَجَدَ وَكِيلَ النَّيَابَةِ - مَسْــؤُول التَّحْقِيقِ فِي التُّهْمَةِ المَنْسُــوبَةِ إِلِيهِ- أَحَدَ أَصْــدِقَائِنَا القُدَامَى فِي الجَامِعَةِ؛ فَكَانَ عَلَى دِرَايَةٍ جَيدَةٍ بالأُصُــولِ الفِكْرِيَّةِ لَدَى (مصــطفى)، ومُتَابِعًا لأَعْمَالِهِ الأَدَبِيَّةِ القَلِيلَةِ جِدًّا؛ فهُوَ عَارِفٌ بِهِ، وبفِكْرِهِ البَعِيدِ كُلِّ البُعْدِ عَنْ تِلْكَ الأَفْكَارِ التَّكْفِيرِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ للدِّيْنِ والمُجْتَمَعِ، كَمَا أَنَّهُ عَلَى دِرَايَةٍ تَامَّةٍ بكَيْفِيَّةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الفِكْرِ المُحَافِظِ الَّذِي تَرَبَّى عَلِيهِ (مصــطفى)، والفِكْر التَّكْفِيرِيّ الضَّال؛ ثُمَّ وَسَاطَتِي عِنْدَ أَسَاتَذِتِي هَؤُلاءِ؛ طَالِبًا مِنْهُم التَّنَازُلَ عَمَّا قَدَّمُوهُ فِي حَقِّهِ مِنْ تُهَمٍ؛ ذَلِكَ المَوْقِفُ المُشِــينُ الَّذِي جَاءَ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ كَأَنْ لمْ يَكُنْ؛ ومَا دَارَ بَيْنَنَا مِنْ نِقَاشَــاتٍ حَادَّةٍ قَبْلَ سَــفَرِهِ؛ بَعْدَ حُصُــولِهِ عَلَى الدكتوراه فِي الأَدَبِ العَرَبِيّ؛ والَّتِي لَمْ تَشْــفَعْ

لَهُ عِنْدَ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بالجَامِعَةِ؛ والَّتِي رَفَضَـــتْ تَعْيِينَهُ للمَرَّةِ الثَّانِيةِ دُونَ أَسْـــبَابٍ مَنْطِقِيَّةٍ؛ مِثْلَمَا فَعَلُوا أَوَّلَ مَرَّةً بَعْدَ تَخَرُّجِهِ بالرَّغْمِ مِنْ تَفَوُّقِهِ البَالِغِ؛ فَقَدْ كَانَ الأَوَّلَ عَلَى دُفْعَتِهِ بامْتِيَازٍ طِوَالَ سَنَوَاتِ دِرَاسَتِهِ الجَامِعِيَّةِ، أَتَخَيَّلُ نَفْسِيـــ تِلْكَ الأَيَّامِ، كَمَنْ يَشْـــمُتُ فِي خَصْـــمِهِ بَعْدَ خَسَارَتِهِ المَعْرَكَةَ؛ فَلَا هُوَ الَّذِي انْتَصَرَ بشَرَفٍ كَالفُرْسَانِ النُّبُلاءِ، ولَا هُوَ الَّذِي أَعْطَى الفُرْصَـــةَ لخَصْـــمِهِ لتَطْبِيبِ جِرَاحَهُ؛ ليُكْمِلَ القِتَالَ، أَوْ يَنْسَـــحِبَ مَهْزُومًا؛ هَذَا إِنْ كَانَتْ فِي الأَصْـــلِ مَعْرَكَةٌ؛ أَوْ إِنْ كَانَ الخَاسِرَ الحَقِيقِيّ بِهَا هُوَ ذَاكَ؛ لَكِنَّهُ صَـــدِيقِي الَّذِي خَسَرْـــتُهُ؛ فَلَنْ أَسْـــتَطِيعَ تَعْوِيضَـــهُ أَبَدَ الدَّهْرِ؛ و مِنْ بَعْدِهِ زَوْجَتِي الَّتِي لَمْ أُحَافِظْ عَلِيهَا؛ ولَمْ أُوَّفِيهَا قَدْرَ حُبِّهَا لِي؛ ولَمْ أَكُنْ زَوْجًا صَـــالِحًا يُوَفِّرُ لَهَا حَيَاةً طَيِّبَةً؛ فتَرْكْتُها بَعْدَ ضَـــيَاعِ أَجْمَلِ سِـــنِينِ عُمْرِها كَالبَيْتِ الخَرِبِ؛ وابْنِي الَّذِي قَتَلْتُهُ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ؛ بسَبَبِ حَمَاقَتِي وغُرُورِي، و .....

يُقَاطِعُ التَّجَوُّلَ بَيْنَ جَنَبَاتِ الذِّكْرَيَاتِ صَوْتٌ بَغِيضٌ قَائِلًا :

- "أسْـــتَاذ (فارس) أَمَا زِلْتَ جَالِسًـــا هُنَا؛ والكُلُّ يَبْحَثُ عَنْكَ بالخَارِجِ؟!؛ لَقَدْ انْتَهَى الحَفْلُ مُنْذُ وَقْتٍ؛ هَلْ نَسِـــيتَ مَوْعِدَ تَكْرِيمِكَ اللَّيْلَةَ ؟!؛ إِنَّهُ سَـــيُذَاعُ مُبَاشَرَةً عَلَى ثَلَاثِ فَضَـــائِيَّاتٍ؛ الحَقِيقَةُ أَنْتَ عَبْقَرِيٌّ؛ فَرُوَايَتُـكَ حَقَّقَـتٍ مَبِيعَـاتٍ ضَـــخْمَـةٍ؛ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِـة آلافِ نُسْخَةٍ فِي أَوَّلِ أُسْبُوعٍ لنَشْرِهَا؛ حتَّى اخْتِيَارِكَ للاسْمِ عَبْقَرِي:

(دِمَاءٌ عَلَى أَبْوَابِ أُورشَلِيم)!!!

-"يَا سَلام عَلَى الإبْدَاعِ يَا أُسْتَاذَنَا" .

-"نَظَرْتُ إِلَى ذَلِكَ الشَّـــخْصِ القَـادِمِ نَحْوِي؛ وقَـد اقْتَرَبَ مِنْ مَقْعَدِي مُحَدِّثًا نَفْسِي :

- "نَبْرَةُ النِّفَـاقِ والتَّمَلُّقِ هَـذِهِ أَعْرِفُهَـا جَيـدًا؛ أَنَـا مِنْ أَكْثَرِ النَّـاسِ دِرَايَةً بِهَا؛ فَكَمْ مَارَسْـــتُها كَثِيرًا مَعَ مَنْ كَانُوا هُنَا قَبْلِي، ثُمَّ اعْتَدَلْتُ فِي جِلْسَتِي؛ أَتَهَيَّأُ للنُّهُوضِ مُشِيرًا لَهُ بيَدِي، وبصَوْتٍ مُخْتَنَقٍ قَائِلًا :

- "شـشـشـش ، لا تُكْثِرْ مِن الكَلَامِ؛ هَيَّا تَحَرَّكَ أمَامِي؛ كَي لا أتَأَخَّرَ عَلَى مَوْعِدِ التَّكْرِيمِ؛ فَالوَزِيرُ سَيَحْضُرُ بنَفْسِهِ اللَّيْلَةَ" .

-"أَكَادُ أنْ أُجَنَّ؛ بسَبَبِ مَطْلَعِ تِلْكِ القَصِيدَةِ الَّتِي لَمْ يُكْمِلْهَا بَعْدُ؛ كَانَتْ آخِرَ مَا كَتَبَ قَبْلَ سَـفَرِهِ؛ فَلَا يَنْفَكُّ صَـدَى صَـوْتِها يَتَرَدَّدُ فِي أُذُنِي لَيْلَ نَهَارَ، كَمَا كَانَتْ تُرَدِّدُهَا (كرمة) حِيْنَمَا تَتَرُكُنِي بَعْدَ كُلِّ نِقَاشٍ دَارَ بَيْنَنَا؛ ولا أَجِدُ رَدًّا عَلِيهَا، دَائِمًا كَأخِيهَا؛ أشْـعَارُهُ كَسِـيَاطٍ مِنْ لَهَبٍ يَجْلِدُ بِهِ ظُهُورَ خُصُومِهِ.

رُحماكِ .... كَفَاكِ طنينًا في أُذُنِي؛ فقد سئمتُها عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ :

بغداد يا حصن الخلافة بت مدمرا

ودمشق قصر بني أمية واراه الثرى

فردوسنا المفقود أندلسًا ***

مِنْ كثرة الخذلان ضاع وانبرا

وبني عثمان لما وهنوا *

نهشتهم كلاب بني الأصفرا

واليوم نسأل أين أقصانا ؟! *

كيف السؤال والكل بات مقصرا؟!

صرنا كغثاء سيل، زبدًا رابيًا *

لا نفعٌ يُرْجَى ولا شَأْنٌ له مُقَدَّرَا .

أديرا

يوسف حسين

-"أَعْرِفُ يَا وَطَنِي أَنَّكَ تَقِفُ أَمَامَ أُمْنِيَاتِي عَاجزًا، وهُنَاكَ المَلَايِينُ لَوْ تَمَنُّوا أُمْنِيَةً وَاحِدَةً فَقَطْ لكُلِّ وَاحِدٍ؛ فرُبَّمَا تَقْفِزُ مِنْ رَأْسِ الكَوْكَبِ مُنْتَحِرًا للفضاء!!؛ لَكِنْ مَاذَا نَفْعَلُ ؟!

-"أَحْيَانًا نَتَمَنَّى أَنْ نَقْتُلَكَ تَمَامًا؛ ونَبِيعَكَ كَأَعْضَـــاءٍ دَاخِلِيَّةٍ لِلْأَجَانِبِ مُقَابِلَ الخُبْزِ بَدَلًا مِن المُتَاجَرِةِ بِكَ كَمُومِسٍ !!؛ كَمَا يَفْعَلُ قَوَّادُو العَصْرِ؛ مَنْ مَنْحَتَهُم كُلَّ شَيءٍ عَلَى حِسَابِنَا؛ فَقَرَّرُوا الحَجْزَ عَلَى أَمْلَاكِكَ ومُصَادَرَتِها ؛ورَبْطِ أَرْجُلِكَ بالقُفْلِ كَالمَجْنُونِ!!؛ تَرَكُوكَ تَتَجَوَّلُ فِي مُدِنِنَا وصُدُورِنَا!!

؛لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُخْبِرَكَ، أنْ نَشْكُو لَكَ، أنْ نَتَذَمَّرَ مِنْكَ، أَنْ نَبْكِي مَعَكَ؛ أنْ نُبْكِيكَ!!

وَبُكُلِّ تَأْكِيدٍ نَمُرُّ بِجَانِبِكَ مِثْلَ طِفْلَةٍ صَـــغِيرةٍ تَمُرُّ بِجَانِبِ أَبِيهَا المَجْذُوبِ ،دُونَ أنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُخْبِرَهُ بِأُمْنِيَاتِهَا".

فِي عَامِ ثَمِانٍ وسِـــتينَ وتُسْـــعُمَائَة وأَلَفٍ، وتَحْدِيدًا فِي مَدِينةِ العَرِيشِ كانتْ هُنَاك فَتَاةٌ تُدْعَى "أديرا"، فَتَاةٌ مِنْ أَصْلٍ يَهُودِيّ نَشَأَتْ،

وتَرَعْرَعَتْ بِبَلْدَةِ "حيفا" ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى العَرِيشِ قَبْلَ النَّكْسَـــةِ بعِدَّةِ أَعْوَامٍ ،عَمِلَتْ كَرَاقِصَـــةٍ فِي إِحْدَى الحَانَاتِ الَّتِي كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلِيهَا بَعْضُ ضُبَّاطِ اليَهُودِ، وأَيْضًا المِصْرِيُّونَ، وتَحْدِيدًا فِي الأَوَّلِ مِنْ "تشرين" للعَامِ الَّذِي تَلَا النَّكْسَـــةَ؛ تَمَّ القَبْضُ عَلِيهَا مُتَلَبِّســـة بجَرِيمةِ قَتْلِ العَقِيدِ "فرغلي المنوفي"؛ بَعْدَ أنْ أَفْرَغَتْ عُبُوَّةَ مُسَـدَّسِـهِا كَامِلَةً فِي صَـدْرِهِ ؛ثُمَّ تَمَّ إحَالَتُها إِلَى المَحْكَمَةِ العَسْكَرِيَّةِ؛ والَّتِي قَضَتْ بإعْدَامِهَا شَنْقًا.

بَعْدَ مُرُورِ عِدَّةِ أَشْـهُرٍ؛ جَاءَ يَوْمُ تَنْفِيذِ الحُكْمِ؛ وتَحَرَّكَ المُكَلَّفُونَ بالتَّنْفِيذِ نَحْوَ زِنْزَانَتِها؛ ليَصْـــحَبُوهَا إِلَى مَثْوَاهَا الأَخِيرِ؛ كَانُوا يَتَغَامَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُم عَنْ حَالَتِها؛ عِنْدَمَا تَتَفَاجَأ بفَتْحِهم لِلْبَابِ واصْـــطَحَابِها، مِنْهُم مَنْ قَالَ :

-"سَـــنَجِدُهَا جُثَّةً هَامِدَةً؛ فَالرُّعْبُ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْهِي حَيَاتَهَا، أَوْ رُبَّمَا انْتِظَارُ المَوْتِ هُوَ مَنْ سَيَقْتُلُهَا، وَأَحَدُهُم قَالَ:

-"رُبَّمَا لَمْ تَمُتْ؛ لَكِنَّها عَجَزَتْ؛ فقَدَمَاهَا لَنْ تَحْمِلَاهَا بَعْدَ الآنَ!!، وثَالِثُهُم تَحَدَّثَ بسُخْرِيَةٍ:

-"سـنَجِدُ مَلَابِسَـــها مُبَلَلَةً مِثْلَ طِفْلَةٍ رَضِـيعَةٍ لَمْ تَعِ مَا تَفْعَلُ؛ سَـتَتَبَوَّلُ دُونَ إِرَادَةٍ مِنْهَا، فَتَحُوا البَابَ؛ فَاتَّسَـعَتْ أَعْيُنُهُم فِي صَـدْمَةٍ وَاضِحَةٍ؛ عِنْدَمَا رَأَوَها تَقِفُ بِصُمُودٍ مُتَفَاخِرَةً بنَفْسِهَا، مَلَابِسُها نَظِيفَةٌ تُزِيدُهَا جَمَالًا عَلَى جَمَالِها، وخُصْلَاتُ شَعْرِهَا الذَّهَبِيّ تُدَاعِبُ وَجْنَتِيها، وعِينيها الغَجَرِيتِينِ خَزَانَةٌ لحَبَّاتِ الكَرِيسْـــتَالِ الَّلاتِي يَلْمَعْنَ دَاخِلَهُمَا؛ حِينَها تَهَكَّمَ عَلِيهَا أَحَدُهُم بِالكَلَامِ؛ حَيْثُ قَالَ:

-"أَيَّتُهَا الخَائِنَةُ؛ لِمَ تَتَبَاهِينَ هَكَذَا بجَسَـــدِكِ ؟!!؛ بَعْدَ قَلِيلٍ سَتُصْبِحِينَ جُثَّةً هَامِدَةً؛ طعامًا للدُّودِ!!".

نَظَرَتْ إِلَيهِ؛ والابْتِسَامَةُ تَطْفُو عَلَى مَلَامِحِها ثُمَّ أَخْفَضَتْ بَصَرَها دُونَ حَدِيثٍ؛ مِمَّا جَعَلَهُم جَمِيعًا يَسْـتَشِـيطُونَ غَضَـبًا مِنْهَا؛ فتَقَدَّمَ أَحَدُهُم؛ وقَبَضَ عَلَى ذِرَاعِها بعُنْفٍ ثُمَّ سَـــارَ بِهَا نَحْوَ الخَارِجِ؛ كَانَتْ خُطُوَاتُها تَسْـبِقُهُم ؛وكَأَنَّهَا عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَى حَبِيبِهَا؛ والَّذِي دَامَ فُرَاقُهُمْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ عَامًا، هَذَا العُمْرُ الَّذِي قَضَتْهُ عَلَى سَطْحِ هَذَا الكَوْكَبِ؛ فَاليَوْمُ هُوَ المُكَمِّلُ لِلْعِقْدِ الثَّالِثِ لَهَا، يَوْمُ مِيلَادِها ..يَوْمُ مَوْتِها !!

سَـــارَتْ مَعَهُم بخُطًى ثَابِتَةٍ حَتَّى تَجَاوَزُوا الطُّرْقَةَ الطَّوِيلَةَ قَبْلَ وُصُـــولِهم إِلَى غُرْفَةِ الإِعْدَامِ؛ وعِنْدَمَا وَصَـلُوا إِلَى هُنَاكَ سَـبِقَتْهُم هِيَ بخُطُوَاتِها دَاخِلَ الغُرْفَةِ؛ لَمْ يَدْخُلْ مَعَها سِوَى الضَّابِطِ المُمْسِكِ بِهَا، والبَاقِيينَ ظَلُّوا فِي الخَارِجِ يَرْمُقُونَهَا بنَظَرَاتِ التَّعَجُّبِ!!

تَفَحَّصَـــتِ الغُرْفَةَ بعِينِيهَا؛ فَهِيَ حُجْرَةٌ مُتَطَرِفَةٌ عَلَى اليَمِينِ؛ لَا تَتَمَيَّزُ عَنْ بَقِيَّةِ حُجْرَاتِ السِّـجْنِ سِوَى بِالكَلِمَةِ المَكْتُوبَةِ عَلِيهَا :"غُرْفَةُ الإِعْدَامِ" ؛الكِتَابةُ كَانَتْ باللَّوْنِ الأَحْمَرِ، لَوْن الدَّمِّ، وكَأَنَّهَا تُشِـــيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الغُرْفَةَ لَا تَعْرِفُ سِوَى هَذَا اللَّوْنِ، كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْتَدِي زِيًّا مُمَاثِلًا؛ كَي يُذَكِّرَهَا بدِمَاءِ ضَحَايَاهَا.

ثَبَّتَتْ عِينِيها عَلَى الكَلِمَةِ المَكْتُوبَةِ الَّتِي أَجَادَتْ نُطْقَهَا بِالعَرَبِيَّةِ ثُمَّ قَالَتْ بصَوْتٍ مَسْمُوعٍ:

-"لَسْـــتِ غُرْفَةَ إعْدَامٍ؛ بَلْ أَنْتِ مَعْبَرٌ سَـــأَعْبَرُهُ؛ كَي أَلْحَقَ بالنُّورِ الَّذِي تَخَلَّفْتُ عَنْهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ؟!!".

قَالَتْ كَلِمَاتِها ثُمَّ الْتَفَتْ بجَسَـــدِها إِلَى الخَلْفِ؛ وأَشَـــارَتْ بِيَدِهَا أَنَّهَا جَاهِزَةٌ لتَنْفِيذِ الحُكْمِ فِيهَا؛ مِمَّا جَعَلَ الجَمِيعُ يَتَسَاءِلُونَ:

-"مَا سِرُّ هَذِهِ القُوَّةِ والصُّـــمُودِ اللَّذِيْنِ يُحِيطَانِها؛ويَظْهَرَانِ عَلَى مَلَامِحِها؟!

تَسَـاؤُلَاتٌ دَارَتْ فِي مُخَيلَتِهم، ولَا جَوَابٌ؛ سَـادَ الصَّـمْتُ قَلِيلًا أَرْجَاءَ المَكَانِ؛ حَتَّى أَمَرَ القَائِدُ الرَّجُلَ المُكَلَّفَ بتَنْفِيذِ الحُكْمِ تَجْهِيزَهَا لِلْإِعْدَامِ، لَمْ تَكُنْ تَسْـمَعُ حَدِيثَهم؛ بَلْ كَانَتْ تَقِفُ أَمَامَ المِنَصَّـةِ تَتَأَمَّلُها وتَبْتَسِـمُ؛ رَأَتْ حِيْنَهَا شَـخْصًـا يَقِفُ عِنْدَها يَفْتَحُ ذِرَاعِيهِ؛ ليَحْتَضِـنَها؛ فَهَرْوَلَتْ نَحْوَهُ؛ حتَّى أَنَّهَا أَفْلَتَتْ ذِرَاعَها مِن القَابِضِ عَلِيهِا؛ أَثَارَ رَكْضُـها فُضُـــولَ الوَاقِفِينَ جَمِيعًا المُنْتَظِرِينَ أَنْ يَرَوْهَا بنَفْسِ حَالَةِ السَّـــالِفِينِ؛ والَّذِيْنَ حَضَرُـوا إزْهَاقَ أَرْوَاحِهم عَلَى هَذِهِ الخَشَـــبَةِ العَنِيفَةِ، أَدْخَلتْ رَأسَـــها دَاخِلَ حَلَقَةِ المَشْـنَقَةِ ثُمَّ اتَّسَـعَتِ ابْتَسَـامِتُها؛ أَصَـابَتْ بهَذِهِ الابْتِسَامَةِ عُقُولَ الجَمِيعِ؛ لَا يَعْرِفُونَ لِمَاذَا تَبتَسِمُ هَكَذَا؟!، العَسَاكِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، والضُّـــبَاطُ وكَذَلِكَ بَعْضُ القِيَادَاتِ؛ الكُلُّ فِي حَالَةِ ذُهُولٍ؛ ومَنَصَّةُ الحُكْمِ بالإعْدَامِ أَصْبَحَتْ جَاهِزَةً؛ الحَبْلُ مَلْفُوفٌ حَوْلَ رَقَبَتِها؛ وعَيْنَاهَا تُعْلِنُ عَنْ سَـــعَادَتِها، حَبَّاتُ الكِرِيسْـــتَالِ تَتَلَألأُ فِيهُمَا، وثِمَارُ التُّفَاحِ الأَحْمَرِ مَرْسُـــومَةٌ عَلَى وَجْنَتِيها، عَكْسَ مَنْ سَـــبَقُوهَا ؛فكُلُّ مَنْ وَقَفَ مَكَانَها سَـــالِفًا كَانَتْ عَينَاهُ بَارَقَةً؛ الخَوْفُ مِنْ مَوْتٍ مَحْتُومٍ كَانَ

يَجْعَلُ أَطْرَافَهُ تَرْتَعِشُ؛ حَتَّى يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُوضَــعَ حَبْلُ المَشْنَقَةِ حَوْلَ رَقَبَتِهِ!!

يَدْخُلُ فِي إِغْمَاءٍ، وكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَمُرَّ بسُرْعَةٍ إِلَى ظَلَامٍ وسُــكُونٍ أَبَدِيينِ، هِيَ عَكْسُ ذَلِكَ؛ هِيَ صَامِدَةٌ مُبْتَسِمَةٌ ثَابِتَةٌ؛ لَا تَرْتَعِدُ أَوْصَالُهَا؛ وَلَا تَشْــعُرُ بالرَّهْبَةِ مِنْ مَجْهُولٍ قَادِمَةً إِلِيهِ؛ وُضِــعَ عَلَى رَأْسِــها غِطَاءٌ أَسْـوَدُ اللَّوْنِ ثُمَّ فُتِحَتِ الطَّبْلِيَّةُ أَسْـفَلَ قَدَمِيهَا؛ سَـقَطَتْ فِي بِئْرٍ عُمْقِها أَرْبَعَةُ أَمْتَارٍ إِلَّا أَنَّ رَقَبَتَها لَمْ تَنْكَسِرْ؟!؛ سَـقَطَتْ تُصَارِعُ الاخْتِنَاقَ، حَالَةٌ مِن الفَشَلِ وَاجَهَتْهَا لَجْنَةُ الإِعْدَامِ؛ أَمَرَ القَائِدُ بتَرْكِهَا حَتَّى تَلْفَظَ أَنْفَاسَها الأَخِيرَةَ؛ حِيْنَها اخْتَفَتِ الابْتِسَــامَةُ مِنْ عَلَى وَجْهِهَا؛ كَانَتْ تَرَى نُورًا يُضِيء عَتْمَةَ عِينِيهَا المَحْجُوبَتِينِ عَن الرُّؤيَةِ.

مَرَّ أَمَامَها شَرِيطُ حَيَاتِها؛ حِيْنَ كَانَتْ فِي الرَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا؛ كُلَّمَا كَانَتْ تَنْظُرُ أُمُّهَا إِلَى وَجْهِهَا البَرِيء؛ كَانَ قَلْبُهَا يَمْتَلِئُ بالسَّعَادَةِ والسُّرُورِ؛ حَتَّى أَنَّهَا هَتَفَتْ بتَعَجُّبٍ:

-"أديرا، أَنْتِ الفَتَاةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي وُلِدَتْ فِي هَذَا الكَوْنِ مُبْتَسِمَةً ؛ لا أَعْلَمُ السِّرَّ فِي هَذَا؛ لَكِنَّها مَشِيئَةُ الرَّبِ، كُلُّ مَا أَعْلَمُهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَكِ شَــأْنٌ عَظِيمٌ مِثْلَ وَالِدَةِ "موسى" أَوْ أُخْتِهِ، عَزِيزَتِي الكَونُ يَبْتَسِــمُ مِنْ خِلَالِكِ؛ والرَّبُ يُعْلِنُ عَنْ سُرُورِهِ فِي تَبَسُّمِكِ؛ والتُّوْرَاةُ تُبَارِكُكِ!!".

مَشْهَدٌ مَرَّ مِنْ أَمَامِ عِينِيها؛ فَشَهَقَتْ شَهْقَةً مُرْعِبَةً عِنْدَما تَحَوَّلَ وَجْهُ أُمِّهَا الخَمْرِيّ إِلَى نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ ثُمَّ تَغَيَّرَ لَوْنُها هِيَ؛ ومَالَ إِلَى الاصْـفِرَارِ

كَلَيْمُونَةٍ ذَابِلَةٍ!!، كَغَيْمَةٍ مُرْهَقَةٍ حَطَّتْ رِحَالَها الأَخِيرَ فَوْقَ سَفْحِ الجَبَلِ!!

دَقَائِقُ وَعْيها الأُولَى جَعَلَتْهَا تَبْكِي بِغَزَارَةٍ رَغْمَ اخْتِنَاقِها؛ لَكِنَّهَا ابْتِسَمَتْ دُونَ إِرَادَةٍ؛ وكَأَنَّ أَحَدًا جَاءَ بِلَوْحٍ مِنْ ثَلْجٍ ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى مَوْضِعِ سُخُونَتِها؛ كَي يَقْتُلَ حَرَارَةَ أَلَمِهَا؛ عَادَتْ نَضَارَةُ بَشَرَتِهَا إِلَى طَبِيعَتِها؛ عِنْدَمَا مَرَّ عَلِيهَا طَيْفُها، وهِيَ بَنْتُ الحَادِيَةِ عَشْرَ مِنْ عُمْرِهَا ؛عِنْدَمَا قَامَتْ بأَخْذِ يَدِ عَجُوزٍ كَانَتْ تُحَاوِلُ أَنْ تَعْبُرَ الشَّارِعَ؛ ثُمَّ أَعْطَتْهَا وَجْبَةَ طَعَامٍ كَانَتْ قَدْ وَضَعَتْهَا أُمَّهَا لَهَا فِي حَقِيبَتِها أَثْنَاءَ ذَهَابِهَا لِلْمَدْرَسَةِ، عَادَتْ لِلْبُكَاءِ مَرَّةً أُخْرَى؛ وارْتَعَشَ جَسَدُهَا بِشِدَّةٍ حِيْنَ رَأَتْ نَفْسَها بَيْنَ أَحْضَانِ غَرِيبٍ عِنْهَا؛ حَيْنَ كَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ عَشَرَ مِنْ عُمْرِهَا ،عِلَاقَةٌ مُحَرَّمَةٌ مَعَ شَابٍ أَعْجَبَها طَلْعَتَهُ ولَبَاقَتَهُ فِي الحَدِيثِ؛ مِمَّا جَعَلَها تَدْفَعُ بجَسَدِهَا بَيْنَ أَحْضَانِهِ ؛كَي تَحْظَى بلَحَظَاتِ السَّعَادَةِ، السَّعَادَة الَّتِي ظَنَّتَها حَقِيقِيَّةً؛ لَكِنَّها بَعْدَ عِدَّةِ عِلَاقَاتٍ قَضَتْهَا مَعَ الرِّجَالِ؛ عَلِمَتْ أَنَّهَا وَهْمِيَّةٌ، البَشَرُ يُوهِمُونَ أَنْفُسَهم بِهَا ،ولَوْ أَنَّهُم نَظَرُوا بعُقُولِهم إِلَى عِلَاقَةِ الحَيَوَانَاتِ؛ لفَهَمُوا أَنْ لا فَرْقَ بَيْنَهم؛ لَكِنَّ العُقُولَ حِيْنَ تَتَّبِعُ الشَّهَوَاتِ؛ تُطْمَسُ كَمَا تُطْمَسُ الأَبْصَارُ عِنْدَ اعْتِرَاضِ العَقْلِ عَلَى رُؤيَةِ الحَقِيقَةِ، المَوْتُ يَلِفُّ حِبَالَهُ حَوْلَها؛ وارْتِجَافُ جَسَدِهَا يَكَادُ يُزْهِقُ رُوحَها؛ والمَشَاهِدُ التَّالِيَةُ تَجْعَلُهَا تَصْرُخُ أَلَمًا بقَلْبِهَا، اليَدَانِ سَاكِنِتَانِ بجِوَارِ جَسَدِهَا، والحَيَاةُ تُعِيدُ نَفْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ أَمَامَ عَقْلِهَا، مَشْهَدُ زِيَارَتِها الأُولَى لأَرْضِ سِيْنَاء، شَعْرُهَا الذَّهَبِيُ المُسْتَرْسِلُ خَلْفَ ظَهْرِهَا، فُسْتَانُهَا القَصِيرُ الَّذِي يُظْهِرُ أَكْثَرَ مِمَّا يُخْفِي،

عَيْنَاهَا العَسَــلِيتَانِ اللَّتَانِ تَجْذِبَانِ إِلِيهَا كُلَّ ذَكَرٍ، صُــعْلُوكًا كَانَ أَوْ أَمْيرًا، عَرَبيًا حَتَّى أو أَعْجَمِيًا؛ كُلُّ مَنْ رَآهَا يُصِيبُهُ سِحْرُ عَينِيهَا؛ فَيَقَعُ أَسِيرًا لَهَا ؟!

جَاءَتْ إِلَى العَرِيشِ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهَا؛ بَحَثَتْ عَنْ عَمَلٍ؛ فَلَمْ تَجِدْ شَـيْئًا مُنَاسِـبًا لَهَا سِـوَى أَنْ تَعْمَلَ رَاقِصَـةً فِي حَانَةٍ؛ لَمْ تَتَرَدَّدْ لَحْظَةً فِي قُبُولِ العَمَلِ، فِي يَوْمِها الأَوَّلِ عَاشَرَتْ صَـاحِبَ الحَانِةِ؛ فَمَنَحَهَا سَـكَنًا يُؤوِيهَا؛ ثُمَّ بَدَأَتْ بمُمَارَسَــةِ الرَّذِيلَةِ مَعَ زَبَائِنِها، كَانَتْ تَعْشِــقُ وَطَنَها إِسْرَائِيلَ؛ وتَمْقُتِ العَرَبَ والمَصْرِيــينَ، فَرْحَتُها بنَكْسَــةِ المِصْرِيــينَ وانْهَزَامِهم؛ فَاقَتْ فَرْحَةَ "أم موسى" بضِمِّ وَلِيدِهَا إِلَى صَدْرِهَا.

إِنَّهَا الآنَ تَرْتَعِدُ بشِـدَّةٍ؛ يَعْتَصِرُ قَلْبَهَا أَلَمٌ؛ كُلَّمَا مَرَّ أَمَامَهَا جُزْءٌ مِنْ حَيَاتِهَا، غَيْمَةٌ حَضَرَتْها عَلَى هَيْئَةِ بَشَرٍ؛ أَمْطَرَتْهَا رَحْمَةٌ وغُفْرَانٌ، ضَابِطٌ مِصْرِيّ فِي الثَّلاثِينيَاتِ مِنْ عُمْرِهِ، شَــعْرُهُ أَسْــوَدُ قَصِــيرٌ، عَيْنَاهُ بُنِّيَتَانِ تَمِيلَانِ إِلَى اللَّوْنِ العَسَــلِيّ، أَرْنَبَةُ أَنْفِهِ سِــوَاكٌ صَــغِيرٌ، وشَــفَتَاهُ لَوْحَةٌ مَرْسُومَةٌ بعِنَايَةٍ، قَوِّي البُنْيَانِ، مَدِيدُ القَامَةِ.

لَمَحَتْهُ يَمُرُّ مِنْ أَمَامِ مَنْزِلَهَا؛ لَمْ يَمُرَّ بسَــلَامٍ؛ بَلْ خَطَفَ قَلْبَهَا مَعَهُ؛ وسَــارَ بِهِ حَتَّى أَنَّها تَخَلَّتْ عَنْ مَوْضِــعِهَا؛ وتَحَرَّكَتْ خَلْفَهُ، خُطُواتٌ بَسِــيطَةٌ، ودَلَفَ دَاخِلَ البِنَايَةِ؛ لَمْ تَسْــتَطِعْ أَنْ تَتَحَمَّلَ اخْتِفَاءَهُ؛ هَرْوَلَتْ خَلْفَهُ؛واسْتَوقَفَتْهُ بصَوْتِها فَوْقَ الدَّرَجَاتِ الأُولَى:

-"يَا أَنْتَ "...

الْتَفَتَ إِلِيهَا؛ فحَدَّقَتْ فِيهِ بذُهُولٍ؛ عِنْدَمَا بَاتَتْ مَلَامِحُهُ أَكْثَرَ وُضُوحًا لَهَا؛ ثُمَّ هَمَسَتْ فِي نَفْسِها :

-"خُطْوَةٌ بَيْنِي وبَيْنَ النُّورِ؛ ويَدِي عَنْ لَمْسِهِ عَاجِزَةٌ"

أَخْرَجَهَا مِنْ شُرُودِهَا؛ حِيْنَ قَالَ :

-"مَنْ ؟"

تَخَلَّتْ عَنْ خَجَلِها الَّذِي لَمْ تَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا حِيْنَ رَأَتْهُ؛ وقَالَتْ:

-"أُرِيدُ المَبِيتَ مَعَكَ اللَّيْلَةَ!!"

احْمَرَّتْ وَجْنَتِيهِ ثُمَّ أَشَاحَ بوَجْهِهِ بَعِيدًا عَنْهَا؛ واسْتَمَرَّ فِي الصُّعُودِ؛ لَمْ تَتَوَقَّفْ عِنْدَ ذَلِكَ؛ بَلْ صَعَدَتْ خَلْفَهُ حَتَّى دَلَفَ إِلَى شَقَّتِهِ؛ وَأَغْلَقَ البَابَ، تَسَمَّرَتْ مَكَانَهَا؛ وتَسَاءَلَتْ :

-"مَنْ هَذَا؟!؛ وكَيْفَ اقْتَحَمَنِي بهَذِهِ الطَّرِيقَةِ السَّلِسَةِ؛ كَيْفَ فَعَلَ هَذَا ؟!"

رَفَعَتْ يَدِيهَا إِلَى السَّمَاءِ؛ وقَالَتْ :

-"يَا رَبَّ مُوْسَى أَجِبْنِي".

دَقَائِقُ مَرَّتْ؛ وهِيَ عَلَى حَالَتِهَا؛ تَمَنَّتْ لَوْ يَفْتَحُ لَهَا البَابَ ثُمَّ يَدْعُوهَا لمُجَالَسَتِهِ؛ حَتَّى لَوْ طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُقَبِّلَ قَدَمِيهِ لفَعَلَتْ؛ لَكِنَّ الأَمَانِي دَائِمًا لَا تُحَقَّقُ، سَحِبَتْ جَرْأَتَها مِنْ قَلْبِها؛ ووَضَعَتْهَا أَمَامَهَا؛ ثُمَّ أَمَرَتْهَا أَنْ تَدُقَّ البَابَ؛ لَعَلَّ جَسَدَهَا المَمْشُوقَ يُغْرِيهِ؛ فَيَسْتَقْبِلُها؛

لِتَحِلَّ ضَـــيْفَةً عَلَى فِرَاشِـــهِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ طَرَقَتِ البَابَ طَرْقَةً خَفِيفَةً فَأُخْرَى؛ ثُمَّ أَسْـقَطَتْ حَمَّالَةَ فُسْـتَانِها مِنْ عَلَى كَتِفِها الأَيْسَرِ؛ كَي تُبْرِزَ مَفَاتِنَها.

عَـاوَدَتِ الطَّرْقَ مِنْ جَـدِيـدٍ؛ فَتَحَ البَابَ؛ فَرَآهَـا أَمَـامَـهُ؛ عِنْـدَمَـا وَقَعَتْ عَينَاهُ عَلَى المَكْشُـــوفِ مِنْ جَسَـــدِهَا؛ أَخْفَضَ بَصَرَـهُ ثُمَّ قَالَ بارْتِبَاكٍ:

-"مَاذَا تُرِيدِينَ ؟!"

ضَـــحِكَتٍ بدَلَالٍ ثُمَّ تَقَدَّمَتْ بخُطُوَاتِها نَحْوَهُ؛ فتَنَحَّى جَانِبًا؛ دَلَفَتْ دَاخِلَ الشَّـــقَةِ ؛وجَلَسَـــتْ عَلَى أَوَّلِ مَقْعَدٍ قَابَلَهَا فِي طَرِيقِهَا؛ ثُمَّ وَضَعَتْ قَدَمًا فَوْقَ أُخْرَى؛ وتَحَدَّثَتْ بجَرْأَةٍ :

-"أَغْلِقِ البَابَ خَلْفَكَ؛ ودَعْنَا نَتَحَدَّثُ بهُدُوء".

لَمْ يُعِرْ أَيّ اهْتِمَامٍ لحَدِيثِها؛ بَلْ ظَلَّ مُتَسَـــمِرًّا عِنْدَ البَابِ، بَيْنَمَا الصَّمْتُ والذُّهُولُ نَامَا عَلَى شَفَتِيهِ، وكَذَلِكَ بَصَرُهُ الَّذِي ظَلَّ يُحَدِّقُ بِهِ أَرْضًـــا، تَحَدَّثَتْ كَثِيرًا، ولَا جَوَابُ؛ كَأَنَّها تُحَدِّثُ جَمَادًا؛ كَادَتْ أَنْ تَنْزَعَ جَمِيعَ مَلَابِسِـــها؛ كَي تُثِيرَ غَرِيزَتَهُ؛ لَكِنَّ نُفُورَهُ مِنْهَا؛ مَا زَادَهَا إِلَّا انْجِذَابًا إِلَيهِ، نَهَضَـــتْ عَنْ مَقْعَدِهَا؛ وتَحَرَّكَتْ نَحْوَهُ؛ اقْتَرَبَتْ مِنْهُ؛ حَتَّى أَنَّهَا هَمَّتْ عَلَى احْتِضَـانِهِ؛ لَوْلَا أَنَّهُ وَضَـعَ يَدَهِ كحَائِطِ صَـدٍّ يَمْنَعُ جَسَـدَهَا مِن الالْتِحَامِ بجَسَدِهِ ؛ثُمَّ بصَوْتٍ خَشِنٍ قَالَ:

-"مَا تَفْعَلِينهُ الآنَ قَدْ يُعَرِّضُــكِ لِلْخَطَرِ؛ فَنَحْنُ فِي حَالَةِ حَرْبٍ؛ ويَبْدُو أَنَّكِ لَسْتِ مَصْرِيَّةً؛ وهَذَا يَدْفَعُنِي لاعْتِقَالَكِ!!"

صَكَّتْ شَدْقِيهَا إِثْرَ حَدِيثِهِ؛ وقَالَتْ :

-"لَقَد اعْتَقَلْتَنِي حَقًّا؛ وأَصْبَحْتُ أَسِيرَةً بَيْنَ يَدِيكَ!!"

ضَيَّقَ عِينيهِ إِثْرَ حَدِيثِها ثُمَّ ابْتَعَدَ عَنْهَا بخُطُوَاتِهِ؛ وقَالَ بحَزْمٍ :

-"أَرْجُوكِ أُخْرِجِي؛ أُرِيدُ أَنْ أُصَلِّي"

بِكُلِّ بُرُودٍ أَجَابَتْ :

-"أُرِيدُ أَنْ أُشَاهِدَكَ وأَنْتَ تُصَلِّي!!"

زَفَرَ بضِــيقٍ ثُمَّ تَجَاهَلَهَا؛ وتَوَجَّهَ نَحْوَ حَمَّامِهِ؛ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا سَتَخْجَلُ مِنْهُ وتَذْهَبُ ، دَقَائِقُ، وخَرَجَ يُجَفِّفُ وَجْهَهُ بمِنْشَفَةٍ؛ أَلْقَاهَا عَلَى المَقْعَدِ؛ وجَلَبَ سِجَّادَتَهُ مَنْ عَلَى الطَاوِلَةِ؛ وفَرَشَهَا أَرْضًا ثُمَّ كَبَّرَ؛ ودَخَلَ فِي صَــلَاتِهِ، كَانَتْ تُشَــاهِدُهُ بذُهُولٍ؛ رَقَّ قَلْبُهَا عِنْدَمَا سَــمِعْتِ القُرْآنَ بصَــوْتِهِ العَذْبِ الرِّقْرَاقِ؛ حَاوَلَتِ الهُرُوبَ مِنْ سَــمَاعِ صَــوْتِهِ، لَمِحَتْ بعَينِيها سَرِيرَهُ دَاخِلَ غُرْفَةِ نَوْمِهِ؛ تَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ؛ بَضْعُ تَنَهُّدَاتٍ حَارَةٍ خَرَجَتْ مِنْهَا؛ عِنْدَمَا رَأَتْ فِرَاشَــهُ مُهْمَلًا خَلْفَهُ دُونَ تَرْتِيبٍ؛ ويَحْمِلُ آثَارَ نَوْمِهِ؛ حَرَّكَتْ نَظَرَهَا نَحْوَ المَقْعَدِ المُجَاوِرِ لِلْفِرَاشِ؛ فَرَأَتْ نِصْــفَ كَأْسِ مَاءٍ قَدْ حَنَا عَلِيهِ بلَمْسِ ثَغْرِهِ؛ شَرِبَتْ مَا تَبَقَّى مِنْهُ؛ وكَأَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تُقَاسِــمَهُ كُلَّ شِيءٍ؛ وإِنْ كَانَ رَغْمًا عَنْهُ، فِنْجَانُ قَهْوَتِهِ مَا زَالَ مَوْضُــوعًا عَلَى الطَّاوِلَةِ؛ حَدَّقَتْ فِيهِ بتَمَعُّنٍ ثُمَّ فَعَلَتْ نَفْسَ مَا فَعَلَتْهُ

بِالمَاءِ، كَانَ ثَمَّةُ رِسَـــالَةٍ بخَطٍّ يَدِهِ بجِوَارِ الفِنْجَانِ ؛ أَمْسَـــكَتْ بِهَا ثُمَّ بَدَأَتْ بقِرَاءتها؛ كَانَتْ بِدَايَتُهَا : هَذَا العَالَمُ يَا نَزْفِي الَّذِي لَا يَجِفُّ ولا يَسَـعْنِي؛ فَأَجْنِحَتِي تَحْتَاجُ عَالَمًا آخَرَ ...عَالَمًا أَجِدُكِ فِيهِ، أَنَا التَائِهُ بَيْنِ الأَوْرِدَةِ الزَّرْقَاءِ، والخَضْرَاءِ، والمُلَوَّنَةِ، والمُلْتَوِيَةِ؛ أَوْرِدَةٌ عَمِيقَةٌ وغَامِضَةٌ تَفْتِكُ بِي؛ وتَجْعَلُنِي أَبْحَثُ عَن الجَدِيدِ؛ لَكِنَّي لَنْ أَنْسَى- مَلْمَسَ أَوْرِدُتِكِ الحَمْرَاءِ بخَدَّيكِ وحَرَارَتَها.

.....

الْتَقَطَ الوَرَقَةَ مِنْ يَدِهَا؛ قَبْلَ أَنْ تُكْمِلَ قِرَاءَتَهَا ثُمَّ هَتَفَ بغَضَبٍ:

-"مَنْ أَذِنَ لَكِ بِالدُّخُولِ إِلَى هُنَا؛ أَلَا تَحْتَرِمِينَ حُرْمَةَ المَكَانِ الَّذِي أَنْتِ بدَاخِلِهِ؟!"

شَعَرَتْ حِيْنَهَا بالخَجَلِ؛ فخَفَضَتْ بَصَرَهَا؛ وقَالَتْ مُعْتَذِرَةً :

-"آسِفَة!!"

لَمْ يَنْظُرْ إِلَيهَا؛ بَلْ أَشَارَ بيَدِهِ نَحْوَ الخَارِجِ ثُمَّ قَالَ :

-"أَرْجُوكِ اُتْرُكِينِي؛ وارْحَلِي؛ فمَا تَبْحَثِينَ عَنْهُ؛ لَنْ تَجِدِيهِ هُنَا"

تَحَرَّكَتْ نَحْوَ الخَارِجِ ثُمَّ تَسَمَّرَتْ عِنْدَ بَابِ الغُرْفَةِ؛ وقَالَتْ :

-"لِمَاذَا تُحَارِبُونَنَا؛ تَكْرُهُونَنَا وتَغْتَصِبُونَ أَرَاضِينَا المُقَدَّسَةَ ؟!"

قَالَ بصَوْتِ الوَاثِقِ مِنْ عَقِيدَتِهِ:

-"نَحْنُ لَا نَكْرَهُ إلا المُغْتَصِــبِينِ؛ ولا نُحَارِبُ إلا المُعْتَدِينِ؛ ولا نَغْتَصِبُ حَقًّا مِنْ حُقُوقِنِا؛ الأَرْضُ مِلْكٌ لَنَا!!".

دَارَ بَيْنَهُمَا حَدِيثٌ طَوِيلٌ؛ اسْــتَطَاعَ فِيهِ أَنْ يُقْنِعَهَا بمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ؛ حَيْثُ سَرَدَ لَهَا قِصَّــةَ أَرْضِ الفَيْرُوزِ عَبْرَ العُصُــورِ المُخْتَلِفَةِ؛ بَدَأَ بمَا سَطَّرَهُ التَّارِيْخُ الحَدِيثُ والقَدِيمُ؛ واسْتَشْهَدَ بصُورَةِ المَلِكِ "سمرخت" سَابِع مُلُوكِ الأُسْرَةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ الأُولَى، قَبْلَ مَائَتِي عَامٍ بَعْدَ الأَلْفِيَّةِ الثَّالِثَةِ قَبْلَ المِيْلَادِ؛ عِنْدَمَا قَادَ حَمْلَةً عَسْــكَرِيَّةً إِلَى "وَادِي المَغَارَةِ" مَوْطِن مَنَاجِمِ الفَيْرُوزِ فِي سَيْنَاءَ ضَدَّ البَدْو الرُّحَّلِ هُنَاكَ؛ مُسَجِّلًا أَخْبَارَ حَمْلَتِهِ بنَقْشٍ عَلَى قِطْعَةٍ مِن الصَّــخْرِ وعَلِيهَا صُــورَتُهُ؛ والَّتِي تُعَدُّ أَقْدَمُ أَثَرٍ فِي أَرْضِ الفَيْرُوزِ؛ وتَبِعَهُ مُلُوكُ تِلْكَ الأُسْرَةِ بحَمَلاتٍ ومَعَارِكَ مُشَابِهَةٍ ضِدَّ الطَّامِعِينَ والمُعْتَدِينِ؛ كَمَا اسْتَشْهَدَ بالاسْمِ الَّذِي يُطْلِقُهُ عَلِيهَا اليَهُودُ؛ وهُوَ "حوريب" أَرْضُ الخَرَابِ؛ حِيْنَ وَجَّهَ لَهَا سُؤالًا :

-"لِمَاذَا تُحَارِبُونَ مِنْ أَجْلِ أَرْضٍ تُطْلِقُونَ عَلِيهَا هَذَا الاسْمَ ؟!!"

صَمَتَتْ؛ ولَمْ تُجِبْهُ؛ فاسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ بالرَّدِّ عَلَى سُؤالِهِ:

-"أَأُجِيبُكِ أَنَا ؟؛ لأَنَّكُم مُغْتَصِبُوهَا!!"

-"(إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ).

سَــقَطَتْ دَمْعَةٌ مِنْ عِينِيها سَــهْوًا؛ فتَابَعَ حَدِيثَهُ دُونَ الالْتِفَاتِ إِلَيهَا :

-"لَوْ كَانَتْ أَرْضَـكُم حَقًّا؛ لِمَا أَصْـبَحَتْ مَطْمَعًا ومَغْنَمًا لَكُم؛ فَفِي عَامِ اثْنِينِ وتُسْـعَمَائِةِ وأَلْفٍ؛ عِنْدَمَا وَصَـلَتْ لَجْنَةُ "هرتزل"- مُؤَسِّـسُ الحَرَكَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ- إِلَى سَيْنَاءَ؛ وطَلَبَتْ مِن السُّلُطَاتِ البِريطَانِيَّةِ تَأْجِيرَ سَاحِلِ سَيْنَاءَ؛ لإِقَامَةِ مُسْتَوطِنَاتٍ يَهُودِيَّةٍ فِيهِ؛ لَمْ يَمُرَّ عَامٌ وَاحِدٌ حَتَّى أَعلَنَ "هرتزل" عَنْ نِيَّتِهِ، وهِيَ: إقَامَةُ مُسْـتَعْمَرَاتٍ يَهُودِيَّةً فِي سَـيْنَاءَ؛ عَلَى أَنْ يَبْدَأُ بالعَرِيشِ.

وفِي الخَامِسِ والعِشْرِيـن مِنْ "تشرين" مِن العَامِ التَّالِي؛ طَلَبَ "هرتزل" إجْرَاءَ التَّرْتِيبَاتِ اللَّازِمَةِ للتَّوْقِيعِ عَلَى عَقْدِ اسْـتِئْجَارِ سَـيْنَاءَ؛ والعَرِيشِ بِحَيْثُ تَكُونُ مُدَّةُ الامْتِيَازِ تِسْعًا وتِسْعِينَ عَامًا؛ ثُمَّ كَشَفَ فِي العَامِ ذَاتِهِ عَنْ رِسَـالَةٍ سِرِّيَّةٍ مِنْهُ إِلَى المِلْيُونِيرِ اليَهُودِيّ "روتشـيلد"؛ يُبْلِغُهُ فِيهَا عَنِ انْهِيَارِ خُطَّةِ اسْـتِعْمَارِ سَـيْنَاءَ والعَرِيشِ؛ بسَـبَبِ رَفْضِ مِصْرَ.

-"قُولِي برَبِّكِ مِنْ مِنَّا المُغْتَصِبُ ؟!".

دَفَنَتْ بَصَرَهَا أَسْـفَلَ قَدِمِيهَا دُونَ حَدِيثٍ ثُمَّ بَدَأَتْ بهَزِّ رَأْسَـها خَجَلًا؛

فَرَغْمُ حُبِّهَا الشَّدِيدِ لبَنِي جِنْسِها، ودِفَاعُهَا المُسْتَمِيتُ سَالِفًا عَنْ حَقِّهم فِي أَرْضِ سَـيْنَاءَ؛ إِلَّا أَنَّهَا لأَوَّلِ مَرَّةً تُومِئ برَأْسِـها عِدَّة مَرَّاتٍ دَلِيلًا عَلَى اقْتِنَـاعِهَا بتَعَـدِّي أَهْلِهَا عَلَى حُقُوقِ غَيْرِهم؛ وعِنْـدَمَا تَيَّقَنَ أَنَّهَا اقْتَنَعَتْ بِمَا قَالَهُ؛ تَنَفَّسَ بارْتِيَاحِيَّةٍ؛ وبَدَأَ يَنْظُرُ إِلَيهَا؛ اسْـتَشَـفَّ البَرَاءَةَ مِنْ عِينِيهَا؛ فَظَلَّ يُحَدِّقُ فِيهُمَا؛ اجْتَمِعْتِ النَّظَرَاتُ مَعًا فِي صُـدْفَةٍ

غَرِيبَةٍ؛ ارْتَجَفَ قَلْبُهُ؛ شَـــعَرَ بانْجِذَابٍ غَرِيبٍ نَحْوَهَا؛ إنَّهَا المُخَاطَرَةُ حَقًّا؛ الحَرْبُ البَارِدَةُ الَّتِي قَدْ يَقِعُ أَسِيرَانِ فِيهَا؛ كَانَ يَوَدُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُ؛ كَلِمَةٌ ظَلَّتْ حَبِيسَـــةَ نَفْسِـــيهُمَا؛ كَانَتْ تَلْهُو كَالطِّفْلَةِ فِي أَحْضَـــانِهُمَا؛ وتُدَغْدِغُ أَحْلَامَهُمَا؛ خَافَا كِلَاهُمَا أَنْ يَتَفَوَّهَ بِهَا؛ وسَـــهْوًا ضَـــاعَتْ وَسْـــطَ زَحْمَةِ الكَلِمَاتِ، وَسْـــطَ النَّظَرَاتِ العَمِيقَةِ تَحَدَّثَتْ "أديرا" إِلَى نَفْسِها قَائِلَةً:

- "أَوَدُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ مَرَّةً أُخْرَى؛ وهُوَ يَقْرَأُ كِتَابَهُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِي صَـلَاتِهِ؛ لا أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَجْذِبُنِي إِلَى كِلِيهُمَا؛ ولَكِنْ أَخَافُ أَنْ أَطْلَبَ مِنْهُ هَذَا؛ وفِي غَفْلَةٍ مِنِّي يَهْوَى بِي صَـــوْتُهُ إِلَى قَاعِ بِئْرٍ لا قَرَارَ لَهَا، ولا أَرْوِي مِنْهَا العَطَشَ؟!"

لَمْ تَسْـــتَطِعْ أَنْ تَتَفَوَّهَ أَمَامَهُ بمَا حَدَّثَهَا قَلْبُهَا؛ كُلُّ مَا كَانَ عَلِيهَا فِعْلُهُ؛ كَي تَكْبَحَ عَاطِفَتَها المُتَدَفِقَةَ دُونَ لِجَامٍ؛ تُرِيدُ أَنْ تَنْهَضَ؛ وتَهِمَّ بالانْصِرَافِ؛ وبالفِعْلِ فَعَلَتْ؛ وتَحَرَّكَتْ نَحْوَ الخَارِجِ؛ فاسْتَوْقَفَهَا سُؤَالُهُ حِيْنَ قَالَ:

-"مَا اسْمُكِ؟"

الْتَفَتَتْ إِلِيهِ رَغْمًا عَنْهَا؛ وابْتَسَمَتِ ابْتِسَامَةً مَمْزُوجَةً بالدُّمُوعِ ثُمَّ أَجَابَتْ :

-"أديرا...."

رَفَعَ رَأْسَهُ نَحْوَهَا ثُمَّ تَابَعَ بعَدَمِ فَهْمٍ :

-"لَمْ أَفْهَمْ مَعْنَى الاسْمِ؛ هَلَا أَفْصَحْتِ عَنْ مَعْنَاه!!"

دَقَّ قَلْبُهَا دَقَّاتٍ غَرِيبَةً؛ شَعَرَتْ حِيْنَها أنَّ حَدِيثَهُ مَا هُوَ إلَّا لأَجَلِ بَقَائِهَا بَعْضَ الوَقْتِ مَعَهُ؛ كَذَلِكَ نَبْرَةُ صَوْتِهِ الَّتِي مَالَتْ إِلَى الحُنُوِ؛ فازْدَادَ شُعُورُهَا بالسَّعَادَةِ، سَعَادَةٌ لَمْ تَشْعُرْ بِهَا مِنْ قَبْلُ؛ أَيْقَنَتْ حِيْنَهَا أنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَخْرُجُ مِنْ شِفَاهِ مَحْبُوبِها خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ عِلَاقَةٍ جَسَدَيَّةٍ مَعَ غَرِيبٍ؛ ظَلّتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا؛ وهُوَ يَتَأَمَّلُ مَلَامِحَهَا؛ لا يَعْرِفُ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يُبْقِيهَا مَعَهُ؛ لَكِنَّهُ لأَوَّلِ مَرَّةً يَشْعُرُ بشِيءٍ غَيْرِ مُعْتَادٍ تِجَاهَ أُنْثَى بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجَتِهِ؛ عَيْنَاهَا تَسْحَرُهُ، وخُصْلَاتُ شَعْرِهَا تَسْتَهْوِيهُ، وشَفَتَاهَا يَخْرُجُ الشَّهْدُ مِنْهُمَا عَلَى هَيْئَةِ كَلِمَاتٍ؛ لَكِنَّ مَلَابِسَهَا تَجْعَلُ بَدَنَهُ يَقْشَعِرُّ؛ فَهُوَ لَا يَهْوَى الحَلْوَى المَكْشُوفَةَ، ولا يَتَنَاوَلُ طَعَامًا وَضَعَ أَحَدٌ فَمَهُ عَلِيهِ قَبْلَ أَنْ يُطَهِّرَهُ، عَزِيزُ النَّفْسِ يَأْبَى أَنْ يَنْظُرَ لحَاجَةِ غَيْرِهِ، نَامَ الصَّمْتُ عَلَى الشِّفَاهِ، والجَوَارِحُ أَصْبَحَتْ تُجَادِلُ وتُنَاقِشُ مَشَاعِرَهُمَا؛ حَتَّى بَادَرَتْ هِيَ بالحَدِيثِ؛ وأَعْرَبَتْ عَن اسْتِعْدَادِهَا للإِجَابَةِ عَنْ سُؤالِهِ؛ وقَالَتْ :

-"تَوَدُّ حَقًّا أَنْ تَعْرِفَ مَعْنَى اسْمِي..."

أَوْمَأَ برَأْسِهِ إيْجَابًا؛ بَعْدَ أَن ارْتَسِمَتِ الابْتِسَامَةُ عَلَى شَفَتِيهِ؛ تِلْكَ الابْتِسَامَةُ أَعْطَتْهَا جُرْعَةَ أَمَانٍ واطْمِئْنَانٍ؛ فَأَرْدَفَتْ:

"-أديرا اسْمٌ عِبْرِيّ يُطْلَقُ عَلَى المَرْأَةِ القَوِيَّةِ؛ وتَتَّسِمُ صَاحِبَةُ هَذَا الاسْمِ بالقُدْرَةِ على تَسْيِيرِ كَافَّةِ الأُمُورِ؛ بفَضْلِ حِكْمَتِهَا، وقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهَا؛ ولِذَلِكَ فَهِيَ إدْارِيَّةٌ وقِيَادِيَّةٌ نَاجِحَةٌ"

شَــعَرَ بوَكْزَةٍ قَوِيَّةٍ فِي قَلْبِهِ إِثْرَ تَفْسِــيرِها؛ فَكَمْ يَكْرَهُ بَنِي قَوْمِهَا!!؛ لَقَدْ تَسَــبَّبُوا فِي قَتْلِ الكَثِيرِينَ مِنْ زُمَلَائِهِ؛ ولَمْ يَكْتَفُوا بهَذَا؛ بَلْ قَتَلُوا زَوْجَتَهُ وجَنِينَهَا، طِفْلَهُ الّذِي لطَالَمَا كَانَ يَحْلُمُ بِهِ، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى؛ لَمْ يَكُنْ يَهِمَّهُ؛ الَّذِي كَانَ يَهِمُّهُ حَقًّا هِيَ نَبْتَتُهُ الَّتِي زَرَعَهَا فِي رَحِمِ مَنْ أَحَبَّ؛ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَرَاهَا أَمَامَ عِينِيهِ تَبْكِي، تَصْرُـخُ، تَحْبُو، تَمْشِيـ عَلَى أَرْبِعٍ ثُمَّ قَدَمِينِ ثُمَّ يُدَاعِبُهَا، يُسَــامِرُهَا، يُعَلِّمُهَا فُنُونَ الحَرْبِ، والحُبِّ، والقِتَالِ، وأُصُـولَ دِيْنِهِ؛ قَتَلُوا حِلْمَهُ؛ وتَرَكُوهُ جَسَـدًا بِلَا رُوحٍ؛ والآنَ رَوْحٌ جَدِيدَةٌ تَخْتَرِقُهُ مِنْ سُلَالَتِهم!!

-"يَا لهَذَا القَدَرِ؛ لا أَعْرِفُ مَا الَّذِي يُدَبِّرُهُ لِي؛ لَكِنِّي أَثِقُ بِهِ؛ فَكُلُّ مَا يَخْتَارُهُ خَيْرٌ لِي؛ وإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ فِتْنَةً وعَذَابًا!!".

حَدَّثَ نَفْسَــهُ بهَذَا، ومَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ عَقْلِهِ لتَهْبِطَ عَلَى قَلْبِهِ كَخِنْجَرٍ مَسْــمُومٍ؛ كَانَتْ تَسْــقُطُ مِنْ عِينِيهِ دَمْعَةٌ حَارَةٌ، لَمْ يَنْتَبِهْ لوُجُودِهَا، وفِي نِهَايَةِ حَدِيثِهِ انْخَرَطَ فِي البُكَاءِ؛ فاقْتَرَبَتْ مِنْهُ؛ ورَبِتَتْ عَلَى كَتِفِهِ؛ كَانَتْ تَوَدُّ أَنْ تَحْتَضِــنُهُ؛ لَكِنَّهَا أَيْقَنَتْ أَنَّهَا إِنْ فَعَلَتْ هَذَا؛ سَــتُسْــقِطُ ذَرَّةَ الاحْتِرَامِ الأَخِيرَةِ الَّتِي رَأَتْهَا فِي عِينِيهِ، أَمَّا هُوَ فَكَانَتْ أَوَّلُ دُمُوعٍ تَسِــيلُ عَلَى خَدِّهِ يَرَاهَا غَرِيبٌ، دَائِمًا مَا كَانَ يَبْكِي وَحْدَهُ، أَوْ فِي حُضْــنِ زَوْجَتِهِ؛ لَكِنَّ هَـذِهِ المَرَّةَ خَرَجَـتِ الدُّمُوعَ أَمَـامَهَـا مُعْلِنَـةً عَنْ نَفْسِـهَا؛ لَمْ تَسْـتَطِعْ أَنْ تَتَفَوَّهَ بكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، عَادَ الصَّـمْتُ ثَانِيَةً حَارِسًا عَلَى لَسَانِهُمَا؛ حَتَّى غَفَا بَعْدَ وَهْلَةٍ؛ ليَتَحَدَّثَ هُوَ بصَوْتٍ مَبْحُوحٍ:

-"أَرْجُوكِ اُتْرِكِينِي الآنَ"

لَمْ تُنَاقِشْـــهُ فِي الأَمْرِ؛ بَلْ سَـــارَتْ بخُطُوَاتٍ هَادِئَةٍ نَحْوَ بَابِ الشَّقَةِ؛ وهُنَاكَ وَقَفَتْ ثُمَّ قَالَتٍ :

-"لَا أُرِيدُ إزْعَاجَكَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ ولَكِنْ هَلَا أَخْبَرْتَنِي باسْمِكَ؟"

-"مصطفى"

أَجَابَهَا دُونَ النَّظَرِ إِلَيهَا؛ فَخَرَجَتْ ثُمَّ أَغْلَقَتِ البَابَ خَلْفَهَا، كَانَتْ تَوَدُّ أَنْ تَذْهَبَ لِلْعَمَلِ؛ لَكِنَّ حَدِيثَهَا مَعَهُ جَعَلَهَا ثَمِلَةً لا تَسْتَطِيعُ مُجَارَاةَ الزَّبَائِنِ ؛فعَادَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا، أَلَقَتْ بجَسَـــدِهَا عَلَى الفِرَاشِ؛ وأَخَذَتْ تُفَكِّرُ :

-"رُبَّمَا لَنْ أَحْتَاجَ فِي الأَيَّامِ القَادِمَةِ إِلَى مِرْآةٍ فِي الحَمَّامِ"

صَـــارَ بإمْكَانِي أَنْ أَرَى انْعِكَاسَ جَمَالِي فِي وَجْهِهِ، لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ لِلْخَوْفِ طَرِيقًا؛ ولَا هُوَ؛ ولَكِنَّ الآنَ مَخَاوِفِي مِن العَالَمِ تَظْهَرُ جَلِيَّةً؛ كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيهِ، سَنَواتٌ مِن الضَّيَاعِ مَغْرُوسَةٌ فِي وَاحَاتِ قَلْبِي كنَخْلٍ كَثِيفٍ، آثَامِي الكَبِيرَةُ مَغْمُوسَـــةٌ فِي دُمُوعِي الَّتِي ذَرَفْتُهَا بَيْنَ يَدِيهِ، مِثْل قِطِع بَسْكَوِيت فِي كَأْسٍ مِن الشَّاي؛ لا أَحْتَاجُ مِرْآةً؛ أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَبْتَسِمَ مِنْ قَلْبِي عَلَى الدَّوَامِ؛ رَغْمُ مَشَـــقَّةِ تَحَمُّل عِبءِ حَيَاةٍ أُخْرَى إضَـــافَةً لحَيَاتِي!!

قَضَـتْ لَيْلَةً كَانَتْ الأَطْوَلَ عَلَى الإطْلَاقِ فِي حَيَاتِهَا، أَتَى الصَّـبَاحُ؛ ومَا زَالَتْ فِي سَرِيرِهَا تَسْـتَعِيدُ حَدِيثَهَا مَعَهُ؛ يَنْقَبِضُ قَلْبُهَا عِنْدَ مَشْـهَدِ دُمُوعِهِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ سَـبَبًا لَهَا، ثُمَّ تَبْتَسِـمُ عِنْدَمَا تَتَذَكَّرُ سُـؤَالَهُ عَن

اسْمِهَا؛ وكَذَلِكَ تَلَهُّفُهُ لمَعْرِفَةِ مَضْمُونِهِ، وَدَّتْ لَوْ يَنْقَضِي النَّهَارُ مُقَابِلَ نِصْـــفِ عُمْرِهَا الَّذِي تَبَقَّى حتَّى يَأْتِي اللَّيْلُ؛ وتَنْتَظِرُهُ فِي نَفْسِ المَكَانِ الَّذِي مَرَّ فِيهِ مِنْ أَمَامِهَا؛ تَنَهَدَتْ بطُمْأنِينَةٍ عِنْدَمَا تَرَدَّدَ صَـــوْتُ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ فِي أُذُنِيهَا؛ قَالَتْ لنَفْسِهَا :

-"شَرِيفٌ عَفِيفٌ، مِثْلُ هَذَا لا يَعْتَنِقُ إلَّا حَقًّا، مَنْ عَلَّمَهُ؟!؛ مَنْ جَعَلَهُ زَاهِدًا فِي جَسَدٍ انْحَنَتْ لَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ؟!".

سَاعَاتُ النَّهَارِ قَضَتْهَا مَعَهُ فِي خَيَالِهَا فَوْقَ فِرَاشِهَا، وحِيْنَ غَابَتِ الشَّـــمْسُ نَهِضَـــتْ بسَـــعَادَةٍ؛ غَمَرَتْ جَسَـــدَهَا فِي المِيَاهِ الدَّافِئَةِ ثُمَّ تَفَحَّصَتْ دُولَابَ مَلَابِسِها؛ كَانَتْ تَبْحَثُ عَنْ شِيءٍ أَكْثَر وَقَارًا مِمَّا كَانَتْ تَرْتَدِيهِ لَيْلَةَ أَمْسِ؛ تَأَفَّفَتْ حِيْنَ لَمْ تَجِدْ مَا يَسْـــتُرُ جَسَـــدَهَا كَامِلًا؛ ثُمَّ حَضَرَتْهَا فِكْرَةٌ؛ أَنْ تَضَـــعَ فُسْـــتَانًا آخَرَ فَوْقَ كَتِفِهَا كمِعْطَفٍ؛ رَغْمَ أنَّ حَرَارَةَ الجَوِّ لا تَحْتَاجُ لمِلَابِس عَلَى الإطْلَاقِ، ارْتَدَتْ فُسْتَانًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ ثُمَّ وَضَـــعَتْ آخَرَ عَلَى كَتِفِهَا ؛ليَبْدُو كقِطْعَتِينِ، بلَوْنِينِ مُخْتَلِفِينِ، ثُمَّ انْتَبِهَتْ لرُكْبَتِيهَا العَارِيتَينِ؛ فبَحَثَتْ عَنْ جَوْرَبٍ طَوِيلٍ؛ حَتَّى عَثُرَتْ عَلِيهِ، أَصْـــبَحَ وَجْهُهَا وكَفِيهَا فَقَطْ هُمَا المَكْشُـــوفَانِ؛ خَرَجَتْ مِنْ شَـــقَّتِهَا؛ وانْتَظَرَتْهُ أَمَامَ البِنَايَةِ، مَا إنْ لَمِحَتْ طَيْفَهُ آتٍ مِنْ بَعِيدٍ؛ حَتَّى اخْتَبأَتْ مِنْهُ، وعِنْدَمَا تَجَاوَزَهَا فِي السِّـــيْرِ؛ تَحَرَّكَتْ خَلْفَهُ، مَا إنْ صَـــعَدَ دَرَجَ البِنَايَةِ؛ حَتَّى شَـــعَرَ بحَرَكَةِ جَسَـــدٍ غَرِيبٍ يَسِـــيرُ خَلْفَهُ؛ الْتَفَتَ؛ فَرَآهَا؛ فأَرْغَمَهُ قَلْبُهُ عَلَى الابْتِسَـــامِ لَهَا ثُمَّ تَابَعَ الصُّـــعُودَ وُصُـــولًا إلَى شَـــقَّتِهِ؛ دَلَفَ دَاخِلَها ثُمَّ تَرَكَ البَابَ مَفْتُوحًا؛ دَلِفَتْ هِيَ الأُخْرَى ثُمَّ قَالَتْ :

-"هَلْ لِي بسُؤالٍ؟"

جَلَسَ عَلَى المَقْعَدِ؛ وأَشَـــارَ لَهَا بالجُلُوسِ ثَمَّ أَذِنَ لَهَا بالحَدِيثِ؛ فقَالَتْ:

-"مَنْ صَاحِبَةُ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بجِوَارِ فِرَاشِكَ؟"

اغْرَوْرَقَتْ عَينَاهُ بالدُّمُوعِ ثُمَّ أَجَابَ بحُزْنٍ:

-"كَانَتْ لزَوْجَتِي..."

تَابَعَتْ بسُؤالٍ آخَرَ :

-"أَيْنَ هِيَ؟"

-"قَتَلْتِها"

اصْفَرَّ وَجْهُهَا حَتَّى أنَّ الدَّمَّ فَرَّ مِنْهُ؛ ثُمَّ وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى قَلْبِهَا؛ والَّذِي شَـعَرَتْ أنَّ كَلِمَتَهُ سَـيْفٌ حَادٌ غُرِسَ فِيهِ؛ وَضَـعَتْ يَدُهَا؛ لتَمْنَعَ دَمَّ مَشَاعِرِهَا مِن التَّدَفُّقِ ثُمَّ هَتَفَتْ بذُهُولٍ :

-"أنَا ..كَيْفَ؟؛ أَنَا لا أَعْرِفُكَ، ولا أَعْرِفُهَا؛ وكَيْفَ أَقْتُلُ مِنْ تَمَنِّيتُ أَنْ أَرَاهَـا ؛لأَتَعَلَّمَ مِنْهَـا كَيْفَ أُحِبُّـكَ؛ نَعَمْ لَقَـدْ خَفَقَ قَلْبِي تُجَـاهِـكَ؛ وجِئْتُكَ لأَمْرِينِ؛ لَكِنَّ بَعْدَ الَّذِي قُلْتَ؛ سَـــأَقُولُ قَوْلًا وَاحِدًا؛ وأُمْسِـــكُ بدَاخِلِي الآخَرَ!!"

بَدَتْ كَلِمَاتُهَا مُبْهَمَةً بالنِّسْبَةِ لَهُ؛ لَكِنَّهُ أَرَادَ إيْضَاحَ كَلِمَتِهِ؛ فأَرْدَفَ :

-"كَانَتْ تَجْلِسُ بقُرْبِي تَقْبِضُ عَلَى يَدِي، تَنْظُرُ إِلَيّ فتَارَةً تُقَبِّلُنِي؛ وأُخْرَى أُقَبِّلُهَا، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَحَظَاتُنَا الأَخِيرَةُ مَعًا؛ رَصَاصَةٌ غَاشِمَةٌ خَرَجَتْ مِنْ فُوَّهَةِ سِلَاحٍ غَادِرٍ؛ سَكَنَتْ ظَهْرَهَا؛ قَتَلَتْ حُلْمِي؛ وقَضَتْ عَلَى حَيَاتِنَا؛ كُنْتُ أَنَا المَقْصُــودُ بِهَا؛ لَكِنَّهَا لَمَحَتْ مُطْلِقَهَا مِنْ بَعِيدٍ؛ قَبْلَ أَنْ يَرْمِي بِهَا؛ فاحْتَضَنَتْنِي فِي غَفْلَةٍ مِنِّي؛ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا تَشْتَاقُ لِي؛ لَكِنَّها كَانَتْ تُوَدِّعُنِي؛ تَفْدِينِي بنَفْسِــهَا؛ مَاتَتْ غَدْرًا بَيْنَ يَدِيَّ، لَمْ أَشْــعُرْ إِلَّا بأَنْفَاسِــهَا الحَارَةِ الَّتِي لَفِحَتْ وَجْهِي البَارِدَ، وصَــوْتُهَا المُرْتَجِفُ فِي وَهْلَتِهَا الأَخِيرَةِ حِيْنَ قَالَتْ:

- "أُحِبُّكَ؛ ولهَـذَا اخْتَرْتُ أَنْ تَعِيشَ أَنْـتَ؛ فـالقَـدَرُ خَيَّرَنِي بَيْنِي وبَيْنِكَ ؛فاخْتَرْتُ الرَّحِيلَ لنَفْسِي؛ لَمْ أَكُنْ أَنَانِيَّةً إِلَّا فِي حُبِّكَ وبَقَائِكَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ!!؛ خَرَجَتْ كَلِمَاتُهَا مَعَ خُرُوجِ رُوحِهَا؛ تَرَكَتْ جَسَــدَها أَرْضًا؛ وكَذَلِكَ رُوحِي ؛ونَهَضْتُ بجَسَدِي؛ رَكَضْتُ نَحْوَ الجَانِي؛ مَزَّقْتُهُ إِرَبًا؛ وبَعْدَ انْتِهَائِي مِنْهُ؛ كَشَــفْتُ عَنْ هَوِّيتِهِ؛ فعَلِمْتُ حِيْنَها أَنَّهُ يَهُودِيٌّ!!"

-"مَرَّت سَــنَتَانِ عَلَى وَفَاتِهَا؛ ومَا زِلْتُ أَكْتُبُ لَهَا؛ أَتَخَيَّلُ ذِكْرَيَاتٍ لَمْ أَعِشْــهَا ؛وتُنَاجِينِي دُرُوبٌ لَمْ أَطَأْهَا!!؛ أَيُّ دَرْبٍ يُتْقِنُ العَزْفَ عَلَى مَا أَشْتَهِي مِنْ مُدُنٍ حُبْلَى بأَحْلَامٍ عَنِيدَةٍ، وأَنَا المُمْتَدُّ فِي كُلِّ جِهَاتِ الشَّكِّ والصَّــدْقِ!! جُذُورِي نَفَرَتْ مِنْ قَبْضَــةِ الطِّينِ، وأَغْصَــانِي مَفَاتِيحُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةٍ!!".

شَهْقَة تَلْو أُخْرَى خَرَجَتْ مِنْهَا؛ عَقْبَ سَرْدِهِ لِقِصَّةِ قَتْلِ زَوْجَتِهِ؛ وحِيْنَ انْتَهَى قَالَتْ :

-"تَشَـــتَّتَتْ عَقِيدَتِي؛ ومَا عُدْتُ أُؤمِنُ أَنَّنَا عَلَى حَقٍّ؛ باللهِ عَلِيكَ قُلْ لِي مِنْ أَيْنَ أَسْلُكُ طَرِيقَ الحَقِّ الَّذِي سَلَكْتُهُ أَنْتَ ؟"

مَسَحَ دُمُوعَهُ برَاحَتِهِ اليُمْنَى ثُمَّ تَسَاءَلَ :

-"جِئْتِ لأَمْرِينِ؛ مَا هُمَا ؟!"

حَاوَلَتْ أَنْ تَرْفَعَ بَصَرَـهَا؛ لتَرْمُقُهُ؛ لَكِنَّ نَظَرَاتِهَا كَانَتْ مَكْسُـورَةً؛ مِمَّا جَعَلَهَا تُخْفِضُ بَصَرَهَا؛ وهِيَ تَقُولُ:

-"بَلْ أَمْرٌ وَاحِدٌ فَقَطْ؛ كَيْفَ أَنْتَمِي لوَطِنِكَ، لعَقِيدَتِكَ ؟!"

لَمْ يُصَـدِّقْ مَا أَلْقَتْهُ عَلَى مَسَـامِعِهِ؛ نَهَضَ؛ وتَحَرَّكَ نَحْوَهَا؛ خُيِّلَ لَهُ فِي ثَوْبِهَا المُحْتَشِـــمِ أنَّ زَوْجَتَهُ مَنْ تُحَدِّثُهُ؛ اقْتَرَبَ مِنْهَا؛ قَبَضَ عَلَى يَدِيهَا؛ وقَالَ:

-"الإِسْلَامُ هُوَ دِيْنُ الحَقِّ، عَقِيدَةُ التَّوْحِيدِ، الوَطَنُ الحَقِيقِيّ لكُلِّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ ..."

قَاطَعَتْهُ قَائِلَةً بلَهْفَةٍ:

-"مَاذَا أَفْعَلُ ؟"

تَرَكَ يَدِيهَا ثُمَّ أَعْطَاهَا ظَهْرَهُ؛ وأَرْدَفَ:

-"عَلِيكِ أَنْ تَتَطَهَّرِي أَوَّلًا ثُمَّ تَنْطِقِي الشَّهَادَتَيْنِ"

سَـــأَلَتْ عَنْ كَيْفِيَّةِ التَّطَهُّرِ؛ فَأَجَابَهَا دُونَ النَّظَرِ إِلَيهَا؛ هَرْوَلَتْ نَحْوَ الحَمَّامِ؛ وبَعْدَ دَقَائِقِ مَعْدُودَةٍ خَرَجَتِ ثُمَّ مَثَلَتْ أَمَامَهُ؛ فقَالَ بصَوْتٍ عَالٍ:

-"أَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إلا اللهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ"

رَدَّدَتْ خَلْفَهُ الشَّـهَادَتِينِ؛ فشَـعَرَتْ أَنَّ رُوحَها رُدَّتْ إِلَيهَا؛ بَعْدَ أَنْ تَاهَتْ مِنْهَا وَسْطَ زِحَامِ المَعَاصِي، ثُمَّ تَسَاءَلَتْ بسَعَادَةٍ:

-"أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تُعَلِّمُنِي أُصُولَ دِينِي الجَدِيدِ"

.....

أَحْضَرَ ـ مُصْـحَفًا؛ وأَعْطَاهُ لَهَا؛ أَمَرَهَا أَنْ تَفْتَحَهُ؛ وتَنْظُرَ لآيَاتِهِ ثُمَّ تُرَدِّدُهَا خِلْفَهُ حِيْنَ يَتْلُوهَا؛ بَدَأَ بفَاتِحَةِ الكِتَابِ؛ فاسْتَعْذَبَتِ الآيَاتِ بَيْنَ شَـــفَتِيهَا؛ وأَحَسَّـــتْ أَنَّ رُوحَها تَتَغَذَّى غِذَاءً لَمْ تَذُقْ مِثْلَهُ فِي حَيَاتِهَا؛ اسْـتَمَرَّ فِي التِّلَاوَةِ حَتَّى مُنْتَصَـفِ سُـورَةِ البَقَرِةِ ثُمَّ تَوَقَّفَ؛ نَظَرَتْ إِلَيهِ بتَعَجُّبٍ؛ وتَسَاءَلَتْ:

-"لِمَاذَا؟!"

فَأَجَابَها بفُضُولٍ:

-"أَرَدْتُ مَعْرِفَةَ الأَمْرِ الثَّانِي الَّذِي جِئْتِ مِنْ أَجْلِهِ ؟"

ابْتَسَمَتِ ابْتَسَامَةَ خَجَلٍ؛ وأَجَابَتْ:

-"هَلْ تَقْبَلُنِي زَوْجَةً لَكَ؟"

انْتَفَضَ جَسَدَهُ؛ وتَسَارَعَتْ دَقَّاتُ قَلْبِهِ ثُمَّ أَرْدَفَ بحُزْنٍ:

-"لا...لا يَجُوزُ لِي الزَّوَاجَ؛ قَبْلَ أَنْ أَقْتَصَّ لزَوْجَتِي؛ وأُحَرِّرَ أَرْضِي مِن قَبْضَةِ مُغْتَصِبيهَا!!"

شَــعَرَتْ بِالخَجَلِ الشَّــدِيدِ عِنْدَ إجَابَتِهِ ثُمَّ تَصَــبَّبَتْ عَرَقًا غَزِيرًا أَغْرَقَ وَجْهَهَا؛ وكَذَلِكَ ظَهَرَتْ آثَارُهُ عَلَى مَلَابِسِــهَا؛ وكَأَنَّ أَحَدًا سَــكَبَ فَوْقَ رَأْسِها قَارُورَةَ مَاءٍ سَاخِنٍ، ثُمَّ قَالَتْ مُعْتَذِرَةً :

-"آسِفَة"

اعْتَـذَرَتْ؛ ونَهَضَـــتْ عَنْ مَقْعَـدِهَـا ثُمَّ تَحَرَّكَـتْ نَحْوَ البَـابِ؛ فاسْتَوْقَفَهَا قَائِلًا:

-"أَعِدُكِ أَنْ أَتَزَوَّجَكِ؛ ولَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَبْلَغَ مَجْمَعَ هَدَفِي"

قَالَتْ دُونَ النَّظَرِ إِلِيهِ:

-"لَكَ هَذَا"

نَادَاهَا باسْمِهَا قَبْلَ أَنْ تَطَأَ قَدَمَاهَا أَرْضَ الدَّرَجِ :

-"أديرا"

أَثْمَلَهَا نِدَاؤُهُ؛ وكَأَنَّهَا شَرِبَتْ زُجَاجَةَ خَمْرٍ مِنْ نَوْعٍ فَاخِر؛ فتَمَايَلَتْ بجَسَدِهَا ثُمَّ قَالَتٍ:

-"نَعَمْ"

وَقَفَ خَلْفَهَا؛ وأَضَافَ:

-"أَشْعُرُ أنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُعَوِّضُنِي عَمَّا فَقَدَتُ بِكِ"

لَمْ تَرُدَّ عَلِيهِ؛ فَأَضَافَ:

-"الصَّـبْرَ؛ أُرِيدُ مِنْكِ الصَّـبْرَ فَقَطْ؛ فلَوْ تَزَوَّجْتُكِ الآنَ؛ سَـأَفْقِدُ مَوْقِعِي فِي الجَيْشِ؛ ولَنْ أُحَقِّقَ أَهْدَافِي".

إجْابَتُهَا خَرَجَتْ مِنْ ثَغْرِهَا عَلَى هَيْئَةِ ابْتِسَـامَةٍ طَفِيفَةٍ ظَهَرَتْ عَلِيهِ ثُمَّ تَابَعَتْ هُبُوطَ الدَّرَجِ، سَـارَتْ حتَّى وَصَـلَتْ إِلَى عَمَلِهَا؛ سَـأَلَها رَبُّ العَمَلِ عَنْ غِيابِهَا أَمْسِ؛ وتَأَخُرِهَا عَن العَمَلِ اليَوْمَ؛ فَأَجَابَتْ:

-"وَعْكَة صِحِيَّة"

أَضَافَ بتَذَمُّرٍ:

-"الزَّبَائِنُ تَسْأَلُ عَنْكِ؛ وتُرِيدُكِ؛ وهُنَاكَ مَنْ يَوَدُّ قَضَاءَ لَيْلَةٍ مَعَكِ مُقَابِلَ آلافِ الدُّولارَاتِ!!"

طَغَى الغَضَبُ عَلَى مَلَامِحِهَا عَقَبَ حَدِيثِهِ؛ وقَالَتْ بتَهَكُّمٍ:

-"لَنْ أَفْعَلَ هَذَا مُجَدَّدًا؛ فجَسَـدِي لَيْسَ لِلْبِيْعِ؛ أَيُعْجِبُكَ هَذَا؟!، أَمْ أَتْرُكُ لَكَ العَمَلَ؛ وأَذْهَبَ ؟!"

حَمْلَقَ فِيهَا بذُهُولٍ؛ فاسْـتَشَـفَّ مِنْ عِينِيهَا جِدِيَّةَ الحَدِيثِ؛ صَمَتَ لوَهْلَةٍ ثُمَّ حَكَّ جَانِبَ رَأْسِهِ فِي تَفْكِيرٍ؛ وقَالَ بدَهَاءٍ:

-"حَسَنًا؛ لَنْ أَطْلُبَ مِنْكِ هَذَا مُجَدَّدًا"

مُنْذُ اليَوْمِ الأَوَّلِ الَّذِي قَدَّمَتْ فِيهِ فَقْرَتَهَا المُوسِـيقِيَّةَ؛ وهُوَ يَرَى ازْدِيَادَ الزَّبَائِنِ فِي حَانَتِهِ؛ وسُـــؤَالِ الكَثِيرِينَ عَنْهَا؛ حتَّى أَنَّهُ يَوْم أَمْسِ الَّذِي غَابَتْ فِيهِ؛ سُـئِلَ عَنْهَا أَكْثَرُ مِنْ بِيْعِهِ زُجَاجَاتِ الخَمْرِ للسُّـكَارَى؛ وَافَقَهَا فِي طَلَبِهَا ؛حتَّى يَعْلَمَ سِرَّ تَغَيُّرِهَا وعُدُولِها عَنْ هَذَا الأَمْرِ الَّذِي رَحَّبَتْ بِهِ؛ عِنْدَمَا لَجَأَتْ إِلَيهِ!!

.....

انْتَهَتِ اللَّيْلَةُ؛ وتَنَفَّسَ الصُّبْحُ؛ وعَادَتْ إِلَى مَسْكَنِهَا، كَانَتْ تَنْظُرُ لجَسَـــدِهَا فِي المِرْآةِ بتَقَزُّزٍ؛ كَرِهَتْ مَلَامِحَها وأُنُوثَتَها؛ وتَمَنَّتْ لَوْ تَزُولُ مَفَاتِنُهَا ؛وتُصْبِحُ دُونَ جَاذِبِيَّةٍ؛ كَي تَضْمَنَ نَقَاءَهَا؛ والَّذِي حَصَلَتْ عَلِيهِ عِنْدَمَا اغْتَسَـلَتْ بمَاءِ الإِسْـلَامِ؛ وارْتَوَتْ مِنْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ؛ حَتَّى تُشْـبِعَ جَسَـــدَهَا وقَلْبَها مِنْ بَرَكَاتِهِ، ونَمَا الحُبُّ دَاخِلَ قَلْبِهَا، نَبْتَةٌ صَـالِحَةٌ لَهَا أَصْـــلٌ وجِذْعٌ غَيْرُ شَـــيْطَانِيّ؛ حِيْنَها فَقَطْ لَامَسَـــتْ برُوحِهَا السَّـــعَادَةَ الحَقِيقِيَّةَ؛ وبَدَا عَمَلُهَا الشَّيِـــءُ الوَحِيدُ الَّذِي يُفْسِـــدُ عَلِيهَا رَاحَتَها؛ ويُؤَرِّقُهَا؛ بَلْ ورُبَّمَا يَقْتَلِعُ النَّبْتَةَ الجَمِيلَةَ مِنْ جُذُورِ قَلْبِهَا؛ ويَتْرُكُ أَرْضَـــهُ بُورًا لا تَصْـــلَحُ لِلْحَيَاةِ بَعْدُ، أَرْهَقَهَا التَّفْكِيرُ؛ فارْتَمَتْ فَوْقَ فِرَاشِـــهَا، تَحَايَلَتْ عَلَى النَّوْمِ كَثِيرًا حَتَّى أَتَاهَا؛ ورَاحَتْ فِي سُـــبَاتِهَا؛ بَعْدَ أَنْ مَنَّتْ نَفْسَـــهَا برُؤيَتِهِ مَسَـــاءً، اسْـــتَيْقَظَتْ مِنْ نَوْمِهَا؛ فَتَحَتْ عِينِيها نِصْـــفَ فَتْحَةٍ؛ ففَزِعَتْ عِنْدَمَا لَمِحَتْ مِنْ خِلالِ النَّافِذَةِ سَـــوَادَ اللَّيْلِ، أَيَقَنَتْ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ مَضَى؛ ورُبَّمَا عَادَ "مصـــطفى" مِنْ عَمَلِهِ وغَفَا؛ وهِيَ لا

تُرِيدُ أَنْ تَصْطَدِمَ برَبِّ العَمَلِ؛ فالتَّأْخِيرُ لَيْسَ صَالِحًا لَهَا؛ بَعْدَ مَا رَفَضَتْ عَرْضَهُ لَيْلَةَ أَمْسِ؛ لَكِنْ لا يَهِمُّ؛ كُلُّ مَا يَهُمُّنِي الآنَ هُوَ رُؤيتُهُ!!

هَكَذَا قَالَتْ لنَفْسِـــهَا ثُمَّ نَهَضَـــتْ عَنْ فِرَاشِـــهَا، أَخَذَتْ حَمَّامًا سَرِيعًا؛ وارْتَدَتْ مَلَابِسَـها ثُمَّ هَرْوَلَتْ نَحْوَ الشَّـارِعِ، كَانَ صَاحِبُ الحَانَةِ يَخْتَبِئُ بـالقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِهَا؛ يُرَاقِـبُ مَـدْخَلَـهُ حَتَّى لَمَحَهَا، وهِيَ تَخْرُجُ؛ تَحَرَّكَ خَلْفَهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِ "مصطفى"؛ وانْتَظَرَ حَتَّى صَعَدَتِ الدَّرَجَ؛ حَدَّدَ مَكَانَهَا؛ وانْصَرَفَ؛ عَادَ إِلَى عَمَلِهِ ثُمَّ اسْـتَدْعَى أَحْدَ رِجَالِهِ المُخْلِصِينَ؛ هَمَسَ لَهُ فِي أُذُنِهِ بكَلَامٍ غَيْر مَسْـمُوعٍ ثُمَّ أَمَرَهُ بالانْصِرَافِ، وفِي حِيْنِ كَانَتْ هِيَ تَنْتَظُرُ مَعْشُـــوقَهَا أمَامَ الشَّـــقَةِ؛ ليَفْتَحَ لَهَا؛ فُتِحَ البَابُ؛ ودَلِفَتْ، كَانَ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ؛ بَدَا وَجْهُهُ عَابِسًـا لِلْغَايَةِ؛ فِي حِيْنِ كَانَتْ عَينَاهُ دَامِعَتِينِ؛ انْقَبَضَ قَلْبُهَا حِيْنَ رَأَتْهُ هَكَذَا؛ وتَسَاءَلَتْ بقَلَقٍ:

-"مَا بِكَ؟!"

أَجَابَ بحُزْنٍ :

-"اليَوْمَ فَقَدْتُ زَمِيلًا آخَرَ لِي؛ تَطَايَرَتْ أَشْـلاؤُهُ فِي الهَوَاءِ أَمَامِي؛ إِثْرَ غَارَةٍ شَنَّتْهَا القُوَّاتُ الصُّهيُونِيَّةُ عَلَى مَوْقِعِنَا"

بَكَى قَلْبُهَا قَبْلَ عِينِيهَا؛ شَعَرَتْ أَنَّهَا فِي لَحْظَةٍ رُبَّمَا تَفْقِدُهُ؛ ولا تَرَاهُ ثَانِيَةً، كَانَتْ تَوَدُّ أَنْ تَقُولَ:

- "لا شِيء يُغْرِينِي لِلْعَيْشِ فِي هَذِهِ البِلَادِ؛ كُلِّ شِيءٍ فِيهَا يَدْعُونِي لِلْمُغَادَرَةِ؛ فَشَـــبَابُ وَطَنِنا رَغْمَ أَنَّهُم فِي حَرَبٍ إِلَّا أَنَّهُم لَا يَخْشَـــون

مُعَاكَسَتِي، أَوْ حتَّى قَضَاءِ لَيْلَةٍ مَعِي، وعَنْ مَاضِيَّ؛ فَأَصْدِقَاءُ أَبِي سِيئُونَ لِلْغَايَةِ؛ يَكْتِبُونَ تَقَارِيرَهُم عَنْ أَحَقِيَتِهم فِي أَرْضِكُم؛ ويُطَالِبُونَ بتَحْرِيرِهَا مِنْ أَيَادِيكُم؛ ويَتَحَدَّثُونَ باسْمِ التَّوْرَاةِ؛ وهُمْ فِي أَحْضَانِنَا كُلَّ لَيْلَةٍ نِيَامًا، يُكَرَّمُونَ نَهَارًا ،ويُعَاقِرُونَ الخَمْرَ لَيْلًا، ويَغْتَصِبُونَ الفَقِيرَ فِينَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وحَيْنٍ، عَزِيزِي حتَّى أَنْتَ لَوْ لَمْ تَكُنْ تَمْلُكُ عَقْلًا نَاضِجًا، وقَلْبًا سَلِيمًا؛ لِمَا جَلَسْتَ مَعِي يَوْمًا دُوْنَ النَّيْلِ مِنِّي، فَي هَذَا الوَقْتِ أَتَمَنَّى أَنْ أُصْبِحَ زَوْجَتَكَ؛ ويَدُورُ بِنَا الزَّمَانُ؛ ونُسَافِرُ أَنَا وأَنْتَ إِلَى مَدِينَةِ الضَّبَابِ، أَوْ إِلَى "بَارِيس" ،أَوْ رُبَّمَا نَزُورُ مَدِينَةَ الخَيَالِ، نَدْخُلُ غُرْفَةَ النَّوْمِ الَّتِي أُعِدَّتْ خَصِيصًا لَنَا؛ وأَرْقُصُ لَكَ رَقْصَ غَجَرِيَّةٍ؛ لَيْسَ لَدِيهَا مَا تُخْفِيهِ، أَوْ تَخْجَلُ منْهُ؛ وقَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِن الأَسْوَدِ تَقُولُ لِي:

-"دَعِينَا مِن الكَلَامِ؛ وقَبِّلِينِي بعُنْفٍ حتَّى يَسِيلَ دَمِي؛ فإنَّ فَمِي المُبَلَّلِ هَذَا ما زَالَ بَتُولًا لَمْ يُلْثَمْ؛ رَغْمَ أَنَّنِي لَسْتُ بِكْرًا".

.....

مَرَّ الوَقْتُ سَرِيعًا دُونَ حَدِيثٍ، كَانَتْ نَظَرَاتُهُمَا فِي عُنَاقٍ حَمِيمِيّ، احْتَوَى كِلاهُمَا الآخَرَ بطَرِيقَتِهِ الخَاصَّةِ؛ فَهِي احْتَوَتْهُ بحَدِيثَها النَّفْسِيّ؛ وهُوَ احْتَوَاهَا بعِينِيهِ، بصُرَاخِ قَلْبِهِ القَاتِلِ؛ جَعَلَهَا نِسْمَةً بَارِدَةً رَطَّبَتْ عَلَى قَلْبِهِ المُلْتَهِبِ ،اسْتَأْذَنَتْهُ فِي الانْصِرَافِ؛ كَي لا تَتَخَلَّفَ عَنْ عَمَلِهَا؛ فَسَأَلَهَا عَنْهُ؛ كَانَ الفُضُولُ حَافِزًا للسُّؤالِ؛ فَلَمْ تُجِبْهُ إِلَّا بابْتِسَامَةٍ مَكْسُورَةٍ ثُمَّ تَرَكَتْهُ وذَهَبَتْ، قَضَتْ لَيْلَتَهَا كَالعَادَةِ بَيْنَ أَحْضَانِ زُجَاجَاتِ الخَمْرِ، بَيْنَمَا عُيُونُ الحَاضِرِينَ أَكَلَتْ لَحْمَهَا؛ ولُعَابُهم سَالَ عَلِيهَا دُونَ أَنْ يَلْمِسُوهَا، فِي حِيْنِ كَانَ صَاحِبُ الحَانَةِ يُرَاقِبُ مَلَامِحَهَا فِي صَمْتٍ؛

ويَنْتَظِرُ صَبِيَّهُ؛ ليَعُودَ إِلَيهِ بالخَبَرِ اليَقِين؛ والَّذِي أَرْسَلَهُ كَي يَتَحَقَّقَ مِنْهُ، وقَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ بدَقَائِق لَمَحَتْ مُدِيرَهَا وفَتَاةً يَتَغَامَزَانِ؛ لَمْ تُعِرِ الأَمْرَ اهْتِمَامًا ثُمَّ عَلَّقَتْ حَقِيبَتَهَا فِي كَتِفِها وانْصَرَفَتْ، كَانَتْ تَرْمُقُ مَنْزِلَ" مصطفى" بعِينِيهَا؛ تُقَبِّلُ جُدْرَانَهُ فِي خَيَالِهَا، تُحَدِّثُهُ برُوحِهَا، تَحْقِدُ عَلِيهِ كَوْنُهُ يُخْبِئ دَاخِلَهُ قِطْعَةً مِنْ جَنَّةٍ؛ تَمْقُتُهُ لوَهْلَةٍ ثُمَّ تُوصِيهِ أَنْ يَحْفَظَهُ فِي أُخْرَى، وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا، صَعَدَتْ الدَّرَجَتِينِ اللَّتِينِ أَمَامَ البَابِ ثُمَّ دَلِفَتْ دَاخِلَهُ، أَلْقَتْ بحَقِيبَتِهَا أَرْضًا؛ ودَخَلَتْ غُرْفَةَ نَوْمِها؛ شَعَرَتْ بِالضِّيقِ حِيْنُها؛ فأَقْنَعَتْ نَفْسَها أَنْ تُغَيُّرَ نَوْمَتَهَا هَذَا الصَّبَاحَ؛ وتَنَامُ فِي الغُرْفَةِ الأُخْرَى المُغْلَقَةِ؛ والَّتِي لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَاهَا مُنْذُ أَنْ مَكَثَتْ فِي هَذَا البِيْتِ القَدِيمِ؛ تَحَرَّكَتْ نَحْوَهَا؛ وفَتَحَتْ بَابَهَا؛ تَفَحَّصَتْهَا بعِينِيهَا؛ لَاحَظَتْ دَاخِلَها سَرِيرًا وكُرسِيًّا قَدِيمًا، لا تَحْتَوِي الغُرْفَةُ عَلَى شِيءٍ آخَر، دَلَفَتْهَا؛ وارْتَمَتْ فَوْقَ الفِرَاشِ، فِي حِيْنِ امْتَلَأَتِ الغُرْفَةُ بالغُبَارِ إِثْرَ ارْتِمَائِها فَوقَهُ، كَانْت كمِنْفَضَةٍ تُنَفِّضُ الأَثَاثَ؛ ضَاقَتْ نَفْسُهَا؛ فنَهَضَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ، وَقَفَتْ فِي الرُّدْهَةِ حَتَّى تَلَاشَى الغُبَارُ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيهَا؛ رَكِلَتْ بقَدَمِها اليُمْنَى الهَوَاءَ؛ فانْزَلَقَ حِذَاؤُهَا مِنْ قَدَمِها؛ حتَّى أَنَّهُ قَطَعَ مَسَافَةً مِن الغُرْفَةِ؛ واسْتَقَرَّ أَسْفَلَ السَّرِيرِ كَكُرْةِ قَدَمٍ أَصَابَتِ المَرْمَى ثُمَّ تَمَدَّدَتْ فَوْقَ فِرَاشِهَا، مَرَّتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ سَرِيعًا؛ وبَدَأَ الخَيْطُ الأَسْوَدُ يَسُودُ السَّمَاءَ، اسْتَيْقَظَتْ بتَكَاسُلٍ، تَنَهَّدَتْ مَرَّتِينِ؛ وقَالَتْ بصَوْتٍ مَسْمُوعٍ :

-"واللهِ لَوْلا أَنْتَ لِمَا اسْتَيْقَظْتُ!!؛ النَّوْمُ يُشْبِهُ حَدِيثَكَ ذُو أَنْغَامِ النَّعِيمِ سَهْلًا أَنْ يُسْمَعَ، أَنْ يَنْفَذَ إِلَى صَدْرِي، أَنْ يَتَكَفَّلَ بنَقْلِي مِنْ عَالَمٍ

لآخَرَ، أَنْ يَجْعَلَنِي بَينَ نُجُومِ السَّـمَاءِ؛ لَكِنَّنِي حِيْنَ أَسْـتَيْقِظُ؛ ولا أَجِدُكَ بجِوَارِي؛ حِيْنُهَـا أَفْقِـدُ أَحْلَامِي الَّتِي أَرْغَمَتْـكَ عَلَى المَبِيـتِ مَعِي فِيهِـا، سَمَاعُ صَوْتِكَ، تَنَهُّدَاتُكَ حتَّى بُكَائِكَ؛ أقَعُ عَلَى صَحْرَاءَ؛ فيَعْمَى بَصَرِي عَنْـكَ، وعَنْ جَمَـالٍ آخَر كَلامٍ يَضُــخُّ فِي قَلْبِي؛ لَكِنِّي لا أَعْرِفُ كَيْفَ السَّـبِيلُ إِلَى النُّطْقِ بكَلِمَةً؟!، الكَثِيرُ يُؤرِّقُنِي؛ لَكِنَّي لا أَجِدُ فِي الاسْـتِيقَاظِ لَذَّةً أَسْـتَطِيعُ قَلْبَ وِسَـادَتِي، تَغْيِيرِ وَضْـعِيتِي؛ لَكِنِّي لا أَسْـتَطِيعُ قَلْبَ صَفْحَةٍ اعْتَلَتْها صُورَتُكَ فِي مُخَيِلَتِي، كَذَلِكَ أَستَطِيعُ اصْطِنَاعَ الهُرُوبِ؛ وأَسْـتَطِيعُ تَخَيُّلَ المُوَاجَهَة؛ لَكِنِّي لا أعْلَمُ إِنْ كُنْتُ سَـأَنْتَصِرُ؟!، مَاذَا لَوْ سَأَلْتَنِي اليَوْمَ عَنْ عَمَلِي، عَنْ سِرِّ ذَهَابِي أَمْسِ دُونَ الإِجَابَةِ!!

حَدِيثُهَا النَّفْسِيّــ أَرْهَقَهَا كَثِيرًا؛ لَكِنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَنْهَضَ؛ فَقَدْ أَزِفَ الرَّحِيلُ؛ اقْتَرَبَ مَوْعِـدُ لِقَـائِهِ، ارْتِشَــافُ الحَنَـانِ مِنْ عِينِيهِ، تَـذَوُّقُ الطُّمَأْنِينَةَ مِنْ شَــفَتِيهِ عَبْرَ حَدِيثِهِ، احِتْضَــانُ الأَمَانِ بتَلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ.

وَقَفَتْ ثُمَّ تَمَطَّتْ بذَرَاعِيهَا؛ وتَحَسَّـسَـتْ بقَدَمِيهَا الأَرْضَ؛ بَحْثًا عَنْ حِذَائِهَا، عَثَرَتْ عَلَى اليُسْرَى ثُمَّ تَابَعَتِ البَحْثَ عَن اليُمْنَى؛ تَذِكَّرَتْ أَنَّهَا أَزَاحَتْهَا بقَدَمِهَا أَسْـفَلَ السَّرِيرِ؛ تَأَفَّفَتْ ثُمَّ انْحَنَتْ بقَامَتِهَا؛ ومَدَّتْ ذَرَاعَهَا؛ كَي تَلْتَقِطَهَا؛ لَكِنَّهَا لَمْ تَعْثُرْ عَلِيهَا، تَعَمَّقَتْ ببَصَرِهَا؛ فاتَّسَـعَتْ مُقْلتُهَا فِي صَـدْمَةٍ وَاضِـحَةٍ؛ حِيْنَ رَأَتْ بِئْرًا أَسْـفَلَ فِرَاشِـهَا؛ اعْتَدَلَتْ؛ وزَحْزَحَتِ السَّرِيرِ عَنْ مَوْضِعِهِ ثُمَّ نَظَرَتْ دَاخِلَ البِئْرِ؛ وقَالَتْ بذُهُولٍ:

-"يَا إِلَهِي، مَا هَذَا؟؟؛ بَئْرٌ أَمْ خَنْدَقٌ !؟"

ظَلَّتْ مُتَسَــمِرَّةً فِي مَكَانِهَا لبَعْضِ الوَقْتِ، والدَّهْشَــةُ المَمْزُوجَةُ بالحِيرَةِ تُسِـيْطِرُ عَلِيهَا، والأسْـئِلَةُ المُبْهَمَةُ تُلْقِي بنَفْسِـهَا دَاخِلَ عَقْلِهَا؛ حتَّى أنَّها قَالَتْ بصَوْتٍ مَسْمُوعٍ:

-"هَلْ يَعْلَمُ صَاحِبُ المَنْزِلِ شَـيْئًا عَنْ هَذِهِ البِئْرِ، وإنْ كَانَ يَعْلَمُ؛ لِمَاذَا لَمِ يُخْبِرُنِي؛ لَيْسَتْ مُغَطَّاةً، والسَّرِيرُ فَوْقَهَا؛ إذًا هُوَ يَعْلَمُ؛ ولَكِنَّ مَا السِّرُّ وَرَاؤُهَا ؟!؛ سَأَعْرِفُ لَكِنْ بطَرِيقَتِي الخَاصَّـةِ؛ والآنَ لا بُدَّ أَنْ أُخْرِجَ حِذَاءً آخَرَ مِنْ حَقِيبَةِ سَفَرِي؛ وأَذْهَبُ."

بَدَّلَتْ مَلَابِسَــــها ثُمَّ بَلَّلَتْ وَجْهَهَا بِالمِيَاهِ؛ وخَرَجَتْ مِن المَنْزِلِ، وَقَفَتْ أمَامَهُ تَنْظُرُ لمَنْزِلِ حَبِيبِهَا ثُمَّ اسْــتَدْعَتْ إجَابَةَ سُــؤالِهِ؛ واسْــتَوْقَفَتْهَا عَلَى شَــفَتِيهَا ؛فتَحَرَّكَتْ ببُطءٍ نَحْوَ مَسْــكَنِهِ، لَمَحَتْ "جوزيف" عَامِلُ الحَانَةِ يَخْرُجُ مِن البِنَايَةِ؛ وهُوَ يَتَلَفَّتُ خَلِفَهُ كَلِصٍّ مُبْتَدِئ؛ أَخَذَتْهَا الدَّهْشَــةُ قَلِيلًا ثُمَّ مَضَــتْ قُدَمًا فِي طَرِيقِهَا دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيهِ؛ حِيْنَما رَآهَا انْقَبَضَ قَلْبُهُ؛ وارْتَجَفَتْ أعْضَاؤُهُ ثُمَّ أَدَارَ وَجْهَهُ بَعِيدًا عَنْهَا؛ كَي لا تَلْمَحَهُ، وعِنْدَمَا تَجَاوَزَتْهُ بخُطُواتِهَا؛ رَكَضَ مُهَرْوِلًا فِي الطَّرِيقِ المُؤَدِّي إِلَى الحَانَةِ؛ اسْــتَغْرَبَتْ رَكْضَــهُ؛ بَلْ وارْتَجَفَ قَلْبُهَا بشِدَّةٍ؛ شَعَرَتْ بقَلَقٍ شَدِيدٍ عَلَى" مصطفى"، صَعَدَتِ الدَّرَجَ بخِفَّةٍ، فِي حِيْنِ كَانَ "مصــطفى" يَأْخُذُ حَمَّامًا؛ انْتَهَزَ فُرْصَــةَ أَنَّهَا لَمْ تَلْحَقْ بِهِ كَعَادَتِهَا عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِن العَمَلِ؛ وأَرَادَ أَنْ يُنَظِّفَ جَسَــدَهُ مِن مَشَــقَّةِ عَمَلِ يَوْمٍ مُرْهِقٍ، وأثْنَاءَ تَوَاجُدِهِ فِي الحَمَّامِ؛ اشْتَعِلَتِ النِّيرَانُ فِي شَقَّتِهِ؛ أَكَلَتِ الكَثِيرَ مِنْهَا وُصُولًا إِلَى حَمَّامِهِ؛ لَمْ يَسْتَطِعْ ارْتِدَاءَ مَلَابِسِهِ ؛عِنْدَمَا رَأَى النَّارَ تَأْكُلُ سِــتَارَةَ الحَمَّامِ؛ هَرْوَلَ سَرِيعًا نَحْوَ الخَارِجِ؛ لَفِحَتِ النَّارُ

جَسَـــدَهُ؛ لَكِنَّهُ وَاصَـــلَ هَرْوَلَتَهُ؛ مَرَقَ مِنْهَا بتَأَذٍّي؛ وعِنْدَمَا فَتَحَ البَابَ وَجَدَهَا أَمَامَهُ؛ تَذَكَّرَ أَنَّهُ عَارٍ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ؛ أَغْلَقَ البَابَ فِي وَجْهِهَا؛ وفَضَّـــلَ أَنْ يَسْـــتَرَ نَفْسَـــهُ بالنِّيرَانِ؛ عَلَى أَنْ تَرَاهُ هَكَذَا؛ صَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا:

-"اُخْرِجْ؛ سَأَسْتُرُكَ بمَلَابِسِي، بجَسَدِي، برُوحِي!!"

لَكِنَّ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ؛ الحَرِيقُ أَكَلَ الأَخْضَرَ ـــ واليَابِسَ؛ حَتَّى أَنَّ بَابَ الشَّـقَةِ سَـقَطَ أَرْضًـا؛ حِيْنَمَا أَكَلَتِ النِّيرَانُ عَصَـبَهُ؛ لَمْ تَسْـتَطَعْ أَنْ تَتَحَمَّلَ المَنْظَرَ؛ سَـــقَطَتْ عَلَى الأَرْضِ مَغْشِـــيًا عَلِيهَا؛ بَعْدَ وَهْلَةٍ كَانَ صَـاحِبُ الحَانَةِ وصَـبِيِّهِ عَلَى أَعْتَابِ الشَّـقَةِ؛ حَمَلَاهَا؛ وتَوَجَّهَا بِهَا إِلَى مَنْزِلِهَا.

قَضَـتْ يَوْمِينِ طَرِيحَةَ الفِرَاشِ؛ لا حَرَكَةً سِـوَى دُمُوعٍ تَتَدَفَّقُ مِنْ مُقْلَتِيهَا بغَزَارَةٍ، وابْتِسَـــامَةٍ مُخْزِيَةٍ تَظْهَرُ عَلَى شَـــفَتِيهَا بِيْنَ حِيْنٍ وآخَرَ، وعَلامَاتُ اسْـــتَفْهَامٍ تَحْفُرُ لنَفْسِـــهَا خَنْدَقًا دَاخِلَ عَقْلِهَا، وحَدِيثٌ لَمْ يُقَالُ بَعْدُ بِيْنِهَا وبَيْنِهِ تَصْنَعُهُ مِنْ خَيَالِهَا؛ وتُرَدِّدُهُ بعَقْلِهَا؛ ليُجِيبَ قَلْبُها نِيَابَةً عَنْهُ؛ تَقَمَّصَ القَلْبُ شَخْصَ شَهِيدِهَا ؛فقَالَ لَهَا:

-"مَا عَـادَ لغَيْرِكَ فِي القَلْـبِ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ، بَـاتَـتْ جَوَانِحِي تَـأْنَسُ إِلِيكَ"

نَظَرَتْ إِلَيهِ نَظْرَةَ المَغْشِيّ ـ عَلِيهِ، تَتَمَعَّنُ صِـدْقَ حَدِيثِهِ، لَمْ تَرِفَّ عَينَاهُ، سَـــمِعَتْ أَوْتَارَ صَـــوْتِهِ، هِيَ الأُخْرَى لَمْ تَتَلَعْثَمْ؛ كَانَتِ المَخَارِجُ

حَازِمَةً وَاثِقَةً، تَنَهَدَتْ بصَــمْتٍ مُوجِعٍ؛ هَشَّــمَ فِي المِرْآةِ آخَرَ آمَالَهَا؛ حِيْنَ فَتَحَتْ عِينِيهَا؛ وحَدَّقَتْ فِي مِرْآتِها؛ واصْطَدِمَتْ بوَاقِعِها المَرِيرِ!!

مِنْ يَوْمِهَا عَرِفَتْ؛ كَيْفَ هُوَ شُعُورُ خِرْقَةٍ بَالِيَةٍ، عَلَى أَلْوَاحٍ فَزَّاعَةٍ مَغْلُولَةٍ أَنْفَاسُـها، تُوهِمُ الغِرْبَانَ بخَلَقٍ مُمَزَّقٍ، وجَسَـدٍ مَصْـلُوبٍ يَقِفُ عَلَى حَافَةِ الهَاوِيَةِ، فِي مُنْتَصَــفِ الظَّهِيرَةِ يَذُودُ عَنْ سَــنَابِلِ القَمْحَ لُصُوصَ الحَقْلِ الجَائِعَةِ.... لُصُوصٌ ظَنَّتْهم يَوْمًا مَا عَلَى حَقٍّ، يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُدَافِعُونَ عَنْ وَطَنِهم، أَرْضِـهم، ودِيْنِهم؟!؛ لَكِنَّهَا كَانَتْ وَاهِمَةً لا تَعْرِفُ أَنَّهُم يَتَسَــلَّلُونَ بوَقَاحَةٍ؛ ليَسْرِقُوا أَحْلَامَ الأَبْرِيَاءِ ودِمَائِهم؛ فَزَّتْ بجَسَـدِها؛ ونَهَضَـتْ كَأَنَّهَا كَانَتْ تَصْـطَنِعُ المَرَضَ؛ وَقَفَتُ أَمَامَ مِرْآتِها بتَحَدٍّ وكِبْرِيَاء؛ قَتَلَتْ حُزْنَها بخِنْجَرِ عَزِيمَتِها المَسْــمُومِ ثُمَّ مَسَــحَتْ بِرَاحَتِها دِمَاءَهُ الَّتِي سَــالَتْ مِنْ عِينِيهَا، ثُمَّ زَأَرَتْ كَمَا تَزْأَرُ الأُسُــودُ؛ وقَالَتْ:

-"لَدِيَّ هَدَفَانِ سَـأُحَقِّقُهُمَا؛ بَلْ ثَلَاثٌ؛ لَنْ أَبْرَحَ حَتَّى أَبْلَغَ مَجْمَعَ أَرْوَاحِهم النَّجِسَــةِ: هَدَفَانِ كَانَا هُمَا حِلْمَانِ لفَقِيدِي؛ والثَّالِثُ ثَأْرٌ لِي مِنْهم!!"

تَحَرَّكَتْ نَحْوَ حَمَّامِها؛ خَلَعَتْ عَنْهَا نُدُوبَ القَهْرِ؛ واغْتَسَــلَتْ بالمَاءِ البَارِدِ ثُمَّ عَادَتْ؛ وتَفَحَّصَـتْ دُولَابَ مَلَابِسِـها؛ أَخْرَجَتْ فُسْـتَانًا قَصِيرًا باللَّوْنِ الأُوكسِيديّ اللَّامِعِ ثُمَّ ارْتَدِتْهُ؛ كَانَ بِهِ نَافِذَةٌ عِنْدَ مُنْتَصَفِ الصِّــدْرِ تُظْهِرُ مَدَى أُنُوثَتِها؛ وكَذَلِكَ قِصَرُـهُ المَلْحُوظُ الَّذِي أَظْهَرَ جَاذِبِيَّةَ رُكْبَتِيهَا، ثُمَّ أَنَّهُ كَانَ ضَـيقًا جِدًّا عَلَى خَصْرِـهَا؛ مِمَّا جَعَلَهَا تَبْدُو كَلَوْحَةٍ فَنِيَّةٍ اسْتَغْرَقَ صَانِعُهَا قَرْنًا مِن الزَّمَنِ فِي رَسْمِهَا؛ صَفَفَتْ شَعْرَهَا

ثُمَّ ابْتَسِـــمَتْ لكَيْدِها؛ واصْـــطَحِبَتْهُ مَعَهَا إِلَى العَمَلِ، عِنْدَمَا رَآهَا "جوزيف"؛ سَـالَ لُعَابُهُ عَلِيهَا؛ ونَسَى- تَعْبَهَا، كَمَا تَجَاهَلَ رُؤيتَهَا لَهُ عِنْدَ البِنَايَةِ؛ هَرَوَلَ نَحْوَهَا ثُمَّ قَامَ بتَقْبِيلِ يَدِها دُونَ وَعْيٍ مِنْهُ، كَذَلِكَ رَبُّ العَمَلِ الَّذِي أَبْدَى إعْجَابَهُ الشَّـــدِيدَ بجَاذِبِيتِها؛ وتَذَكَّرَ لَيْلَتَهُ السَّـــالِفَةَ مَعَهَا؛ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَأْخُذَهَا إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهِ؛ ليَتَذَوَّقَ مَفَاتِنَهَا بثَمَالَةٍ؛ لَكِنَّ المَالَ عِنْدَهُ كَانَ أَسْمَى مِنْ شَهَوَاتِهِ؛ كَبَحَ أَطْمَاعَهُ فِي جَسَدِها؛ واسْتَغَلَّ حُضُورَهَا المُمَيَّزَ فِي جَلْبِ النُّقُودِ؛ بَدَأَتْ فَقْرَتَها اليَوْمِيَّةَ، رَقَصَتْ رَقْصَةً غَجَرِيَّةً لَمْ تَرْقُصْـــهَا مِنْ قَبْلُ، كَانَتْ تَهِزُّ جَسَـــدَها بخِفَّةٍ؛ وتَتَصَـــنَّعُ حَرَكَاتٍ بَهْلَوَانِيَّةً تَقُومُ بِهَا بامْتِيَازٍ، كَانَ جَسَـدُها حَاضِرًا مَعَ المُوسِـيقَى، وعَقْلُها غَـائِبًا مَعَهُ؛ كَانَتْ تَرَاهُ أَمَامَهَا فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ؛ والَّتِي تَمَنَّتْ أنْ تَدْخُلَهَا مَعَهُ زَوْجَة، رَقَصَـــتْ وكَأَنَّهَا تَرْقُصُ لَهُ، غَضَّـــتْ بَصَرَ-ـهَا عَن الجَمِيعِ، وكَذَلِكَ عَقْلُهَا، وحِيْنَ انْتَهَتْ فَقْرَتُهَا؛ اسْـــتَأْذَنَتْ مُدِيرَهَا فِي الانْصِرَ-ـافِ؛ لَمْ يُمَانِعْ بَلْ أَبْدَى سَـــعَادَتَهُ الفَائِقَةَ بمَا قَدَّمَتْهُ اللَّيْلَةَ ثُمَّ هَمَسَ فِي أُذُنِيهَا قَائِلًا:

-"هَلْ أَحُلُّ عَلِيكِ ضَيْفًا هَذَا الصَّبَاحِ؟"

ابْتَسِمَتْ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً ثُمَّ قَالَتْ:

- "سَـأَسْـبِقُكَ إِلَى المَنْزِلِ؛ كَي أَسْـتَعِدَّ؛ ولَكِنْ لا تَتَأَخَّرْ كَثِيرًا؛ فرُبَّمَا يَحْقِدُ النَّوْمُ عَلِيكَ؛ ويَغَارُ مِنْكَ؛ ويَأْخُذُنِي بَيْنَ أَحْضَانِهِ!!"

اهْتَزَّ جَسَدُهُ شَهْوةً إِثْرَ حَدِيثِها؛ وقَالَ:

-"بَلْ؛ سَأُرَافِقُكِ إِلَى المَنْزِلِ الآنَ!!"

ابْتَسِمَتْ لَهُ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً ثُمَّ انْطَلَقَتْ برِفْقَتِهِ، نَظَرَتْ خِلْسَةً إِلَى رُكَامِ مَنْزِلِ "مصـــطفى"؛ والَّذِي انْهَارَتْ جُدْرَانُهُ بفِعْلِ الحَرِيقِ ثُمَّ حَدَّثَتْ نَفْسَها بقَهْرٍ:

-"اليَوْمَ أَوَّلُهم!!"

دَلِفَتْ دَاخِلَ المَنْزِلِ برِفْقَةِ "شمعون" ثُمَّ أَغْلَقَتِ البَابَ خَلْفَهُمَا؛ وسَحَبَتْهُ مِنْ يَدِهِ؛ وهِيَ تَقُولُ :

-"عَزِيزِي شـمعون؛ هَلَا أَخْبَرْتَنِي مَا سِرُّ هَذِهِ البِئْرِ المُخَبَّأَةِ أَسْـفَلَ سَرِيرِكَ؟"

أَجَابَهَا بثِقَةٍ :

-"لا أَعْلَمُ عَزِيزَتِي؛ وَجَدْتُهَا هَكَذَا حِيْنَ اشْـــتَرِيتُ هَذَا المَنْزِلِ القَدِيمِ؛ وكَي لا أُنْفِقَ عَلَى رَدْمِهَا مَالًا؛ ولضِـــيقِ فَتْحَتِها وَضَـــعْتُ سَرِيرًا عَلِيهَا؛ لَكِنَّنِي حَقٌّ لا أَعْلَمُ سِرَّهَا"

أَوْمَأَتْ برَأْسِـــها تَفَهُّمًا ثُمَّ عَلَّقَتْ يَديهَا فِي رَقَبَتِهِ؛ وقَبَّلَتْهُ قُبْلَةً مُغْرِيَةً؛ وقَالَتْ بدِلَالٍ:

-"أَغْمِضْ عَينِيكَ؛ لَدِيَّ مُفَاجَأَةٌ لَكَ!!"

أَغْمَضُـــهُمَا دُونَ حَدِيثٍ؛ فتَرَكَتْ رَقَبَتَهُ؛ وتَحَرَّكَتْ نَحْوَ الدُّرْجِ المَوْضُـــوعِ بجِوَارِ سَرِيرِهَا؛ فَتَحَتْهُ؛ وأَخْرَجَتْ مِنْهُ سِـــكِّينًا ثُمَّ تَوَجَّهَتْ

نَحْوَهُ؛ احْتَضَـنَتْهُ مِن الخَلْفِ؛ ووَضَـعَتِ السِّـكِينَ عَلَى رَقَبَتِهِ؛ حِيْنَها شَـعَرَ بشِيءٍ بَارِدٍ؛ فَتَحَ عِينِيهِ فِي فَزَعٍ؛ كَانَتْ هِيَ قَدْ أَحْكَمَتْ قَبْضَـتَهَا عَلِيهِ ثُمَّ سَحَبَتْه كَبَهِيمَةٍ إِلَى البِئْرِ، ثُمَّ أَلْقَتْ بِهِ دَاخِلَهَا قَائِلَةً:

-"أَيَّتُهَا البِئْرُ العَمِيقَةُ مِن اليَوْمَ؛ سَـتُصْـبِحِينَ مَقْبَرَةً لِلْجُبَنَاءِ المُغْتَصِبِينَ!!"

عَقِبَ جُمْلَتِها بَكَتْ بشِدَّةٍ؛ وأَضَافَتْ:

-"وَطَنِي الشَّـهِيد؛ اليَوْمَ أَرْسَلْتَ إِلِيكَ رُوحًا خَبِيثَةً؛ انْتَظِرْهُ هُنَاكَ فِي العَالَمِ الآخَرِ؛ وخُذْ بثَأْرِكَ مِنْهُ، لا تَدَعْهُ يَنَامُ فِي سَـلَامٍ؛ أَلْقِهِ فِي النَّارِ؛ وابْتَسِمْ ؛ فَامْرَأَتُكَ لَنْ يَهْدَأَ لَهَا بَالٌ؛ حَتَّى تُرْسِلَ لَكَ كُلَّ يَوْمٍ هَدِيَّةً!!"

.....

بَدَأَتْ تُنَظِّفُ الأَرْضِيَّةَ بقُمَاطَةٍ مُبَلَّلَةٍ؛ لتُزِيلَ آثَارَ الدَّمِّ الَّذِي سَالَ عَلِيهَا؛ وحِيْنَ انْتَهَتْ بَدَّلَتْ مَلَابِسَـها؛ وارْتَدَتْ جِلْبَابًا أَكْثَرَ حِشْـمَةً ثُمَّ مَدَدَتْ جَسَـدَها فَوْقَ فِرَاشِـهَا، اسْـتَحْضَرَتْ بمُخَيلَتِها صَـوْتَ فَقِيدِها؛ وهُوَ يَتْلُو آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ ثُمَّ غَابَتْ عَنْ وَعْيهَا لسَاعَاتٍ .

وفِي المَسَـاءِ عَادَ إِلَيهَا وَعْيهَا؛ فنَهَضَـتْ بكِبْرِيَاءٍ ثُمَّ ارْتَدَتْ فُسْـتَانًا بُنِّيًا لا يَقِلُّ إِثَارَةً عَنْ سَـابِقِهِ ؛وخَرَجَتْ، وعِنْدَمَا وَصَـلَتْ إِلَى الحَانَةِ؛ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ غُرْفَةِ المُدِيرِ؛ ثُمَّ جَلَسَـتْ خَلْفَ مَكْتَبِهِ؛ فاسْـتَعْجَبَ "جوزيف" مِنْ فِعْلِهـا؛ وسَـارَ خَلْفَهَـا حتَّى رَآهَـا تَجْلِسُ عَلَى كُرْسِي المَكْتَبِ؛ فسَأَلَهَا بذُهُولٍ:

-"أَلَا تَخَافِينَ رَدَّ فِعْلِ "شمعون؟!"

حَدَّقَتْ بجُمُودٍ ثُمَّ قَالَتْ بنَبْرَةٍ حَازِمَةٍ:

"أَغْلِقْ البَابَ خَلْفَكَ؛ وتَقَدَّمْ؛ أُرِيدُكَ فِي أَمْرٍ هَامٍ"

ابْتَلَعَ رِيْقَهُ بصُعُوبَةٍ بَالِغَةٍ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهَا سَتَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّ وُجُودِهِ أَمْسِ عِنْدَ بِيْتِ "مصـــطفى"؛ وبَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ عَلَى مَا طَلَبَتْهُ مِنْهُ؛ تَحَرَّكَ حتَّى وَقَفَ أَمَامَ المَكْتَبِ؛ فبَادَرَتْهُ بالحَدِيثِ قَائِلَةً:

-"أَنْصِـــتْ إِلَيَّ جَيدًا؛ لَقَدْ عَلِمَتِ السُّـــلُطَاتُ المَصْرِيَّةُ مَا فَعَلَهُ "شمعون" فِي رَجُلِهم "مصطفى"؛ هَذَا مَا أَخْبَرَنِي بِهِ مُدِيرُكَ فِي الصَّبَاحِ، كَمَا أَنَّهُ وَكَّلَ إِلَيَّ إِدَارَةَ المَحَلِّ؛ قَبْلَ أَنْ يَفِرَّ هَارِبًا مِنْ هَذِهِ المَدِينَةِ"

هَبَطَ بجَسَـــدِهِ عَلَى أَقْرَبِ مَقْعَدٍ لَهُ عَقَبَ حَدِيثِها؛ وهَبَطَ مَعَهُ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ؛ ثُمَّ تَسَاءَلَ بارْتِبَاكٍ بَيِّنٍ:

-"وأَنَا، تَرَكَنِي وهَرَبَ دُونَ أَنْ يُنَبِّهَنِي!!"

فضَحِكَتْ بهَسْتِيرِيَا؛ وقَالَتْ:

-"عَزِيزِي، نَحْنُ اليَهُودُ لا نَعْرِفُ إلا أَنْفُسَـــنَا فَقَطْ؛ نَضَـــعُ أَبْنَاءَنَا أَسْفَلَ أَقْدَامِنَا؛ لنَعْلُو بأَجْسَادِنَا؛ لَكِنْ لَا عَلِيكَ؛ فحَدِيثُهُ كَانَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَطْ؛ ولَمْ يَذْكُرْ اسْـــمَكَ؛ رُبَّمَا لأَنَّهُ كَانَ فِي حَالَةٍ مِن الذُّهُولِ؛ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّهُم عَرِفُوا أَنَّهُ المُدَبِّرُ والمُنَفِّذُ؛ وهَذَا الأَمْرُ جَعَلَهُ يَشُـــكُّ فِيكَ؛ أَنْتَ مَنْ أَفْشَـــيْتَ سَرَّهُ؛ وفَضَـــحْتَ أَمْرَهُ؛ لَكِنَّهُ ضَـــعِيفٌ لَنْ يَسْـــتَطِيعَ مُوَاجَهَتَكَ" .

أَخَذَ نَفَسًا عَمِيقًا إِثْرَ كَلِمَاتِهَا ثُمَّ زَفَرَهُ؛ وقَالَ بتَعَجُّبٍ:

-"أَحَقًّا هَذَا !!..لا أُصَدِّقُ!!"

فِي حِيْنِ نَهَضَتْ عَنْ مَقْعَدِهَا؛ وتَحَرَّكَتْ نَحْوَهُ بدَلَالٍ ثُمَّ قَالَتْ:

-"بَلْ صَدِّقْ؛ أَتَعْرِفُ أَنَّهَا فُرْصَةٌ جَيدَةٌ؛ ليُصْبِحَ هَذَا العَمَلُ مِلْكًا لَنَا؛ مُنْذُ أَنْ وَطَأَتْ قَدَمَاي هَذِهِ الأَرْضَ؛ ووَقَعَتْ عِينَاي عَلِيكَ؛ وأَنَا أُرِيدُكَ؛ أَشْتَهِيكَ بشِدَّةٍ!!"

لَمْ يَتَمَالَكْ أَعْصَابَهُ، وكَذَلِكَ لِسَانُهُ لَمْ يَتَفَوَّهْ بحَرَفٍ وَاحِدٍ؛ ليَسْأَلَهَا، أَوْ يُحَدِّثَهَا؛ بَلْ ظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيهَا بشَهْوَانِيَّةٍ؛ فانْتَهَزَتْ هِيَ الفُرْصَةَ؛ واقْتَرَبَتْ مِنْهُ حتَّى لَفَحَتْ وَجْهَهُ بأَنْفَاسِهَا الحَارَةِ؛ وهِيَ تَقُولُ بحِنُّوٍ:

-"انْهَضْ؛ وأَنْجِزْ عَمَلَكَ؛ فلَيَكُنْ هَذَا الصَّبَاحُ لِي ولَكَ!!"

قَالَتْ جُمْلَتَهَا؛ وتَنَحَتْ جَانِبًا؛ فنَهَضَ بخُمُولٍ كَالمَخْمُورِ؛ وخَرَجَ مِن المَكْتَبِ، بَيْنَمَا عَادَتْ هِيَ تَجْلِسُ عَلَى الكُرْسِي كَمَا كَانَتْ؛ ثُمَّ فَتَحَتْ دُرْجَ المَكْتَبِ؛ فلَمِحَتْ دَاخِلَهُ مُسَدَّسًا؛ أَخَذَتْهُ ؛ووَضَعَتْهُ فِي حَقِيبَتِها ثُمَّ نَهَضَتْ عَنْ مَقْعَدِهَا حَامِلَةً حَقِيبَتَها بيَدِهَا؛ ومِنْ ثَمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى ثَلَّاجَةِ الخَمْرِ؛ الْتَقَطَتْ مِنْهَا زُجَاجَةً؛ ووَضَعَتْهَا دَاخِلَ الحَقِيبَةِ ثُمَّ تَحَرَّكَتْ نَحْوَ الخَارِجِ، انْقَضَتِ اللَّيْلَةُ؛ وعِنْدَمَا نَوَتْ عَلَى الرَّحِيلِ؛ نَادَتْ "جوزيف" الَّذِي حَضَرَ إِلَيهَا عَلَى الفَوْرِ؛ فهَمَسَتْ في أُذُنِيهِ قَائِلَةً:

-"لا تَتَأَخَّرْ؛ هَذَا الصَّبَاحُ سَتَدْخُلُ بجَسَدِكَ الجَنَّةَ!!".

فَتَحَتْ أَمَامَهُ آفَاقًا مِن الجِنَانِ، ثُمَّ تَرَكَتْهُ يُمَنِّي نَفْسَــهُ بمَا قَالَتْ وذَهَبَتْ؛ انْتَظَرَتْهُ هُنَاكَ بَعْدَ أَنْ ارْتَدَتْ قَمِيصًــا لا يُخْفِي شَــيْئًا مِنْ جَسَـدِها، بَلْ يُبْرِزُ كَافَّةَ مَفَاتِنِها؛ وبَعْدَ نِصْـفِ سَـاعَةٍ سَـمِعَتْ طَرَقَاتِهِ عَلَى البَابِ؛ ففَتَحَتْ لَهُ عَلَى الفَوْرِ؛ حِيْنَ رَآهَا تَمَايَلَتْ رَأْسُــهُ كَجَسَــدِ رَاقِصَــةٍ مُحْتَرِفَةٍ ثُمَّ دَلَفَ دَاخِلَ المَنْزِلِ، تَحَرَّكَ نَحْوَ غُرْفَةِ النَّوْمِ؛ وهِيَ تَتَّبِعُهُ، اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ فَوْقَ السَّرِيرِ ثُمَّ فَتَحَ ذِرَاعِيهِ؛ فرَفَعَتْ حَاجِبًا؛ وخَفِضَتْ آخَرَ؛ وبَدَأَتْ تَقُولُ بإثَارَةٍ:

-"أُرِيدُكَ أَنْ تَسْتَلْقِي عَلَى بَطْنِكَ؛ وتُغْمِضَ عِينِيكَ؛ أُرِيدُ أنْ أُدَلِكَ لَكَ ظَهْرَكَ".

فَعَلَ مَا طَلَبَتْهُ مِنْهُ دُونَ تَرَدُّدٍ، بَيْنَمَا اقْتَرَبَتْ مِنْهُ؛ ورَكَبَتْ عَلَى ظَهْرِهِ كَمَنْ يَرْكِبُ حِمَارًا، ثُمَّ مَالَتْ بِرَأْسِهَا نَحْوَ أُذُنِهِ؛ وقَالَتْ :

-"أُحِبُّ...."

تَرَكَتْ كَلِمَتَهَا مُعَلَّقَةً؛ وصَمَتَتْ؛ فتَدَافَعَ هُوَ بِالكَلَامِ قَائِلًا:

-"أَكْمِلِيهَا؛ لا تَتَوَقَّفِي؛ فصَــوْتُكِ حِيْنَ يَقُولُها يَجْعَلُ مِنْ قَلْبِي خَـادِمًا لَـكِ؛ نَطَقْتُها لَـكِ كَثِيرًا مِنْ قَبْلُ؛ كُنْتُ أُحَـدِّثُ بِهَا نَفْسِـي؛ وأَسْـتَحْضِرُكِ فِي خَيَالِي؛ لتُجِيبِينِي عَلِيهَا؛ سَمِعْتُهَا مِنْكِ كَثِيرًا؛ لَكِنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّهَـا فِي الوَاقِعِ سَــتَكُونُ ثَمِلَـةً هَكَـذَا؛ حِيْنَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيكِ!!"

تَنَهَّدَتْ بعُمْقٍ؛ فأَرْبَكَتْ كُلَّ حَوَّاسِهِ ثُمَّ قَالَتْ :

-"أَغْمِضْ عِينِيكَ؛ فَلَا أُحِبُّ خَائِنِي الوُعُود!!"

وعَلَى الفَوْرِ أَطْبَقَ جِفْنِيهِ؛ وانْتَظَرَ حَدِيثَهَا؛ فمَدَّتْ يَدَهَا نَحْوَ حَقِيبَتِها؛ وأَخْرَجَتِ السِّــلَاحَ ثُمَّ ضَرَبَتْهُ بكَعْبِهِ عَلَى مُؤخِرَةِ رَأْسِــهِ؛ فأُغْشِيَــ عَلِيهِ ثُمَّ نَهَضَــتْ عَنْ ظَهْرِهِ؛ وسَــحَبَتْهُ مِنْ فَوْقِ الفِرَاشِ؛ فسَقَطَ أَرْضًا؛ وبَعْدَهَا سَارَت بِهِ حتَّى وَصَلَتْ إِلَى الغُرْفَةِ الأُخْرَى؛ ومِنْ ثَمَّ تَرَكَتْهُ عِنْدَ البِئْرِ؛ وعَادَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا؛ جَلَبَتْ حَقِيبَتَها؛ وتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ، ثُمَّ سَــكَبَتِ الخَمْرَ فَوْقَ جَسَــدِهِ؛ وأَشْــعَلَتْ فِيهِ عُودَ الثِّقَابِ؛ وعِنْدَمَا تَوَهَّجَتِ النَّارُ؛ وبَدَأَتْ تَأْكُلُهُ؛ كَانَ هُوَ قَد اسْتَفَاقَ مِنْ غَيْبُوبَتِهِ؛ وبَدَأَ يَصْرُخُ؛ فضَغَطَتْ عَلَى رَأْسِهِ بقَدَمِهَا؛ وقَالَتْ :

-"ذُقْ مَا أَذَقْتُهُ لِي ..."

ثُمَّ قَذَفَتْ بِهِ دَاخِلَ البِئْرِ؛ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أنَّ البِئْرَ جَافَةٌ إِلَّا حِيْنَ أَضَاءَتِ النِّيرَانُ غُرْفَتَهَا؛ بَعْدَ أنْ سَقَطَ؛ فابْتَسِمَتْ فِي نَفْسِها؛ وهَتَفَتْ:

-"هَدِيتِي لَكَ حَبِيبِي؛ أَتَمَنَّى أنْ تُعْجِبَكَ!!"

مَرَّتْ شُــهُورٌ؛ وهِيَ عَلَى حَالِهَا؛ أَصْــبَحَتْ مُحْتَرِفَةً فِي اسْــتِدْرَاجِ اليَهُودِ إِلَى مَنْزِلِهَا ثُمَّ التَّخَلُّصِ مِنْهم؛ وحَرْقِ جُثَثِهم دَاخِلَ البِئْرِ؛ ظَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ مَا يُقَارِبُ أَحَدَ عَشَرَــ شَــهْرًا؛ قَتَلَتْ خِلالِهم مَا يُقَارِبُ مِنْ ثَلَاثمَائِة رَجُلٍ مِنْ نَسْــلِهَا السَّــابِقِ، حَتَّى حَلَّ يَوْمٌ شَــدِيدُ الحَرَارَةِ؛ سَلَخَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ يَوْمَئذٍ جَبِينَ النَّاسِ، وبَيْنَمَا كَانَتْ هِيَ عَائِدَةٌ مِنْ

عَمَلِها؛ حَيْثُ يَوْمُها الأَوَّلُ الَّذِي تَعُودُ فِيهِ إِلَى مَنْزِلَها خَاوِيَة اليَدِ دُونَ ضَـــحِيَّةٍ مُنْذُ بَدَأَتْ خُطَّتَها؛ تَعَرْقَلَتْ فِي الطَّرِيقِ؛ فسَـــقَطَتْ أَرْضًـــا؛ سَـــاعَدَهَا فِي النُّهُوضِ أَحَدُ الرِّجَالِ الغُرَبَاءِ؛ والَّذِي مَا إِنْ حَدَّقَتْ فِيهِ؛ لتَشْـكُرَهُ؛ حتَّى اسْـتَشَـفَّتْ مِنْ مَلَامِحِهِ أَنَّهُ مَصْرِيّ، وحِيْنَ دَقَّقَتْ فِي بُنْيَانِهِ القَوِّي؛ تَذَكَّرَتْ "مصطفى"، نَفْسُ الهَيْئَةِ والبُنْيَانِ؛ تَمَنَّتْ حِيْنُها لَوْ كَانَ ضِمْنَ رِجَالِ الجَيْشِ المِصْرِيّ، وعَلَى الفَوْرِ أُجِيبَتْ أُمْنِيَتُها؛ ولَمْ تَخُبْ؛ وكَأَنَّ هُنَاكَ ثَالِثٌ يَسْـتَمِعُ لحَدِيثِ نَفْسِـها، لا سِـيَّمَا وأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ سَرِيـعَ البَدِيهَةِ، جَرِيء اللِّسَـانِ؛ حَيْثُ سَـأَلَهَا عَن اسْـمِهَا؛ فأَجَابَتْ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ:

-"أديرا"

فَغَرَ فَاهَهُ ثُمَّ تَفَحَّصَ جَسَدَهَا بنَظَرَاتِهِ؛ وقَالَ مُمَازِحًا:

-"أووووه ..أديرا ..المَرْأَةُ القَوِيَّةُ المُثِيرَةُ!!"

أَخْفَضَـــتْ رَأْسَـــهَا فِي خَجَلٍ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَحْتَرِمُ المَصْرِيـينَ كَثِيرًا وتُقَدِّسُـــهم؛ وتُعَامِلُهم برُقِي عَكْسَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ مَعَ أَعْدَائِهم، ثُمَّ شَرَدَتْ بذِهْنِهَا لَلْحَظَةٍ؛ وتَذَكَّرْتْ أَوَّلَ لِقَاءٍ جَمَعَها بحَبِيبِها "مصطفى"؛ ذَرَفَتْ عَينَاهَا دَمْعَتِينِ؛ نَسِـــيَتْ مَعَهُمَا مَنْ كَانَ يَقِفُ أَمَامَها؛ يُرَاقِبُ مَلَامِحَهَا الشَّـــارِدَةَ؛ تَاهَتْ عَنْ وَاقِعِها حتَّى غَشِـــيَهَا الدَّوَارُ؛ وغَامَتْ عِيْنَاهَا؛ فضَـغَطَتْ عَلَى رَأْسِـهَا بشِـدَّةٍ ثُمَّ تَمَايَلَتْ بجَسَـدِها؛ وقَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ أَرْضًا؛ أَمْسَكَها الرَّجُلُ مِنْ ذِرَاعِها؛ وجَذَبَها إِلَيهِ ثُمَّ تَسَاءَلَ بقَلَقٍ:

- "مَا بِكِ؟!"

جَفَّ مَاءُ حَلْقِها؛ ولَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُجِيبهُ، وعِنْدَمَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبِينِهَا؛ ليَعْلَمَ حَرَارَتَها الَّتِي لَسِعَتْهُ؛ حِيْنُها عَلِمَ عَلَى الفَوْرِ أنَّ الشَّمْسَ قَدْ نَالَتْ مِنْهَا؛ فسَنَّدَها ؛وتَوَجَّهَ بِهَا نَحْوَ بَيْتِهِ؛ أَجْلَسَهَا عِنْدَ البَابِ؛ وهَرْوَلَ نَحْوَ الدَّاخِلِ؛ فأَحْضَرَ كُوبًا مِن المَاءِ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهَا عَلَى صَدْرِهِ وسَقَاهَا؛ شَرِبَتْ بصُعُوبَةٍ بَالِغَةٍ؛ وبَعْدَ أَن اسْتَفَاقَتْ قَلِيلًا سَأَلَتْهُ :

-"مَنْ أَنْتَ؟!"

فَأَجَابَهَا بتَفَاخُرٍ:

-"فرغلي المنوفي عَقِيد فِي الجَيْشِ المِصْرِيّ!!"

لَاحَظَتْ نَظَرَاتِهُ الغَرِيبَةَ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَخْتَرِقُ كُلَّ أَجْزَاءِ جَسَدِها؛ عَكْسَ مَا كَانَ يَفْعَلُ "مصطفى"؛ فبَكَتْ بشِدَّةٍ؛ ليَنْسَحِبَ هُوَ مِنْ صَمْتِهِ سَرِيعًا؛ ويَسْأَلُها بلَهْفَةٍ عَنْ سِرِّ بُكَائِها الشَّدِيدِ؛ فلَمَّا لَمْ تُجِبْهُ اسْتَبْدَلَ سُؤالَهُ بآخَرَ :

-"أَنْتِ يَهُودِيَّة ؟"

هَزَّتْ رَأْسَها نَفْيًا ثُمَّ سُرْعَانَ مَا أَجَابَ لِسَانُهَا كَذِبًا :

-"نَعَمْ يَهُودِيَّة!!"

ابْتَسِمَ ثُمَّ قَالَ بدَهَاءٍ :

- "هَلْ أُصَدِّقُ لِسَانَكِ أَمْ أُصَدِّقُ رَأْسَكِ؟"

كَانَتْ تَوَدُّ أَنْ تُكَذِّبَ لِسَـــانَهَا؛ وهَمَّتْ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ؛ لَكِنَّهَا صَمَتَتْ؛ وحَذَّرَتْ لِسَانَهَا مِن الحَدِيثِ؛ حَيْثُ قَالَتْ فِي نَفْسِها :

-"اُصْمُتْ؛ وإِلَّا قَطَّعْتُكَ!!"

لَمْ يَنْتَظِر الإِجَابَةَ؛ بَلْ بَاغَتْهَا بسُؤالٍ آخَرَ:

-"هَلْ تَقْطُنِينَ فِي هَذِهِ المَنْطِقَةِ ؟"

أَجَابَتْهُ بإِيْجَازٍ :

-"نَعَمْ..."

تَابَعَ فُضُولَهُ؛ وسَأَلَ:

-"هَلْ تَعْمَلِينَ؟"

أَجَابَتْ بصِدْقٍ:

-"أنَا صَاحِبَةُ بَار السَّعَادَةِ"

أَشَارَ تُجَاهَهُ؛ وقَالَ:

-"هَذَا الَّذِي يَقِعُ مَوْقِعُهُ أَوَّل الشَّارِعِ؟!"

أَجَابَتْ بعِينِيهَا ثُمَّ شَرَدَتْ بمُخَيِلَتِها تُنَاظِرُ ظِلًّا تَتْبَعُهُ ذِكْرِيَاتُها؛ والَّتِي لا تَنْفَكُّ تَطْرُقُ بَابَ وَاقِعِها كغَرِيبٍ لا تَأْلَفُهُ الرُّوحُ، مَرَّتِ الدَّقَائِقُ

بَطِيئَةٌ حتَّى كَادَتْ خِلالَها أنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ نَفْسِـها بأيّ طَرِيقةٍ كَانَتْ، ثُمَّ طَرَقَ فِكْرَهَا سُؤالٌ:

-" لِمَاذَا لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ ؟!!"

لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ لمَاذَا تَتَسَاءَلُ؟!؛ فَهِيَ فَقَطْ تَبْحَثُ عَمَّنْ يُشْبِهُهُ، تَوَسَّـلَتْ إِلَى عَقْلِها أَنْ يَتْرُكَ السُّـؤالَ؛ ليَرْحَلَ مَعَ رِيَاحِ الخَرِيفِ الأُولَى؛ ومَا إِنْ وَصَـلَتْ إِلَى مَرْحَلَةٍ مَجْهُولَةٍ؛ حتَّى بَدَأَتْ بتَتَبُّعِ سِـيرَتِهِ، فِي حِيْنِ بَادَرَ هُوَ بالحَدِيثِ عَنْ نَفْسِـهِ مُنْذُ الصِّـغَرِ؛ كَانَتْ تُنْصِـتُ بأُذُنِيهَا؛ بَحْثًا عَنْ خَطَأ فِي حَدِيثِهِ يُغَيِّرُ نَظْرَتَهَا لَهُ، ومَعَ هَذَا ابْتَسِـمَتْ بِلَا وَعْي، ولا تَصَنُّعٍ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يَشْـعُرُ بسَـعَادَةٍ غَامِرَةٍ؛ كَأَنَّهُ عُصْـفُورٌ احْتَلَّ الفَضَـاءَ؛ أمَّا هِيَ فَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا فَرَاشَةٌ بجَسَدِ مُحَنَّطٍ، ورُوحٍ تَشَقُّ طَرِيقَها نَحْوَ البَعِيدِ إِلَى اللا عودةِ؛ بسَبَبِ لَحْظَةٍ سُكْرِيَّةٍ تَنَاوَلَتْهَا فِي يَوْمٍ مَا، أو مَكَانٍ ما، أو مَعَ أَحَدٍ ما!!

طَالَ الحَدِيثُ بَيْنَهُمَا حَتَّى سَـقَطَتْ مِنْ عِينِيهَا بَعْضُ حَبَّاتِ الكِريسْتَالِ أَلَمًا؛ مِمَّا زَادَهَا جَمَالًا فِي نَظَرِهِ، كَانَ مُسْتَمْتِعًا بحَدِيثِهَا مَعَهُ؛ وَدَّ لَوْ تَنْهَضُ؛ وتَدْلِفُ مَعَهُ دَاخِلَ المَنْزِلِ؛ لَكِنَّ خَوْفَهُ مِنْ تَذَمُّرِهَا مَنَعَهُ أنْ يَطْلُبَ مِنْهَا هَذَا، حَضَرَهُمَا صَمْتٌ مُطْبِقٌ بَعْدَ حَدِيثٍ دَامَ لسَاعَتِينِ؛ وعِنْدَمَا أَحَسَّـتْ أَنَّهَا بحَالَةٍ جَيدَةٍ؛ وتَسْـتَطِيعُ المَشِيـ نَهَضَـتْ؛ واسْـتَأْذَنَتْهُ بالانْصِرَافِ؛ لَكِنَّها لَمْ تَنْتَظِرْ إِذْنَهُ؛ بَلْ تَحَرَّكَتْ فِي طَرِيقِها؛ فاسْتَوْقَفَهَا هُوَ قَائِلًا بتِلْقَائِيَّةٍ :

-"هَلْ أَلْقَاكِ ثَانِيَةً؟!"

سُؤالٌ طَرَحَهُ عَلِيهَا ثُمَّ أَجَابَ عَلَى نَفْسِهِ بِثِقَةٍ بَالِغَةٍ :

-"بالطَّبْعِ سَنَلْتَقِي!!"

كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتَحِمَهَا بمُبَادَرَتِهِ ولَبَاقَتِهِ فِي الحَدِيثِ؛ لَكِنَّهَا مَا اسْتَحْسَنَتْ حَدِيثَهُ؛ ذَهَبَتْ وبِدَاخِلِهَا أَلَفُ سُؤالٍ وسُؤالٍ كَانَ أَقْوَاهُم :

-"لِمَاذَا لَمْ يَشْــعُرْ بالقَشْــعَرِيرةِ والاسْــتِيَاءِ مِنِّي؛ حِيْنَ عَلِمَ أَنَّنِي يَهُودِيَّةٌ ؟"

-"سَأَعْرِفُ لَاحِقًا".

كَانَتْ هَذِهِ إجَابَتُهَا عَلَى سُــؤالِهَا؛ حِيْنَمَا وَصَــلَتْ إِلَى المَنْزِلِ؛ دَخَلَتْ غُرْفَةَ البِئْرِ؛ وهَتَفَتْ بِأَعْلَى صَــوْتِهَا مُخَاطِبَةً الجُثَثَ المَحْرُوقَةِ فِي أَعْمَاقِهَا :

-"أَيُّهَا الأَنْذَالُ الأَوْغَادُ؛ اليَوْمَ عُطَلَةٌ؛ لَمْ أَجْلِبْ لَكُم ضَيْفًا جَدِيدًا؛ بَلْ نَذْلًا جَدِيدًا؛ ولَكِنَّنِي أَعِدُكُم بِأَنْ أُعَوِّضَكُم عَنْ هَذَا اليَوْمِ!!"

أَلْقَتْ سُخْطَ الحَدِيثِ عَلِيهم ثُمَّ بَصَقَتْ دَاخِلَ البِئْرِ؛ وتَحَرَّكَتْ نَحْوَ غُرْفَةِ نَوْمِهَا؛ هَرَبَتْ مِنْ ذِكْرِيَاتِها بالنَّوْمِ؛ وعِنْدَمَا اسْــتَيْقَظَتْ؛ عَزَمَتْ عَلَى أَنْ تَجْلِبَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ رَجُلِينِ؛ تَعْوِيضًا عَمَّا سَلَفَ؛ سَتَتْرُكُ العَمَلَ فِي مُنْتَصَــفِ اللَّيْلِ؛ وتَدْلِفُ إِلَى المَنْزِلِ بصُــحْبَةِ رَجُلٍ؛ وبَعْدَ التَّخَلُّصِ مِنْهُ سَتَعُودُ؛ لتَجْلِبَ آخَرَ!!

هَكَذَا فَكَّرَتْ ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى عَمَلِهَا، وحِيْنَ دَلَفَتْ وَقَعَتْ عِينَاهَا عَلَى "فرغلي"، وهُوَ يَجْلِسُ عَلَى إِحْدَى الطَّاوِلاتِ يَحْتَسِي الخَمْرَ؛

اسْتَشَاطَتْ غَضَبًا ثُمَّ تَحَرَّكَتْ نَحْوَهُ؛ جَلَسَتْ عَلَى الكُرْسِي المُقَابِلِ لَهُ؛ وقَالَتْ:

-"مَرْحَبًا"

تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهُ حِيْنَ رَآهَا، ثُمَّ نَهَضَ عَنْ مَقْعَدِهِ؛ وأَمْسَكَ بيَدِهَا؛ وانْحَنَى بقَامَتِهِ؛ كَي يُقَبِّلَهَا؛ فاشْـــمَأَزَّتْ رُوحُهَا مِنْ فِعْلِهِ؛ لَكِنَّها وَارَتْ شُعُورَهَا بابْتِسَامَةٍ مُصْطَنِعَةٍ ثُمَّ نَهَضَتْ؛ لتُبَاشِرَ عَمَلَهَا، قَضَتْ لَيْلَتَهَا فِي العَمَلِ؛ وعَادَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا حَزِينَةً مَقْهُورَةً؛ كَوْنُها لَمْ تُنَفِّذْ مَا عَزِمَتْ عَلِيهِ؛ خِشْـــيةً أَنْ يَتَتَبَّعَهَا هَذَا الَّذِي يُرِيدُ اقْتِحَامَ حَيَاتِهَا؛ ارْتَدَتْ حُزْنَهَا وغَفَتْ؛ وحِيْنَ أَتَى المَسَـــاءُ تَوَجَّهَتْ إِلَى العَمَلِ كَعَادَتِهَا؛ تَأَفَّفَتْ حِيْنَ رَأَتْهُ يَجْلِسُ عَلَى نَفْسِ المَقْعَدِ؛ لِذَا تَجَاهَلَتْهُ؛ وتَوَجَّهَتْ نَحْوَ المَكْتَبِ؛ مَكَثَتْ دَاخِلَهُ حتَّى انْقَضَى اللَّيْلُ؛ وعِنْدَ خُرُوجِهَا مِن البَارِ؛ وَجَدَتْهُ يَقِفُ عِنْدَ البَابِ يَنْتَظِرُهَا؛ كَانَتْ نَظَرَاتُهُ تَأْكُلُهَا؛ بَيْنَمَا أَفْصَحَتْ شَفَتَاهُ عَنْ نِيَتِهُمَا فِي الْتِهَامِ جَسَـــدِهَا، ومَا أَخْفَتْهُ المَلَابِسُ؛ أَظْهَرَتْهُ المَلَامِحُ؛ كُلُّ شِيءٍ فِيهِ كَانَ يُرِيدُهَا بقُوَّةٍ؛ تَجَاهَلَتْهُ بَعْدَ أن اسْـــتَشَـــفَّتْ مَكْنُونَهُ؛ لَكِنَّهُ اعْتَرَضَ طَرِيقَهَا ثُمَّ تَسَاءَلَ:

-"لِمَاذَا تَهْرُبِينَ مِنِّي؟!"

نَظَرَتْ إِلَيهِ بِاسْتِيَاءٍ ثُمَّ أَجَابَتْ :

-"نَحْنُ أَعْدَاءٌ؛ أَنْتَ مَصْرِيّ، وأنا...."

قَاطَعَهَا قَائِلًا :

-"سَأَخْبِرُكِ سِرًّا؛ لَكِنْ بشَرْطٍ....."

أَخَذَهَا فُضُولُها إِلَى سُؤالِهِ عَنْ شَرْطِهِ؛ فَأَجَابَ:

-"سَــأَخْبِرُكِ سِرًّا يُنْهِي العَدَاءَ بَيْنَنَا؛ شَرِيطَةَ أَنْ أُخْبِرَكِ إيَّاهُ؛ وأَنْتِ فِي أَحْضَانِي ...."

تَسَــارَعَتْ دَقَّاتُ قَلْبِهَا؛ ودَارَتْ عَجَلَاتُ أَفْكَارِهَا؛ لتُنْتِجَ مِئَاتِ الأَسْئِلَةِ الَّتِي رُبَّمَا تَكُونُ سِرَّهُ المَكْنُونَ:

-"رُبَّمَا كَانَ يَعْرِفُ مصــطفى؛ وهُوَ الَّـذِي حَكَى لَـهُ عَنِّي؛ ورُبَّمَا يَتَصَــنَّعُ السَّــذَاجَةَ؛ لأَنَّ لَدِيهِ هَدَفٌ مِثْلِي؛ رُبَّمَا يَعْلَمُ مَا أَفْعَلُهُ؛ ويُرِيدُ مُقَابِلًا لصَمْتِهِ؛ كَي لا يَبُوحَ بسِرِّي"

أَخرَجَهَا مِنْ شُرُودِهَا؛ حِيْنَ قَالَ :

-"لَنْ تَنْدَمِي أَبَدًا!!".

هَزَّتْ رَأْسَــهَا إيْجَابًا؛ وكَادَ الفُضُــولُ أَنْ يَقْتُلَهَا؛ فقَتَلَتْ خَجَلَهَا؛ ووَافَقَتْ عَلَى عَرْضِــهِ؛ تَوَجَّهَا مَعًا نَحْوَ مَنْزِلِهِ؛ وعِنْدَمَا أَصْــبَحَا دَاخِلَ غُرْفَةِ النَّوْمِ؛ اقْتَرَبَ مِنْهَا؛ أَرَادَ أَنْ يَحْتَضِــنَهَا؛ بَلْ يَنْهَشَ لَحْمَهَا؛ لَكِنَّها اسَتوقَفَتْهُ بيَدِهَا؛ حِيْنَ جَعَلَتَهَا حَائِلًا بَيْنِهَا وبَيْنَ جَسَدَهِ ثُمَّ قَالَتْ:

-"أَخْبِرُنِي السِّرَّ أَوَّلًا"

تَأَفَّفَ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ:

-"أَجَلْ؛ أَرَدْتُ أَنْ أُخْبِرَكِ أَنَّنِي رَغْمُ انْتِمَائِي لِهَذَا الجَيْشِ؛ إلَّا أَنَّنِي لا أُؤمِنُ بأَحَقِيتِنَا فِي هَذِهِ الأَرْضِ؛ ولِهَذَا فَأَنَا أَعْمَلُ لحِسَابِكُم؛ وهَذَا عَن اقْتِنَاعٍ تَامٍ مِنِّي!!"

بَدَتِ الصَـــدْمَةُ وَاضِـــحَةً عَلَى مَلَامِحِهَا؛ وحَلَّتْ عَلِيهَا نَكْسَـــةٌ أُخْرَى؛ اسْـــتَوْطَنَتْ قَلْبَها؛ فَلَمْ تَتَحَدَّثْ حتَّى الرَّدُ هَرِبَ مِنْهَا؛ كَمَا عَجِزَ اللِّسَـانُ عَن النُّطْقِ؛ وظَلَّتْ صَامِتَةً تَرْمِقُهُ بذُهُولٍ؛ لَمْ تَشْـعُرْ بنَفْسِـها، إلَّا وهِي تُخْرِجُ مُسَـدَّسَـهَا مِنْ حَقِيبَتِها؛ وتُوَجِّهُ فُوَّهَتَهُ نَحْوَهُ؛ وتَضْـغَطُ عَلَى زِنَادِهِ بعُنْفٍ؛ وهِيَ تَبْكِي وتَقُولُ بهِسْتِيرِيَا:

-"إِنْ كُنْتَ تَقُولُ هَذَا؛ لتَحْصُـــلَ عَلَى جَسَـــدِي؛ فأَنْتَ خَائِنٌ تَسْتَحِقُّ المَوْتَ؛ وإِنْ كَانَ حَقًّا؛ فأَنْتَ خَائِنٌ مُنْدَسٌ تَسْتَحِقُّ القَتْلَ أَلْفَ مَرَّةٍ ؟!!"

وأَفْرَغَتْ خِزَانَةَ مُسَـدَّسِـهَا فِي صَـدْرِهِ؛ كَانَتْ تُطْلِقُ رُصَاصَـةً مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ تَلْفِظُهَا شَـفَتَاهَا؛ حتَّى سَـقَطَ جُثَّةً هَامِدَةً أمَامَ عِينِيهَا؛ ظَلَّتِ الصَّدْمَةُ مُسِيْطِرَةً عَلِيهَا؛ حتَّى سَمِعَ الجِيرَانُ صَوْتَ طَلَقَاتِ الرُّصَاصِ؛ فهَرْوَلُوا نَحْوَ المَنْزِلِ؛ واقْتَحَمُوهُ؛ ومِنْ ثَمَّ أَبْلَغُوا الجِهَاتِ المُخْتَصَّـــةَ بالحَادِثِ؛ وكَانَ مَفَادُ بَلَاغِهم أنَّ يَهُودِيَّةً قَتَلَتْ عَقِيدًا مِصْرِيًا ؟!!

.....

شَـــهْقَةٌ تَلْوَ أُخْرَى خَرَجَتْ مِنْهَا ثُمَّ ابْتَسِـــمَتْ؛ قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَ رُوحُهَا الحَيَاةَ، وُلِدَتْ مُبْتَسِـــمَةً ؛وأَقْدَمَتْ عَلَى المَوْتِ مُبْتَسِـــمَةً ثُمَّ

مَاتَتْ مُبْتَسِـــمَةً، وعِنْدَمَا لَفَظَتْ أَنْفَاسَـــهَا الأَخِيرَةَ؛ قَالَ رَئِيسُ لَجْنَةِ الإِعْدَامِ:

-"سَيُلَقِّبُكِ التَّارِيخُ بالخَائِنَةِ؛ ويُمَجِّدُ بَطَلَنَا الشَّهِيدَ!!!"

حَقًّا يَكْتُبُ التَّارِيخُ مَا يَرَاهُ أَصْـحَابُ التَّارِيخِ؛ فرُبَّمَا مَجَّدَ خَائِنًا؛ وحَقَّرَ بَطَلًا؛ ونَحْنُ لا نَعْلَمُ ؟!

نِسَاءٌ تَهْوَي الدِّرَامَا

محمد إسماعيل

مُنْذُ أَنْ كَانَ عُمْرِي عَشْرَ سَنَوَاتٍ؛ كان جَدِّي يصنعُ الرَّجُلَ بداخلي، ولا يَكِلُّ ولا يَمِلُّ مِنْ ذلك كُلَّمَا سنحتْ لَهُ الفرصةُ بأي موقف يستغِلَّهُ لأنْ يعلِّمُنِي كيف تكونُ الرجولةُ؟!

كُنْتُ أكبرَ إخوتِي؛ ولذا كان جَدِّي يقولُ لي:

-"أَنْتَ ستكونُ رَجُل البيت يومًا ما!!"

كُنْتُ أحيانًا أشعرُ حِيْنَ كُنْتُ ألعبُ مع الأطفالِ؛ أنَّنِي أرتكبُ حماقاتٍ لا تليقُ برَجُلٍ مثلي، وكأنَّ رَجُلًا حَقِيقيًا هَبَّ مِنْ جَسَدِي ورَأْسِي فعلًا ،- رَحِمَ اللهُ جَدِّي- مات وأنا ابنُ ثلاث عشرة سنةً، وكان وَالِدِي في غربته بالعراق مُنْذُ سَنَتِين؛ لَمْ يَعُدْ إلا حِيْنَ عَلِمَ بمرضِ جَدِّي الشديد!!

مَحُظُوظٌ أَبِي؛ لقد مات جَدِّي بعدما عاد والدي بخَمْسَةِ أيَّامٍ؛ حَزِنَ وَالِدِي جِدًّا على كُلِّ وقتٍ ضاع وهو بعيدٌ عَنْ جَدِّي؛ ولذا كَرِهَ أنْ يعودَ لسَفَرِهِ مَرَّةً أخرى.

كانتْ أُمِّي تقضي أيَّامَها في مشاهدةِ التِّلْفَازِ؛ وتعشقُ المسلسلاتِ؛ وقد أضفى عليها ذلك حُبَّ الدِّرَامَا وتَوَهُّج الأحداثِ،

وبَعْدَ سنةٍ مِنْ وُجُودِ وَالِدِي بيننا تاركًا السَّفَرَ بلا رجعةٍ، إلا وقد صارتْ أُمِّي أكثرَ دِرَامِيَّةً مِنْ بطلاتِ المسلسلاتِ أَنْفُسِهُنَّ؟!

كُلُّ شيءٍ تُحَوِّلُهُ إلي مُسَلْسَلٍ؛ ولا تعرفُ التغافلَ ولا التجاهلَ؛ ولا تُرَاعِي إنْ كان الأمرُ يَسْتَحِقُّ أو لا ؟!؛ وكان وَالِدِي رَجُلًا هَادِئَ الطبعِ؛ يَحِبُّ الهدوءَ والصَّمْتَ ؛ ولذا كانتِ الخلافاتُ بينهما لا تنتهي ؟!

في يومٍ مِن الأيَّامِ قالتْ أُمِّي لوَالِدِي عند نزوله للعَمَلِ:

-"عَلِيكَ أنْ تجلبَ لنا الغَدَاءَ اليَوْمَ: سَمَكًا مَشْوِيًا؛ وأنا سأصنعُ بَاقِي الطَّعَامِ مثل الأرز والسَّلَطَةِ قُبِيل موعدِ عودتِكِ"

واتَّفَقَا على ذلك بالطبعِ .

وعند وقت العودةِ قامتْ أُمِّي بتجهيزِ الطَّعَامِ مُنْتَظِرِينَ عودة وَالِدِي بالسَّمَكِ المَشْوِي ؛ لَكِن الذي حدث هو عُودَةُ وَالِدِي بدُونِ السَّمَكِ؛ نظرتْ أُمِّي لَهُ باستغرابٍ؛ وكان وَالِدِي ظاهرًا عليه التَّعَبُ؛ ولَمْ يكنْ صَافِي المزاجِ؟!

سألتْهُ أُمِّي عن السَّمَكِ؛ فأجابها بأنَّ حادثًا وقع لأحدِ زملائِهِ بالعَمَلِ؛ وحالتُهُ خطيرةٌ؛ وأنَّهُ رُبَّمَا سيموتُ صديقُهُ!!

قالتْ أُمِّي وَقْتَها:

-"وهَذَا يُنْسِيكَ غَدَاءَ أطْفَالَكَ ؟!"

"قَضَاء وقَدَر؛ ما عَسَاكَ أنْ تفعلَ ؟!"-

-"المُهِمُّ مَاذَا سيأكلُ الأطفالَ ؟؟"

-"لقد غَسَلْتُ الخُضَارَ؛ وجَهَّزْتُ السَّلَطَةَ؛ ووضعتُ الأرزَ على النارِ منتظرين عودتك بالسَّمَكِ المَشْوِي ثُمَّ تأتي أَنْتَ بلا مبالاةٍ؛ وتقولُ:

-"إنَّ صَدِيقَكَ كيت وكيت!!"

بالطبعِ أجابها وَالِدِي مُنْفَعِلًا؛ حِيْنَ استفزَّتْهُ بكلامِها، وتسفيهها مِنْ أَمْرِ زميلِهِ.

أكثرتْ أُمِّي مِن الكلامِ حتَّى غَضِبَ وَالِدِي ثُمَّ لكَي يكبحَ جِمَاحَ نَفْسِهِ؛ بلع رِيْقَهُ ؛ وأخذ نفسًا عميقًا؛ ولَمْ يُجِبْها بشيءٍ إلا قَوْلَهُ :

-"عَلِيكِ أنْ تتصرَّفِي الآنَ؛ اصْنَعِي أيَّ طَعَامٍ آخر!!"

قالتْ أُمِّي :

-"أيُّ طَعَامٍ؛ مِثْلُ مَاذَا ؟!"؛ ألَمْ نتَّفِقْ؛ ووعدتَنِي بأنَّكَ ستجلبُ لنا سَمَكًا مَشْوِيًا ؟؟"

قال لها؛ وهو يَعُضُّ على أسنانِهِ :

-"عنـدك الفولُ، والجُبْنُ، والبَـاذَنْجَـانُ، والبَيْضُ؛ فعَلِيـكِ أنْ تَصْنَعِي لنا ذلك والسَّلَام"

لَكِنْ أُمِّي لَمْ تَسْــكُـتْ؛ وراحـتْ تتكلَّمُ وتتكلَّمُ؛ ولَمْ تنتـهِ حتَّى صفعها وَالِدِي على وجهِها ؛ وصرختْ أُمِّي باكيةً.

كـان إخْوَتِي قـد هَرْوَلُوا إلي حجرتِهم كـالفئرانِ؛ بينمـا كُنْـتُ في الصَّالَةِ أتساءلُ:

-"لماذا لَمْ تسكتْ أُمِّي؛ وتفعلُ ما قاله وَالِدِي؟"

وتذكَّرْتُ كلامَ جَدِّي؛ إذْ كان يُعَلِّمُنِي أنَّ الغضـبَ سَـبَبُ كُلِّ شَرٍّ؛ وأنَّ كُلَّ مشكلةٍ لها حَلٌّ؛ وأنَّ الحلولَ تأتي بعيدًا عَن الغضبِ.

ما إنْ سَــمِعَ الجيرانُ صــوتَ صُرَاخِ أُمِّي وصِــيَاحَ وَالِدِي؛ حتَّى سَــمِعْتُ البابَ يُطْرَقُ بقوةٍ ؛ وتهلَّلَتْ وجوهُ إخْوَتِي حِيْنَ عَلِمُوا بأنَّ فرقةَ الإنقاذِ السر.ـيعِ أتتْ؛ لتَحِلَّ المشــكلةَ كُلِّ مَرَّةٍ ؛ وعم "عبد السميع" جارنا يقولُ بصوته الجَهُورِيّ :

-"افتحِ البابَ يا حســن- يقصــد أَبِي-؛ ففتحتُ البابَ؛ ودخل الجيرانُ؛ ليهـدأوا مِن الوضــعِ وكُلٌّ واحـدٍ منهم بكَلِمَـة كما اعتـادُوا واعتدنا نَحْنُ على ذلك أيضًــا!!؛ ولَمْ ينصر.ـفُوا حتَّى قَبَّلَتْ أُمِّي رَأْسَ وَالِدِي وهي تبكي، وهو يربتُ على كَتِفِها ثُمَّ قامتْ ؛ لتصـنعَ لنا الغداءَ؛

وأنا أتساءلُ في نَفْسِي: ماذا كان سيحدثُ لو صنعتْ أُمِّي الغداءَ دُونَ أَنْ تُحَوِّلَ البيتَ إلى مُسَلْسَلٍ دِرَامِيّ؟!".

التعريف

بكُتَّابِ

"خبز تحت الحصار"

الكاتب / سامي علوان

- ❖ كاتب مصري من مواليد محافظة البحيرة
- ❖ حاصل على ليسانس حقوق (جامعة الزقازيق)
- ❖ عضو مجموعة إدارة قناة وجريدة :"شبكة أخبار مصر"
- ❖ صدر له مجموعة قصصية بعنوان :"ليلة في روض الفرج"
- ❖ صدرت له مسرحية بعنوان :"كتكت الحكيم"
- ❖ شارك في مجموعة قصصية بعنوان :"طريق اللا عودة "
- ❖ شارك في ديوان شعري اسمه :"العزف على المشاعر"

الكاتب / شريف البحيري

❖ كاتب مصري

❖ نُشرت له قصة قصيرة بعنوان :"صرخة أب "

❖ له اثنتين "نوفيلا" هما : "رسالة بطل"-"صورة من الماضي"

❖ نُشرت له العديد من القصص القصيرة الكترونيًا

❖ يتطلع لمكانة جيدة في عالم الكتابة

❖ يتمنى أن يصبح كاتبًا يستمتع القراء بمؤلفاته

الكاتب / إبراهيم صالح

- ❖ كاتب مصري
- ❖ حاصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية
- ❖ كاتب وباحث في العلوم الإنسانية
- ❖ مهتم بالنقد الأدبي والتاريخي

الكاتب / محمد سيد

- ❖ كاتب مصري
- ❖ من مواليد محافظة القاهرة
- ❖ يعمل معلمًا للغة العربية
- ❖ يكتب الشعر العامي
- ❖ مهتم بمسرحة المناهج ؛وحصل على التكريم عدة مرات في مجال المسرح المدرسي
- ❖ مهتم بالكتابة في مجال الخيال العلمي للشباب
- ❖ قصة "إلى المسجد" أوَّل عمل منشور ورقيًا

الكاتب / يوسف حسين

- ❖ كاتب مصري
- ❖ من مواليد محافظة الجيزة
- ❖ حاصل على بكالوريوس تجارة
- ❖ مدير دار نشر "اسكرايب"
- ❖ مؤسس جروب :"المحيط الأدبي"
- ❖ مهتم بكتابة القصة القصيرة؛ وساهم في نشر :"انتفاضة حواء" "مشهد محذوف"
- ❖ صـــدر له العديد من الروايات :"صـــاحبة القصـــاص"-"كيد الرجال "-"لعبة الموت"- "الدرغل"
- ❖ حصـــلت رواية :"كيد الرجال" على المركز الثالث في مهرجان همسة للفنون والآداب في مصر(2018)
- ❖ حصـــلت نوفيلا :"أديرا" على المركز الأول في مهرجان همســـة للفنون والآداب في مصر(2019)

الكاتب / تامر عبد الحليم

❖ كاتب مصري
❖ عمل معلمًا للغة العربية بمصر والسعودية
❖ عمل كمحرر صحفي بالعديد من المواقع الإخبارية:
❖ "صدى الأمة "- "الكورة فائز"-"المؤيد"-"أسرار المشاهير"
❖ مدير قسم الأدب والثقافة حاليًا بموقع :"صدى الأمة الإخباري"
❖ مهتم بالأنشطة الطلابية؛ وساهم في صعود طلابه لمنصات التكريم:

- المركز الأول في مسابقة :"فارس الإلقاء" على مكتب الرائد
- المركز الأول في مسابقة "تحدي القراءة العربي" على منطقة الرياض
- المركز الرابع في مسابقة "نقاء" في القصة القصيرة

❖ صدر له كتاب بعنوان :"مدرسة الحياة بين القاهرة والرياض"
❖ شارك في مجموعة قصصية اسمها :"عربة الأحلام"؛ وشارك فيها بقصة: "ضب مشوي"

الكاتب / محمد إسماعيل

- ❖ كاتب مصري
- ❖ مهندس مساحة
- ❖ له رواية بعنوان :"وسقطت أوراق شجرة الكافور"
- ❖ له مجموعة قصصية بعنوان: "مشاعر شتاء"

الكاتبة / سليمة مليزي

❖

❖ كاتبة جزائرية

❖ شاركت في تأسيس أول مجلة لأدب الطفل في الجزائر

❖ تكتب المقال الصحفي ،القصة القصيرة، الومضة، قصيدة الهايكو

❖ حاصلة على الدكتوراه الشرفية الفخرية من المركز الثقافي الألماني الدولي في بيروت

❖ فازت بأكثر من عشرة جوائز على مستوى الوطن العربي في القصة، والشعر، والنقد الأدبي

❖ تعمل حاليًا رئيس القسم الثقافي في جريدة "السياحي" الورقية

❖ تعمل أيضًا معدة للبرامج الإذاعية الثقافية

الكاتبة / شمس الأصيل

❖ كاتبة جزائرية

❖ الاسم فضيلة نويقس

❖ من مواليد 18-8-1990م بولاية "ميلة" بالشرق الجزائري

❖ حاصلة على ليسانس من كلية الآداب واللغات تخصص (لغة وأدب إنجليزي)

❖ بدأت الكتابة في الشعر والخواطر

❖ لديها مجموعة قصصية

❖ قصة :"صيحة فجر الغاب" أول تجربة لي في النشر الورقي

الفهرس

التعويذة 4
الطريق 10
شيء من الشرود 27
صضف 1936 31
صيحة فجر الغاب 46
طيف ملائكي 57
لعنة الفرولة 76
الرفات السادس 81
إلى المسجد 92
سوط الغدر..... 94
واق مرير 95
فقدان 96
بقايا فرح 97
زمن من نار 98
خبز تحت الحصار 100
شبح الظلام 102
انبلاج الفجر 104
همس الأنين 105
غربة من أجل الفرح 106
ربيع الثورة 107
خيانة الفداء 108
حب عذري 109
بكاء الشياطين 116
أديرا 129
نساء تهوى الدراما 177